# ليلة ٧ يوليو

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

اسم الرواية: ليلة ٧ يوليو

اسم المؤلف: محمد وهبة

التدقيق اللغوي: ملك محمد جلال

تصميم الغلاف: محمد مجاهد

الإخراج الداخلي: خالد محمود

رقم الإيداع: ٢٢٨٨١ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٦٣٧٢-٠-٥

مسار للنشر و التوزيع

Massar publishing & Distribution

ش- حسن خطاب - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية

01020439639

massar.pub1@gmail.com

# ليلة ٧ يوليو

محمد وهبة

مسار
للنشر و التوزيع
Masar publishing & Distribution

# إهداء

إلى من رحلوا عن الدنيا ولم يرحلوا عن خاطرنا..

- خالي الحاج أحمد عبد الله
- الحاجة رحمة طه
- د. هشام سرج

# (صفر)

ليلة ٧ يوليو، ٢٠١٨

تصاعدت الأدخنة نحو سماء القاهرة، واختلط نسيجها الرمادي القاتم بانعكاسات متزامنة من الأحمر والأزرق، ونداء يزلزل أحلام النيام في ساعات الفجر الأولى «افسحوا الطريق للإسعاف» ويكرر عبر مكبر الصوت بنبرةٍ أكثر غضبًا وحرارة «افسحوا الطريق». كان الحريق قد التهم الطابق الثالثَ بالكامل بإحدى مبانِ حي السيدة زينب، حتى بدأت تتساقط شظايا النار على المارة؛ فراحوا يتدافعون هربًا من الموت، ولم يضاهي النار ضراوة إلا عويل النساء.

وصلت عربات المطافئ وتقدمت نحو المبنى وبدأت تُغرق الطابق بالماء، وصعد أحد جنود الدفاع المدني نحو الشرفة، وتقدم نحو بابها الخشبي وحطمه بالكامل؛ فانفجرت النار من الداخل؛ فعاد للخلف وراح يصرخ من الأعلى «اطلقوا الماء.. اطلقوا الماء!!»، ظلت قوات الإطفاء تواصل عملها ولم يكف الناس عن المشاهدة إن كان من شرفاتهم مع عبارات «إنّا لله وإنّا إليه راجعون» أو من أرصفة الشارع مع دعاء كان ينتهي عند لسان أحدهم فيكرره شخص آخر «اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا» .

كانت القاهرة في حالة سكون إلا رعايا السيدة زينب؛ عيونهم لم تعرف السكينة أو النوم، وكلما رفعوا رؤوسهم للسماء وجدوا الأدخنة السوداء بدلًا

من قمر يوليو، وكلما نظروا أسفلهم وجدوا أقدامهم غارقة بين بحيرات من مياه معكرة، وعربات إطفاء، وروائح أجبرتهم على سد أنوفهم، ومن لم يتحمل المشهد غادر بعائلته الشارع في منتصف الليل، أما سيارة الإسعاف ظلت تنتظر ولادة ميت من رحم الحريق.

عند قرآن الفجر طل جندي الدفاع المدني من الشرفة مرة أخرى، وصاح من الأعلى «انتظروا.. انتظروا.. لقد وجدت أحدهم».

# (١)

٢٦ يونيو،٢٠١٨

أخذ جلسته المعتادة في مساء كل ثلاثاء بين رواد مقهى الونش بشارع طلعت حرب، ومن لا يعرف مقهى الونش في زمننا هذا لم يفته الكثير، مجرد مقهى يتكو ن من حانوت صغير وبعض الطاولات على الرصيف العام، لا يعرف من المشروبات الساخنة إلا المشروبات الكلاسيكية؛ الشاي، القهوة، الينسون، وإذا أردت غير ذلك سينظر لك الصبي باحتقار ويضعك مع حثالة الجيل الجديد الذين كفروا بالشاي «الكشري» وارتموا في أحضان الكاباتشينو، وللمزيد من الشفافية دعنا نقول أن عم رضا هو الصبي في قصتنا، صبي يبلغ من العمر خمسة وستون عامًا، ذو جسد هزيل، وظهر منحني، مع رأس سمراء تغلفه التجاعيد؛ تجعل من وجه رضا خريطة صغيرة تغطيها خطوط الطول والعرض. وضع علبة السجائر والهاتف المحمول على سطح طاولة بلاستيكية صغيرة عندما باغته عم رضا من الخلف، وهو يرحب به مهللًا:

- أستاذنااا.

نهض من مقعده ضاحكًا وهو يلتفت ناحية الصوت، ومن ثم صافح عم رضا وتبادلا العناق المصري الحار:

- عم رضا، كيف حالك؟

ابتسم عم رضا وتصدر اصفرار أسنانه الصورة:

- بخير يا أستاذنا، لم نراك منذ فترة!

ربت على كتف عم رضا مرتين مبتسمًا له بعطف:

- يا رجل يا طيب، ومن أنا حتى تحب رؤيتي؟

- أنت الخير والبركة يا أستاذنا.

- الله يحفظك يا عم رضا.. أنت تعرف طلبي المعتاد؛ شاي خفيف، أربعة ملاعق سكر، في الثامنة مساءً عند بداية البرنامج بالطبع.

عاد لمقعده واعتدل في جلسته، وصوب عينيه ناحية التلفاز المستقر على الحائط الخارجي؛ الذي راح يعرض إعلانات ما قبل الحلقة، وراح يفكر أنه ماذا سيكون الحال إن اعتزل الجلوس في مقاهي الكهلة؛ التي ما إن يدخلها شاب مثله حتى يصبح أستاذهم وأستاذ الجميع تحت قناعة أن (العواجيز) زائلون ومستقبل المقهى في أيد الشباب أولاد الكلب، نعم؛ عم رضا يحب أن يلقبهم بذلك، ولا أحد يعرف أو يهتم بنظرته. راح يفكر ماذا لو جلس في مقهى شهير ممن يقدمون الكاباتشينو وزجاجة المياه المعدنية التي ما إن تفض غطاءها وتشعر وكأنك فضضت بكارة فتاة في الثانوية تحت كوبري مشاة قديم، راح يفكر أنه سيلقى المصير المشؤوم.. طلباتك ليست مجابة بالضرورة؛ لأنك مجرد كومبارس صامت يجلس في إحدى الزوايا وحيدًا بلا ونيس، تأتي وفي يدك كتابٌ ما تتدعي قراءته، لا جديد، المقهى مكتظ بنخبة المجتمع، اصطحب في يدك فتاة يمكن دراسة جغرافيا العالم على قوامها الحار جدًا صيفًا معتدل مهلك شتاءً؛ وحينها سندخلك من بوابة كبار الزوار، ولكنك لن تستطيع فعل ذلك.. ولذلك فمقهى الونش، مقهى من خرجوا على المعاش هو الملجأ الآمن لك، وستصبح الملك في ملجئك في كل

مرة ترتدي أنظف ثيابك وفي يدك كتاب ما واضعًا قدمًا على قدم، ستصبح سيدهم، ومن يريد شيء ما من سيده سيبتسم له، وهو يناديه:

- أستاااذنا، الشاي.

***

الثامنة مساءً، في حضرة الكريمة، البرنامج اليومي الشهير لإعلامية مصر الأولى «كريمة إبراهيم». البرنامج الذي يحدث مشاجرات بسببه في البيوت والمقاهي ليس لحساسية محتواه؛ ولكن لأنه يوافق في بعض الأحيان مواعيد مباريات الدوري المصري ودوري أبطال أوروبا، إلا إذا كانت المباراة لفريق «ليفربول» حينها تذهب كريمة وأم كريمة للجحيم. ذهب عم رضا تجاه التلفاز، وقام برفع الصوت ليغطي تصفيق جمهور الحلقة على أصوات أبواق سيارات الشارع وبائعيه. أشعل ياسين سيجارته وأخذ أول رشفة من كوب الشاي المجيد، دخلت السيدة كريمة متأنقة وفي أبهى صورها كالمعتاد، ترتدي عباءة سوداء يدوية الصنع تمثل تقاليد بدو سيناء، وراحت تحيِي الحضور كتحية رئيس جمهورية خرج لتحية الشعب في عيد النصر، ولِمَ لا؟ كلمة كريمة إبراهيم مسموعة عن كلمة الرئيس عند فقراء الطبقة المتوسطة وما أسفلها، ولذلك أصبحوا يلقبونها بسيدة مصر الأولى، وأصبح لقبها القديم كالثورة؛ ذكرى منسية.

كانت كريمة إبراهيم سيدة عظيمة الشأن والمقام لدرجة تجعلك تخشى تخمين عمرها أو ميولها أو عاداتها، كانت كيان مقدس في قلوب المصريين لا يمكن المساس به. جلست على مقعدها المذهب الشهير، وراحت ترمق ردائها بنظرات فاحصة، ومن ثم التفتت ناحية الجمهور بابتسامةِ حبٍ،

وقالت:

- ما رأيكم؟.. جميل؟

تمتم ياسين بملامح على أهبة الاستعداد لموضوع الحلقة:

- عظيم.

تناولت من يسارها عدة كروت على غلافها اسم البرنامج، ونظرت للكاميرا الأمامية وبدأت مقدمتها:

- طِب تعديل الجينات والذكريات، مَن مِنا لم يسمع عن هذا الطب في الأسبوعين الماضيين؟.. بدلًا من أن تذهب للطبيب وتخبره أنك تعاني من ألم في الرأس أو المعدة، تخبره بأنك تشعر أنك كسول أو بخيل وتريد التخلص من ذلك!

قاطعها ياسين بصوتٍ خافت:

- أو جبان.

- يتم عرضك على جهاز يحلل بيانات المخ، ومن ثم تظهر النتيجة التي على أساسها ستشرع في رحلة علاجية تمتد لأسبوع تقريبًا.

التفتت ناحية الجمهور، وعقبت بنبرة مازحة:

- أظن أننا سنقضي على ظاهرة الطلاق بهذا الطب الجديد؛ لن تستطعن الشكوى من بخل أزواجكن بعد ذلك.

التفتت ثانيةً تجاه الكاميرا، وعلى شفاهها بقايا ابتسامة:

- لن أطيل عليكم.. في ضيافتنا اليوم دكتور إسماعيل محفوظ.. أستاذ

طب الأعصاب بجامعة برلين والذي قرر أن يعود للقاهرة؛ لينقل لنا خبرته ويصبح هذا الطب الجديد متاح للشعب المصري.

نظرت تجاه إحدى المداخل المؤدية للاستديو، وقالت بنبرةٍ مُرحبة:

- تفضل يا دكتور.

***

سبتمبر ١٩٩٩

بدأ التلاميذ في الاصطفاف خلف بعضهم البعض استعدادًا لطابور الصباح، عُزف النشيد الوطني وبدأ الجميع في الترديد خلف نغمات الأكورديون النشاذ بغناء أكثر نشاذًا مستعدين لحرب مقاعد الصفوف الأولى، انتهى النشيد وبدأ التلاميذ في الانصراف لفصولهم بخطوات عسكرية منظمة، وفور وصول أقدامهم لأولى درجات مبنى الفصول تحول كل منهم لصرصور صغير يصارع على البقاء. كان ياسين يصعد الدرج بخطوات بطيئة ولم ينتابه حتى الفضول لمعرفة سر خُلوّ درجات المبنى من التلاميذ في لحظات، كان يدرك أنه لا زالت هناك دقائق على بداية الحصة الأولى.

وصل للفصل وتوقف عند الباب وراح يتأمل المشهد بوجه شاحب وعيون ناعسة، مشاجرة عند المقاعد الملاصقة للنوافذ المطلة على الشارع، فتاة تجذب الأخرى من شعرها وآخر يريد الجلوس على أحد المقاعد بمفرده عنوة، حينها أدرك أن الحروب لا تكون في ساحات القتال فقط كما كان يشاهد في الأفلام، وأنها من الممكن أن تشتعل في مدرسة حكومية حقيرة!

ظل متسمرًا في مكانه وعندما أيقن أن المعركة ستظل مستمرة لدقائق إضافية راح يتأمل حوائط الفصل؛ حوائط جيرية مطلاة باللون الأصفر تزينها لوحات من الورق المقوى عن القدس وحرب اكتوبر وعن النظافة الشخصية وأركان الصلاة الخمس. انتهى من التأمل، ولم تكن المُعلمة قد وصلت بعد؛ فأخرج شطيرة من الجبن وراح يلتهمها ببطء وقبل أن ينظف يديه من أثار الخبز كانت قد وصلت، نكزته بخفة في كتفه الأيسر، وسألته بصوتٍ رقيق:

- ماذا تفعل هنا؟

ارتبك من نكزتها والتصق بالباب؛ لم يلمسه أحد من قبل إلا أمه في ساعة العناق وأبيه في دهر العقاب. أجاب بصوت كصنبورِ مياهٍ صدأ:

- لم أجد مقعد.

رفعت عصاة طويلة من الغاب وضربت بها بقوة على أول مقعد مقابل للباب، وصاحت في الجميع:

- كفوا عن الشجار، إذا وجدت أحدكم واقفًا سأحطم رأسه، مفهوم؟

ارتعب الجميع وارتضى كل فأر بمخبئه، وتحولت ساحة الحرب لصحراء جرداء؛ فالتفتت المدرسة ناحية ياسين وقالت له بنبرةٍ حانية:

- هيا.. اذهب واعثر لنفسك على مقعد.

تقدم بخطوات بطيئة وراح يسير بين الممرات باحثًا عن مقعد فارغ، اقترب من أحد المقاعد في الصف الأوسط؛ فدفعه أحد الجالسين مخاطبًا إياه بنبرة ازدراء:

- ابتعد.

وجد مقعد آخر في الصف الملاصق للحائط:

- هل لي أن أجلس؟

- لا.

ظل سائرًا حتى نهاية الممر، وعندما وصل للنهاية بلا جدوى التفت ناحية المُعلمة فوجدها منهمكة في كتابة موضوع الدرس على السبورة، التفت ناحية زملائه في الفصل الذين سيشاركوه المرحلة الابتدائية لخمس أو ست سنوات على الأرجح؛ فوجد الجميع منهمك في إخراج كتاب اللغة العربية والكتابة خلف المُعلمة. نكزه أحد الجالسين في المقعد الأخير من الصف الملاصق للممر وهو يقول بنبرة هامسة:

- أنت!

التفت ياسين ناحية المنادي؛ فوجد طفل تبدو على إمارات وجهه البلاهة، فاستطرد الآخر حديثه:

- اجلس معنا.

عقّب باسمًا:

- شكرًا.

- ما اسمك؟

- ياسين.

صاحت المُعلمة من موضعها غير ملتفتة للمصدر «الصوووت!!!».

***

تقدم دكتور إسماعيل محفوظ لداخل الاستديو وعلى ثغره ابتسامة عريضة قابلتها كريمة إبراهيم بالمثل، صافحته ومن ثم أشارت للأريكة المقابلة ودعته للجلوس. كان دكتور إسماعيل شرقي الملامح؛ بشرة خمرية وشعر قصير وخشن ورأس فارغ من المنتصف، يتمتع بملامح جادة بعض الشيء حتى في لحظات الفرح، يرتدي بذلة سمراء تتوسطها رابطة عنقٍ من الأحمر الداكن، استقر على الأريكة؛ فرحبت به:

- أهلًا بك يا د. إسماعيل.

أجابها بصوت رخيم:

- أهلًا بك.. كيف حالك؟

- بخير.. أول لقاءاتك التلفزيونية بعد العودة لمصر، صحيح؟

- نعم، نعم.. وافقت على الظهور؛ لشرح ما هو طب تعديل الجينات للناس؛ لأننا اكتشفنا أن فئة كبيرة من الشعب لا تدرك ما نفعله هنا وما نقدمه.

وضعت ساقًا على الساق الأخرى، وشابكت أصابع يديها ببعضهم البعض وأسندتهم على ركبتها اليمنى، وعقبت:

- حسنًا.. كلنا أذان صاغية.

- منذ بدأ الخليقة ونحن نعلم أن الطفل يشابه أبويه في تكوين البشرة والتكوين الجسماني بالطبع.. بعض الأحيان يصاب أحدهم بالصلع المبكر

لسبب وراثي، أحدهم يصاب بالسكر لنفس الأسباب، ولكننا اكتشفنا في الأعوام السابقة بعد أبحاث عديدة أن الإنسان يمكنه أيضًا أن يرث عادة ما أو طبع ما من أبويه أو أجداده.. إذا تميز نجلك بالكرم أو بالشجاعة لا ضير في ذلك.. ولكن ماذا لو كان نجلك خبيث أو مستبد؟ كلها أشياء كانت تصيبنا ولم يكن لدينا القوة للتدخل فيها. مثل الأسد، لا يستطيع أن يتوقف عن القتل؛ هي غريزته وفطرته منذ بداية الخليقة، ولكنها تمنعنا من أن نعيش سويًا في بيئة واحدة، ونحن هنا نتوغل في فطرة الأسد لنوقفه عن القتل ونضمه لصفوفنا.

قطبت حاجبيها، وتساءلت:

- ولكن أليس هذا اعتداء على قوانين الطبيعة وإرادة الخالق؟

- كل ما نفعله هو تهذيب صفات الإنسان وذكرياته، وهذا الطب يخدم بشكل أكبر مجتمع المرضى النفسيين الذين يعانون من أمراض لا يعترف بها الناس في المجتمع، نحن نساعدهم على العودة للحياة، مثل من فقد أهله في حادث ما، أو من يعانون عذاب الضمير، ومن يريدون تخطي صدمة ما.

أصدر عم رضا صوت من فمه لا يصح وصفه، وصاح مستنكرًا:

- يا أبناء العاهرة.. ماذا يحدث في الدنيا؟

أصدر ياسين ضحكة مكتومة ولوح لعم رضا:

- الصبر يا عم رضا.

أعادت بعض الخصلات المنسدلة للوراء:

- حسنًا.. دعنا نتحدث عن خريطة البرنامج العلاجي.

- البرنامج أن المريض يقوم بالاتصال بخدمة العملاء ويتم حجز موعد الكشف.. يأتي لنا ويدفع مصروفات أولية خمسمائة جنيه، نقوم بعمل مقابلة معه للوقوف على أسباب قدومه لنا.. عند الموافقة يتعرض للتنويم لمدة نصف ساعة يرى فيها أحلام اصطناعية عن ما يؤرقه، ونرى مدى تفاعله مع مضمون تلك الأحلام، ثم يخضع لبعض الجلسات، وفي النهاية يخضع للعملية، ليصبح جاهزًا للعودة للحياة في نهاية الأسبوع.

استقبلت الأمر بانفعالات وجه طبيعية، ومن ثم بادرت بسؤال جديد:

- دكتور إسماعيل، هل كل الناس في حاجة لهذا العلاج؟

- بالطبع لا.. لدينا نظرية يمكن أن تُصنف أنها عنصرية بعض الشيء، ولكنها وللأسف حقيقية.

- وماذا تقول تلك الإحصائية؟

- تقول أن نسبة كبيرة من الفقراء وأهل القرى هم من في حاجة لهذا العلاج؛ ليتقدم نسل البشرية.

- حقًا؟

- العلم من قال ذلك.

صاح أحد رواد المقهى من الكهلة:

- رضا.. ما هذا الهراء؟ دعنا نشاهد أي شيء محترم بدلًا من هذا الحديث النجس.

حوّل عم رضا القناة وتصدرت راقصة عشرينية الشاشة، وراحت تتلوى بمؤخرتها يمينًا ويسارًا، فالتقط ياسين هاتفه من على الطاولة، وراح للرقم الوحيد الذي يهاتفه؛ فاطمة. أجابت بعد الجرس الأول؛ فبادرها بنبرة يملأها الشغف والحماس:

- ما رأيك؟

أجابت بصوت رقيق يظهر الحب من بين حروفه:

- هيا نفعل ذلك بالطبع.

***

أنهت فاطمة المكالمة ووضعت الهاتف على كومودينو صغير ملاصق للسرير، ومن ثم أغلقت الحلقة على الكمبيوتر المحمول ونهضت واتجهت ناحية المرآة، كانت مرآة متواضعة، على حوافها بعض الشروخ القديمة التي لم يهتم أحد لإصلاحها ولم يتم تغطيتها إلا بلواصق طبية، توقفت أمام صورتها الحية وراحت تتأمل قسمات وجهها الصغير الذي تختبأ بين جنباته أحلام عظيمة، وراحت تمر بأنامل أصابعها على مسام وجهها حتى وصلت إلي بر شعرها الحريري الطويل؛ فراحت تمشطه للخلف بأصابعها وعلى شفاهها ابتسامة حسرة. كانت تتمتع بملامح عادية يمكن أن تراها كل يوم في الشوارع الترابية الضيقة وفي مترو المكافحين بين شلالات العرق، ولكنها تجذبك لها بشكل ما يجعلك تريد رؤية هذه الملامح العادية في كل ساعة وكل يوم. في عيونها قصائد لا يمكنك قراءتها إلا بلغتها التي لا يفهمها إلا القليل! في عيونها حرب وسلام يتبادلان الأدوار، تارة بكاء على النفس، وتارة غرق في لهفة الحب البخيل. مطت شفتيها ناظرةً إلى اللا شيء، لاعنةً

لكل الأسباب التي جعلتها مجرد صديقة في حياة ياسين. كانت تعيسة مثل هيئة غرفتها، ولكنها على الأقل كانت تعلم أن طريق الحرية سينفتح قريبًا، سواء بالمرور من كمين العائلة أو بالقضاء عليه، ولكنها في كل الأحوال ستمر! قام أحدهم بدفع باب الغرفة؛ كانت أمها، أخبرتها بنبرة غليظة تكفي لإيقاظ ميت في تربته:

- سيصلون بعد قليل.. احسني التصرف!

قطبت جبينها، وعقبت:

- لماذا؟

- هذا الشاب من عائلة محترمة وأنا وأبيك قررنا.

- قررتم؟

نظرت لفاطمة بحدة:

- هل لديك اعتراض؟

- أنا لم أراه ولا أعرفه.

- لا تسلكي معي هذا الطريق؛ لأنه لن يؤدِ إلا لما نريده في النهاية.

- لم أراك تصرين على أي شخص تقدم من قبل، ما المميز في هذا الشاب وعائلته لتتحدثي معي هكذا؟

- هذا الأمر ليس فيه نقاش.. نحن نريد هذه العائلة ولا يمكننا أن نعطي جسدك هذا لشخص لا قيمة له.

عقبت وقد زادت نبرتها حدة:

– وما دخل جسدي بالأمر؟

– أنت أجمل فتاة في القرية وجسدك أوصلنا لعائلة لم نكن لنحلم بأن ترانا.

– اه.

– أسرعي.

خرجت الأم وأغلقت الباب من خلفها؛ فعادت فاطمة خطوتين للخلف، وجلست على حافة السرير وما زالت عيناها مصوبة ناحية المرآة؛ فوجدت هالة من الضباب الأسود قد بدأت تحيطها من كل اتجاه، وهبطت قطرات من الدموع على شواطئ وجنتيها، وقبل أن تدخل في أمواج من البكاء نهضت وراحت ترتدي أجمل ما لديها، وقررت أن الليلة هي آخر ليلة في ليالِ الجمال.

بعد نصف ساعة تقريبًا كان قد وصل العريس. تحدثت العائلتان في الأمور العامة مع تقديم بعض المجاملات المزيفة في حق فاطمة وعائلتها متوسطة المستوى عظيمة الشأن مثلما ينظرون لأنفسهم. فكل فتيات العائلة ذهبت لرجال يعملون في الخارج، لا يصح أن ترتبط بمجرد شاب مهندس أو طبيب، مهندس ويعمل في الخليج أو طبيب ويعمل في أوروبا أو أمريكا، لا يمكننا أن نعطي قوام فاطمة وصدرها لشخص لم يدخل مطار القاهرة من قبل. ظل الجميع يتحدث وينافق ويتحدث حتى جاءت اللحظة المنتظرة، فاطمة ستجلس مع العريس ليتحدثا قليلًا. جلست فاطمة عند طرف أريكة مستقرة بغرفة الضيوف الفاخرة ولا يوجد شيء آخر فاخر في منزل فاطمة إياها، وجلس هو عند الطرف الآخر وراح يتفحصها لثوان على الرغم من ارتدائها من ثياب تغطي كل شيء، باغتته:

- تحدث.

لا فائدة من وصفه، كان شاب مثل أي شاب يبحث عن زوجة ليجامعها في كل عطلة ولا أكثر من ذلك، يمكننا أن نصف نبرة صوته فقط، كان صوته فيه شيء يحول حروف اللغة العربية لهراء بطعم الخراء:

- والدتك أخبرتني انك تحبين القراءة.. هذا صحيح؟

أجابت بنبرة كمن تجلس في مقابلة عمل غير هامة:

- نعم.. وأنت؟

- بعض الأحيان.. «ابتسم بسخرية» ولكن لا تظنين أنك أفضل مني لمجرد أنك تقرئين أكثر من مائة كتاب في العام.

رفعت حاجبيها داهشةً بسخرية:

- اه، أنت تعلم كل شيء على كل حال.. ما فائدة هذا اللقاء إذن؟

- لنتعارف؟

- أوه.. أجابة مثالية.

رمقها بامتعاض:

- هل تسخرين مني؟

- وهل هناك شيء مضحك يمكننا السخرية منه في هذه الجلسة؟

- لغة الكتب.. ها قد بدأنا.

- لا لغة كتب ولا لغة قردة.. أنا أتحدث بطريقتي مثل ما تلك هي

طريقتك.. على كل حال نعم أقرأ، ولديّ بعض الأحلام أود تحقيقها.

– لا أعتقد أن هناك أحلام أكثر جمالًا من تكوين عائلة محترمة.. هل لديك أحلام أخرى؟

– بالطبع.. ولكن لا يمكنني مشاركتها مع كل من يدق باب منزلنا.

سادت لحظات من الصمت وشعرت بأنها ستخرب خطتها السرية؛ ففاجأته بنبرة حماسية أرعبته:

– أنا أحب الطبخ.. أعشق الوقوف في المطبخ لساعات.

ابتسم بلهفة بلهاء:

– حقًا! دعيني أفكر.. امم هل تجيدين عمل البشاميل؟

– بالطبع.. هل تحبه؟

– أعشقه.

أيقنت أنها تملكته من حبال معدته؛ فراح يتحدث بلهفة طفل:

– إذا تزوجنا سأصطحبك معي للخارج، أنا أعمل منذ عامان بأبو ظبي.

– أكيد أبو ظبي أجمل من طنطا.

ضحك واستطرد حديثه:

– يبدو أننا سنتحدث في الأيام القادمة.

– بالطبع بالطبع.

وانتهت الليلة وذهب كل جلاد لحال سبيله، وعادت فاطمة لغرفتها

وخلعت ثيابها، وفكت قيود شعرها، وأخرجت هاتفها من بنطالها وطلبت الرقم الوحيد الذي تهاتفه؛ رقم ياسين، أجابها؛ فقالت:

- ياسين، أنا أنوي الهرب، هل ستساعدني؟

## ( ٢ )

مايو ٢٠٠١

انتفض ياسين ابن الثماني سنوات من نومه فزعًا فاركًا عيناه بتوتر وكأنه يمحيهما من الوجود، نهض من سريره وعلى وجهه إمارات الخوف، وتقدم ناحية باب الغرفة بخطوات بطيئة في الظلام ومن خلفه شقيقته الصغيرة تتشبث بقميصه باكية بصوت ملحوظ، أخذ يربت على رأسها ورفع إصبعًا ناحية فمه مطالبًا إياها بالصمت. كان صوت الصراخ قادمًا من الصالون، أخرج رأسه خارج حدود غرفته فوجد أمه تصرخ في وجه أبيه وتدفعه للخلف:

- أليس في دمائك ذرة نخوة؟!

اعتاد ياسين على رؤية أبيه يفرغ ما لديه من طاقة للغضب في وجه أمه، وعندما يمل منها يتعرض هو لما تبقى من طاقة الغضب والضرب اليومية! كان قد اعتاد رؤية الألم والدماء والصراخ ولم يفهم هل هذا هو المألوف عند البشر وأن تلك هي تعاليم عالمهم أم أنه سقط في الجحيم بالخطأ؟.. على الأقل كان يدرك جيدًا أسباب العنف السابقة، ولكن في هذا اليوم لم يفهم ما هي النخوة على العموم، ما سر هذه الكلمة التي جعلت أبيه الثلاثيني صاحب الوجه الحالم والعيون الصغيرة المسالمة بهذه القسوة؟!

لم يختل توازن أبيه من الدفعة، عاد خطوة فقط للوراء، فاعتدل وتقدم

ناحيتها وصفعها بقوة على خدها الأيسر؛ فاختل توازنها وسقطت على الأرض، ولمحت ياسين وشقيقته الصغيرة يسرا وفي عيونهما الصدمة؛ فاغرورقت عيناها بالدموع، صاح فيها ورذاذ اللسان يبدو كوابل من القنابل تحت انعكاس الضوء:

- من أنت يا عاهرة حتى تتحدثي عن أخي هكذا؟ أخي يعرف الله أكثر مني ومنك، من أنت حتى ينظر لك؟

راح يسأل نفسه، ماذا فعل عمه؟.. يراه يتجول في بعض الأحيان في شقتهم في غياب أبيه، يدخل إلى غرفة النوم أثناء غفوة أمه في منتصف النهار، عندما تحضر لهم الغداء يجده يدخل إلى المطبخ ليساعدها، لم يفهم ما الذي فعله عمه الكبير لتشتعل الحرب هكذا! يتذكر أنه رآه يتحسس مؤخرتها خلسة وقد بدا في عيون أمه الضيق والاشمئزاز، هل لهذا السبب أمه غاضبة بشدة؟

التفت الأب ناحية ياسين؛ فوجد وجهه شاردًا وقد ابتل بنطاله ويقف مرتعشًا وعيناه مصوبة تجاه أمه، ولا يكترث لنظرات أبيه! فالتقط زجاجة مشروب غازي فارغة من على طاولة كبيرة تتوسط الصالون وألقاه بها:

- أغلق الباب يا ابن العاهرة.

ارتطمت الزجاجة بالباب وتناثرت شظاياها على الأرض أمام الغرفة؛ فأغلق الباب بسرعة البرق وانسحب للوراء، واحتضن شقيقته بقوة؛ التي راحت تصرخ بلا هوادة. تسارعت دقات قلبه وحاول أن يتمالك نفسه حتى تهدأ شقيقته الصغيرة فلم يستطع! كان يرتعش وكأن درجة البرودة قد وصلت للصفر على الرغم من رطوبة الجو الشديدة في هذا المساء، لم يدرك

ماذا يحدث ولماذا يحدث ومتى سينتهي كل هذا؛ ليركض ناحية أمه ويختبئ من الألم .

تقدم أبيه ناحية أمه وفي عينيه الكراهية، جذبها من شعرها وأخذ يجرها على الأرض، فصاحت بحروف مختنقة بين سيول الصراخ:

- يا ديوث!!!

- أخي أشرف منك ومن عائلتك جمعاء.

توقف وركلها بقدمه في فخذها الأيمن ولم يصرفه إلا دقات باب الشقة المتسارعة، تركها واتجه ناحية الباب وفتحه فوجد شقيقه قبالته وعلى هيئته تعبيرات الانزعاج، كان رجل أربعيني ذو عيون ثعلبية ورأس مفرغ من الخلف مع شارب ثقيل تشوبه بعض الشعيرات البيضاء.

- ما الأمر؟ ما كل هذه الجلبة؟.. ألا يمكننا أن ننعم ببعض الهدوء في هذا المنزل؟

ارتبك الأب، وأجاب بتلعثم:

- أعتذر لك يا أخي.

رمى زوجة شقيقه بنظرات سريعة وهي ملقاة:

- ماذا حدث؟

- ابنة الكلاب تتهمك بأنك تحاول ملاطفتها في غيابي، لقد عاقبتها...

قاطعه مندهشًا:

- أنا؟.. لا إله إلا الله.. هل تظنيني بلا شرف أستبيح النظر لزوجة أخي؟

صاحت في وجه زوجها:

- افعل شيئًا.. أنا زوجتك!!

قاطعها موجهًا حديثه لشقيقه الأكبر:

- لا تقلق.. لقد احتويت الأمر وأعدك أنه لن يحدث مرة أخرى.

اتكأت بكف يدها اليمنى على الأرض وشرعت في النهوض بينما تتألم ويبدو التعب في تعبيرات وجهها، نظرت لهم باحتقار بينما تحاول النهوض، فنظر لها شقيقه الأكبر باشمئزاز والتفت ناحية الأب مشيرًا بأصابعه ناحيتها:

- اطردها من هنا.. إنها لا تستحق الانتساب لعائلتنا.

عقب بنبرة راجية ومتخاذلة:

- أعدك أنها لن تفعل ذلك مرة أخرى.

أعاد الجملة مرة أخرى بصوت أكثر حدة:

- اطردها من هنا!!

أخذ الأمر والتفت لزوجته مشيرًا ناحية الباب:

- مثل ما سمعت.. اخرجي من هنا ولن تعودي ثانيةً إلا بمشيئتنا.

عقب أخيه بنبرة ساخرة:

- إنها تظننا لا نخشى الله!!!

عدلت ملابسها، وراحت تمسح دموعها وتلم شتات شعرها الهائش متوجهة ناحية الباب منكوسة الرأس، وقبل أن تغادر الشقة، قالت مسترجية:

- أطفالي.. أريد أطفالي.

قام شقيقه بدفعها خارج الشقة دون أن تلتقي عيناه بعيناها وأغلق الباب بقوة.

***

٢٧ يونيو،٢٠١٨

في كل حدث جلل في حياة ياسين كان النوم هو هدوء ما قبل العاصفة وشاي مقهى الونش هو من يخمدها في النهاية، وصباح الأربعاء كان بداية لعاصفة جديدة. كان نائمًا وهائمًا في أحلامه، لم تعد تساوره الكوابيس، ولم يعد يرى أبيه في رداء الشيطان في المنام حتى أصبح النوم يقتطع نصف يومه. يذهب للعمل، يعود من العمل، يستلقي على السرير عند السادسة أمام الحاسوب لمشاهدة فيلم ما يتحرر فيه البطل من لعنة ظنها أبدية، وفي نهاية الفيلم تذرف عيناه دموعًا متمنيًا أن يتخلص من لعنته هو الآخر، تأتي الثامنة، يهبط إلى مقهى الونش، يجلس وحيدًا على طاولته المفضلة، شاي خفيف بطعم زحام السائرين وبرائحة الشيشة المعسل وبنكهة أنغام الست.

كانت الحادية عشر صباح الأربعاء عندما أتاه اتصالًا من رقم مجهول، التقط الهاتف من طاولة صغيرة بجانب السرير ونظر للرقم وتوقع أنها مكالمة من المدير لتغيبه اليوم عن العمل، أجاب بصوت ناعس مغلف بالحشرجة، أتاه صوت ملائكي من الناحية الأخرى يلقي التحية:

- صباح الخير، أستاذ ياسين وحيد؟

- نعم، من أنت؟

- أنا ريم من مركز دكتور إسماعيل محفوظ لتعديل الجينات.

انتفض وأزاح الغطاء واعتدل في جلسته، وعقب بارتباك:

- نعم نعم.. أنا ياسين.

- هل تحب المتابعة في وقت آخر؟

- لا لا.. كنت نائماً واستيقظت الآن.

- أعتذر بشدة.

- لا عليك.. أنا معك.

- حسنًا.. أستاذ ياسين، كنت قد ملأت استمارة لتحديد موعد مقابلة للنظر في طلب العلاج مع مركزنا.

- نعم.. حدث ذلك.

- حسنًا.. وددنا أن نبلغك أن موعد المقابلة غدًا في العاشرة صباحًا.. المقابلة ستكون مع أحد الأطباء النفسيين الذي سيحدد بدوره إذا كنت في حاجة لهذا العلاج أم لا، وإن تمت الموافقة ستلتقي الطبيب المعالج؛ للخضوع لتحليل مبدأي يحدد مدى الضرر الواقع عليك من أسلافك ومن حولك.

أخذ يفرك رأسه؛ لأنه لن يستطيع التغيب عن العمل إلا بصعوبة، ولم يتفكر في مواصفات هذا الدكتور النفسي الذي سيحدثه عن حياته وما حدث فيها، فسألها عن فاطمة:

- حسنًا، أردت السؤال عن شخص آخر كان قد تقدم معي للمقابلة.. تدعى فاطمة حسني الشافعي.

- لحظات سأقوم بفحص الأسماء.

غابت لثوان قليلة ومن ثم أجابته بذات النبرة الرقيقة؛ نبرة فتاة ما زالت في بداية العشرينيات، أنهت جامعتها ولجأت لوظيفة مؤقتة تسد مصروفاتها، من الصعب عليها أن تفهم ما هو طب تعديل الجينات، ولكنها على الأقل تدرك أن جميع عملاء هذا المركز يتشابهون في الحديث، نبرة صوت هادئة وخجلة ولسان لا يسأل كثيرًا:

- نعم.. لقد وجدتها، هي أيضًا مقابلتها غدًا في العاشرة صباحًا.

شكرها وأنهى المكالمة، ومن ثم تناول علبة السجائر وأشعل سيجارة الصباح وراح ينفث الدخان بتوتر حتى أصبح كالضباب في سماء الغرفة. كانت النافذة مغلقة وتتسلل من خلالها بعض خيوط الضوء، ففتح النافذة على مصرعيها وراح يراقب المارة في حي السيدة زينب من شرفته في الطابق الثالث.

التقط الهاتف مرة أخرى وطلب رقم فاطمة، أجابت على الفور ولم يستطع سماع ثانية واحدة من الجرس، أجابت بحماس:

- ها، هل فكرت فيما أريده؟

أصدر قهقهة مكتومة بعض الشيء أثر النعاس:

- صباح الخير أولًا.

ضحكت بدورها:

- صباح النور ثانيًا.. ها، هل ستساعدني؟

أخذ نفسًا من السيجارة ونفث الدخان باتجاه الشمس:

– أنت تعلمين انني لن أستطيع حمايتك والا لما كنت ملئت طلبت العلاج في مركز المجانين هذا.

– ولكنك تعلم أنني إن بقيت.. سأتزوج.

– فاطمة، أظن أنكِ على دراية تامة لماذا أعيش بمفردي.. ولماذا أريد هذا العلاج بشدة.

– أنا لا أعرف سواك يا ياسين.. وإن عرفت فأنا لم ولن ألتقي بشخص مثلك، وهذه مصيبة بحد ذاتها.

– نعم..

– إذن لماذا اتصلت بي في هذه الساعة؟

راح ينظر إلى اللا شي، وقال بنبرة مصبوغة بالخوف:

– المقابلة غدًا..

– أها.. هل أنت خائف؟

– ربما .

– وأنا أيضًا يا ياسين..

فرك لحيته الخفيفة وتسائل بحنق:

– هل تظنين أن هذا العلاج سيأتي بثماره وسأصبح شخص طبيعي يستطيع أن يخالط الناس؟ هل تظنين أن أمي ستوافق على عودتي للمنزل في

النهاية بعدما طردتني؟

– هل تظن أنت؟

– لا أدري.. أنا أريد أن أثبت للجميع أنني لست مثل أبي، لست جبانًا أو كسولًا.

تنهدت وقالت بنفاذ صبر:

– إن كان لا يوجد أحد في هذا العالم يراك؛ فأنا أراك وأتقبلك وأحبك على ما أنت عليه.

أطلق زفيرًا يائسًا:

– لا ضغينة بيننا يا فاطمة، ولكنني أريد حب أمي قبل كل ذلك.

– وأنا أريد الحرية يا ياسين.. أريد التخلص من تلك العتمة التي تطاردني، أريد أن أعيش ما تبقى من حياتي في سلام، في وطن أختاره بإرادتي، مع من أحب وليس مع من يحبه الجميع. كنت أتمنى أن تكون أنت هذا الشخص، تمنيت أن أتحرر معك من كل هذا العبث الذي لن ينتهي إن بقيت، لن أتحمل يا ياسين وأنت تعرف هذا.

أنهى سيجارته ووضعها برفق في منفضة السجائر، وحك أنفه وقال ببرود:

– أنتِ صديقتي.. لا أنكر أنني إن كنت شخصًا شجاعًا يستطيع مواجهة العالم كنتَ سأخترق هذا المنزل وأحررك ونمضي، ولكن...

قاطعته:

- ولكن ماذا يا ياسين؟! ماذا تنتظر؟

- ولكن أنا شخص جبان يا فاطمة، مثل أبي.. إن عثروا عليك سأتدعي أنني لا أعرفك، وإن لاحظ الجيران وجود امرأة في شقتي لن أدرك حينها التصرف الصحيح، وإن تزوجتك حتى أشتري الصمت لن أستطيع أن أفعل لك ما تنتظرينه.

قاطعته بنبرة حازمة:

- ياسين.. سأصل القاهرة في السابعة صباحًا.. إن أردت أن تساعدني أهلًا بك، إن أغلقت هاتفك لن أعتب عليك.. ولكن حينها تناسى أن هناك فتاة تدعى فاطمة أضاعت من عمرها أعوام مقابل أن تفعل شيء من أجلها.

زفر بحنق:

- سأفعل.. عندما أشفى من هذا الجبن اللعين.. سأفعل.

أغلقت الخط فألقى الهاتف على الأرض، وجلس على السرير ملتصقًا بالحائط واضعًا يديه على ركبتيه، وصاح بنبرة مكتومة:

- اللعنة!!!!

أغلقت الهاتف واستلقت على السرير ووضعت الوسادة فوق رأسها وراحت تبكي كطفل رضيع خرج للتو من بطن أمه فوجد الظلام أمامه والموت من خلفه، ظلت تبكي وأصبح صوتها مسموعًا لا يقوى نسيج الوسادة على كتمانه. دخلت أمها الغرفة بغتةً ليس من صوت البكاء ولكن لتخبرها أن موعد خطبتها بعد أسبوع.

نكزتها أمها وهي تحدثها بامتعاض:

- أنت.. ماذا تفعلين تحت الوسادة؟

أخرجت رأسها وصرخت بوجه في حمرة التفاح من البكاء:

- أصرخ.. هل لديك مانع؟

صفعتها بقوة على وجهها:

- تحشمي!

استطردت وما زال صوتها صارخًا:

- ماذا إن أخبرتك أنني لا أريد هذه الزيجة؟ (صاحت في وجهها).

- قولي ما شئت، خطبتك بعد أسبوع، وإن أضعتِ علينا هذه الفرصة سنجز لك رأسك وتصبحين مثل الرجال، ولن تغادري غرفتك أبدًا، هل فهمت؟

ظلت صامتة لثوانٍ لا تُحرك ساكنًا ولا تعقب، وظلت أمها تنظر لها بتلك النظرة الكارهة في انتظار الرد، فابتسمت ابتسامةً صفراء بعدما مسحت دموعها بأصابعها، وقالت:

- فهمت.. فهمت يا أمي.

حل منتصف الليل على قرية كفر نعيم بطنطا؛ مسقط رأس فاطمة، الجميع نائمون ولا يصل إلى مسامعها إلا قرآن الفجر الآتي من إحدى الزوايا القريبة مع إيقاع خافت لصراصير الحقل، أضاءت كشاف هاتفها المحمول وراحت ترتدي ثيابها في الظلام على عجالة، أخذت أوراقها ومتعلقاتها الشخصية

وبعض الملابس التي ستؤدي الغرض، توقفت أمام المرآة ولفت حجابها، التفتت للخلف وودعت غرفتها بالدموع؛ السرير، الجدران، مكتبتها الصغيرة، الصور، الكتب وخزانة الملابس. التقطت حقيبة الظهر وفتحت باب الغرفة في هدوء، فخرجت الأم من غرفتها وعلي وجهها النعاس عازمة علي الوضوء. دخلت الأم لدورة المياه وأغلقت الباب فخرجت فاطمة من غرفتها سائرةً على أنامل اصابعها، فتحت باب الشقة برفق وهبطت الدرج، ومن ثم باب المنزل الحديدي الذي أصدر صريرًا فاضح ولكنه لم يوقظ أحد، حتى خرجت للشارع ورأت كيف يبدو في الثالثة فجرًا لأول مرة منذ ولادتها.

راحت تسير بخطواتٍ متسارعة حتى وصلت للطريق العام، كانت حركة السير تكاد تكون منعدمة، فرآها أحدهم ونطق اسمها هاتفًا:

- فاطمة!!

التفتت للخلف فوجدته أحد أصدقاء أبيها وعلى وجهه إمارات الدهشة والاستنكار، كان رجل خمسيني عريض الجثة يرتدي جلبابًا أبيضًا، التفتت للوراء وأجابت بصوت مرتعش:

- نعم.

تساءل بصوت لا يبشر بالخير:

- ماذا تفعلين عندك؟ وما هذه الحقيبة؟

حاولت تمالك نفسها، وأجابت بصوت مختنق:

- ذاهبة للعمل.

- أي عمل؟

- سأعمل مع أخي بالبحر الأحمر.. لقد وجد لي وظيفة جيدة هناك.

تقدم ناحيتها وقد بدأ يساوره الشك، وراح يتأمل قسمات وجهها المرتبك:

- أنا لا أحب الكذب.. وخطبتك أيضًا بعد أسبوع، أليس كذلك؟

شعرت وأن خطتها قد انكشفت فدفعته وركضت على الطريق كقاتل هارب من الإعدام، رفع أطراف جلبابه وركض خلفها لاهثًا وتناول هاتفه وطلب أبيها، حينما أجاب الآخر بصوت متقطع صاح فيه:

- ابنتك هربت يا شيخ حسني.. ابنتك هربت.

استمرت في الركض ولا تدري أين المفر، عثرت على أحد المراهقين الشباب يقف بجانب دراجته البخارية منتظرًا أي شخص يريد توصيلة في وقت مثل هذا، توقفت وقالت بصوت مرتعش ومكتوم:

- محطة القطار.

التفت سائق الدراجة العشريني إلى الرجل القادم خلفها؛ فعاد خطوتين للخلف خائفًا:

- ابتعدي عني!!

- أرجوك.. إنه يطاردني، سأعطيك ما تريد.

التفت ناحية الرجل مرة أخرى وقال بدون النظر لها:

- مائة جنيه.

– لك ما تريد.. هيا أرجوك.

ألقى سيجارته واعتلى الدراجة وتناول المقود، فجلست من خلفه وما هي إلا لحظات حتى فرت الدراجة واختفت من الوجود، متجهة إلى محطة قطارات طنطا.

***

وصلت الدراجة إلى محطة القطار بعد عشرين دقيقة تقريبًا، وأخرجت المال من حقيبة يدها وبخطوات متسارعة وصلت إلى شباك التذاكر، أخذت تذكرتها وتوجهت لنهاية الرصيف وأخذت زاوية غير مرئية حتى إن وصلت عائلتها استطاعت الهرب. دقائق وخرج النداء من مكبرات الصوت بالمحطة «يصلنا على رصيف اثنان قطار ٥٤٥ اكسبريس المتوجه للقاهرة، يمر بمحطات قويسنا شبين الكوم بنها شبرا الخيمة القاهرة».. ضغطت بأصابعها على حقيبة يدها وراحت تلتفت يمينًا ويسارًا في توتر، جاء ضوء القطار من مسافة ليست بالبعيدة كنقطة نور في نفق مظلم، صوت الدبيب في الأرض جعل المسافرون ينهضون من مقاعدهم متوجهين لأطراف الرصيف، ظلت في موقعها لم تتحرك وهي تراقب مدخل الرصيف بعيون مرتعبة، أذن الفجر فدخل القطار الرصيف فتقدمت ناحية الأبوب بخطوات حذرة، ألقت نظرة أخيرة على الرصيف، لحظات واختفى الجميع، أصبح خاليًا، نمى إلى مسامعها صراخ آت من خارج المحطة «اوقفوا القطار.. اوقفوا القطار؛ ابنتي بالداخل».. بدأً القطار في التحرك، صرخ البوق كالثور الهائج وبدأ القطار يأخذ سرعته، وصل أبيها وصديقه إلى الرصيف وراحوا يركضون خلف عربات القطار الأخيرة «اوقفوا القطاااار».. أمسكه أحد العساكر من

الخلف وجذبه لداخل المحطة:

– ماذا تفعل يا شيخ؟.. هل جننت؟

صاح في وجهه:

– ابعد يدك.. ابنتي هربت في هذا القطار.

جذبه بالقوة وراح يدفعه خارج المحطة، محدثًا إياه بامتعاض:

– وما شأننا نحن؟.. عد إلى منزلك.

ابتعد القطار تمامًا وأصبح كنجمة بعيدة في الظلام، بينما جلست فاطمة بجوار إحدى النوافذ تحاول الثبات، راحت تتأمل وجوه المسافرين، وهيئة النائمين على رفوف الحقائب وأقدامهم المتدلية على الجالسين، وأحدهم الذي راح يصلي الفجر على مقعده في خشوع تام .

فتحت حقيبة الظهر وراحت تتفحص ما بداخلها، وتأكدت أنها لم تنسَ شيئًا، وعندما اطمأنت أسندت رأسها على حافة النافذة وراحت في سبات عميق .

(٣)

٢٨ يونيو،٢٠١٨

استيقظت فاطمة من نومها تتحسس عنقها من الألم، ونظرت في ساعة الهاتف فوجدتها قد تخطت السادسة صباحًا، تأملت وجوه من حولها فوجدت شاب ثلاثيني يجلس على حافة المربع المقابل، سألت بصوت متعب ومبحوح:

- أين نحن؟

أجابها بنبرة عادية:

- بنها.

- كم تبقى على القاهرة؟

نظر الشاب لساعته ومن ثم أجابها:

- ما يقرب من ساعة.

أسندت رأسها على حافة النافذة من جديد وراحت تتصفح هاتفها، كانت قد تخلصت من خط الهاتف القديم، وأغلقت جميع حساباتها، ولم تحتفظ إلا برقم وحيد؛ ياسين. كانت السادسة وعشر دقائق، الشمس بدأت تنثر ضياءها في السماء وزقزقة العصافير أصبحت تحتل الأشجار والأسطح والأعمدة. رن الهاتف فجأة فارتعبت، وجدت اسم ياسين فتعجبت ومن ثم

نصف ابتسامة، فأجابت على الفور بصوت ملائكي ناعس:

- صباح الخير.

جاء صوته مفعمًا بالطاقة:

- صباح النور يا ست فاطمة.. أين أنت؟

- بنها.. يا ياسين.

- حسنًا؛ أنا في انتظارك.

صمت ثم عاد واستكمل:

- هل تناولت فطورك؟ سأحضر بعض الشطائر.

دخلت في نوبة قصيرة من الصمت؛ فنادى اسمها:

- فاطمة.. أين أنت؟

اجابت بابتسامة طفولية:

- أنا فقط سعيدة.. سعيدة أنك هناك.. في انتظاري.

ضحكة قصيرة ومن ثم عقب:

- نحن في منتصف عملية سرية يا عزيزتي.. لا وقت للاعترافات، حسنًا؟

- حسنًا يا سيادة اللواء مالك قلبي.

ابتسم من الناحية الأخرى، وقال بنبرة رقيقة:

- اعتني بنفسي جيدًا.

***

أغلق المكالمة وهو يفرك ذراعيه من نسيم الهواء البارد في صبيحة اليوم، وراح يراقب عصفورًا صغيرًا يسير بحذر على سور شرفته متجهًا ناحيته، مد يده فطار العصفور بعيدًا؛ فغمغم بيأس:

- لا تكن جبان مثلي.

عاد بالنظر إلى شاشة هاتفه فشعر أنه في حاجة في أن يهاتف شقيقته، لم يستمع لصوتها منذ أعوام ولا يعرف لماذا لم يهاتفها مطلقًا ولو حتى سرًا، لم تكن لتمانع أن تستمع لصوته كما يعتقد، قليلًا من الشجاعة في صباح مثل هذا، ما جعله يتجرأ ويتحمل مسئولية فاطمة سيجعله يتجرأ ويهاتف شقيقته الوحيدة، كان يظن أن اليوم هو آخر أيام الوحدة، سيتخلص من الخوف، من الأمس، من عدوى أبيه، من الخنوع، من كل ما لقاه في الصفوف الأخيرة بغير عدل. إن كان يحيا في وطن آخر لما عانى من كل ذلك، ولكن لكل غابة قوانينها وغابات الطيور لا تشابه غابات الثعابين في شيء قط، إما أن ينجو أو ينتظر ساعة الموت.

بحث عن الرقم وعندما وجده ظل يتأمله لدقائق، ترك الهاتف على السور والتصق بحائط الشرفة، أشعل سيجارة الصباح، التقط النفس الأول ومن ثم التقط الهاتف بعنف وطلب الرقم، رن الهاتف لمدة دقيقة ولم تجيب؛ فوضع الهاتف على السور بيد مرتعشة، وراح يدخن السيجارة بعنف حتى انتهت الأنفاس؛ فألقاها على أحد الأسطح القريبة والتقط الهاتف مرة أخرى، طلب الرقم من جديد وقبل أن ينتهي الجرس أجابت بصوت حانق:

- من معي؟

صمَت؛ أعادت الكرة:

– من معي؟.. الو!

أجاب بصوت مرتبك:

– أنا.. أنا يا يسرا.. ياسين.. شقيقك.

أغلقت الخط!...

***

أشرقت الشمس بكامل هيئتها عندما اقتربت الرحلة من نهايتها وحلقت العصافير حول القطار وأحاطته بغنائها، فراحت فاطمة تطرق بقدميها في الأرض متعجلة الخروج بإيقاع منتظم مع دبيب عجلات القطار الهائجة على القضبان؛ قريبًا سينتهي كل شيء. نظرت للساعة، إنها السابعة، اقتربنا من الوصول، اقتربنا من النهاية. أخرجت يديها خارج النافذة بين نظرات فاحصة من الركاب وبدأت تحرك أصابعها مع النسيم، الواقع لم يسمح لها بأن تقف في منتصف الممر وتدور حول نفسها من الفرحة كراقصة باليه في بحيرة بجع حقيقية، كان القطار قد امتلأ عن آخره وازدحم، فظلت أصابعها تتراقص مع العصافير خارج القطار حتى شرع الركاب في النهوض من مجالسهم مغمغمين «لقد وصلنا».. أدخلت يدها ونهضت من مقعدها وتناولت حقيبة الظهر وتحركت مع الجموع ناحية باب الخروج. دخل القطار إلى رصيف محطة رمسيس في السابعة وعشر دقائق، خرجت من الباب وتوقفت لثوان لتلتقط أنفاسها، ثم نظرت حولها فلم تجد أحد يحمل سكينًا أو سلاحًا بنية الفتك بها، «فاطمة!» كان يناديها من مسافة ليست

بالبعيدة، يرتدي قميصًا صيفيًا باللون الأزرق، وبنطال قماش بلون الرمال، وبشرة خمرية يزينها لحية خفيفة، وشعر مصفف للخلف بعناية.

ما إن رأته حتى ركضت ناحيته وقفزت عليه وعانقته بشدة حتى التصقت العظام بالعظام، شرعت في البكاء كالأطفال ولم تكترث لنظرات المسافرين؛ فراح يربت على ظهرها بخفة ليتهرب من خجله:

- لا تخافي.. أنا معك.

ظلت علي هذا الحال لثوان، وعندما تركت عنقه وعادت للأرض التقط حقيبتها ووضعها على ظهره ومشى بجانبها للخارج بينما انهمكت في تجفيف دموعها بأصابعها. ظل صامتًا ولم يتحدث، كان يدرك أن فاطمة الآن تنعم بلحظة سلام داخلي ربما لم تعرفها من قبل، لم يسألها كيف فعلتها! كيف رحلت؟ ظل فقط يضم أصابعها بأصابعه وكأنها طفلته الصغيرة، لم يتفكر في الخطوة القادمة ولم يدرك ماذا سيحدث بعد ذلك، ولكنه كان يعرف جيدًا أن هذا هو التصرف الصحيح .

راحا يمران من بين المسافرين حتى خرجا من البوابة الرئيسية لمحطة القطار، وأصبحا أمام إحدى بوابات المترو، كانت الحركة هادئة قليلًا في ساحة المحطة الأمامية؛ فقرر أن يكسر الصمت ولو قليلًا:

- أحضرت لك بعض الشطائر.

أسندت رأسها على ذراعه وقالت:

- لا أريد سواك يا ياسين حتى وإن كنت لا تحبني، أنت أنقذت حياتي.

تعجب من ما تفعله؛ فهي لم تلامسه من قبل إلا لمصافحته، كان الأمر

غريبًا عليه ولكنه لم يكن مزعجًا، كان يدرك جيدًا أنها وللمرة الأولى تشعر بالأمان.

- وأنا لا أريد إلا أن تكوني سعيدة يا فاطمة.

قبلته في وجنته اليسرى برقة؛ فتوقف عن الخجل وتساءل في توتر:

- ماذا تفعلين؟

- أقبلك.

- ها ؟.. اه.. حسنًا.. لم أتوقع هذا.

ضحكت كالأطفال وقالت:

- حسنًا، ماذا سنفعل الآن يا أستاذ ياسين؟

- سنستريح قليلًا ومن ثم سننطلق للمركز.. أمامنا يوم طويل وإما أن يكون يوم سعدنا أو يكون مجرد خميس عادي ومكرر.

ضربته في كتفه برقة:

- إنه يوم سعدي بالفعل، وسيكون يومك أنت الآخر، لا تقلق.. لا تقلق أبدًا ما دمنا سويًا.

ابتسم لها بحب، وللمرة الأولى تشجع وضم رأسها ناحيته ولم يهتم هو الآخر لعيون رمسيس، رفع رأسه فقط ناحية السماء لثوانٍ وكأنه يراقب شيء ما، وقال بنبرة عادية:

- وهو كذلك.

***

سبتمبر ٢٠٠١

جلس الأب على مقعد مطل على طاولة الصالون الخشبية الكبيرة، وجلس ياسين قبالته ومن أمامه كتاب مدرسي وآلة حاسبة وقلم رصاص. كان الصالون متوسط المساحة لا يحوي شيئًا هامًا إلا «النيش» الذي يعد من مقدسات البيت المصري كالماء والكهرباء، جدران مطلاة باللون السكري وعلى سطح إحداها لوحة سوداء عريضة معلقة على الحائط مدون عليها لفظ الجلالة بلون ذهبي لامع. ارتدى الأب قميص أبيض داخلي وبنطال رياضي حاميًا عيناه بنظارة طبية ووضع أمامه كوب من الشاي الساخن، ومن ثم أخذ يتصفح في الكتاب المقابل لياسين، مدون على غلافه «الرياضيات» استقر عند إحدى الصفحات وهو يتصفح متمتمًا «جدول الضرب».. التفت ناحية ياسين وتساءل بنبرة جافة:

- هل تعرف جدول الضرب؟

أومأ بالإيجاب بتعبيرات مرتبكة، فتناول الأب كوب الشاي وتجرع منه القليل وعقب بنبرة تحدٍ:

- سنرى.

تأمل في الجدول لثوانٍ، ومن ثم بدأ:

- ما هو ناتج ستة ضرب سبعة؟

بدأ ياسين في التفكير وشعر أنه قد تعرض للشلل؛ فسأله الأب مرة أخرى بعد عشر ثوانٍ بنبرة تأكيدية:

- ما هو ناتج ستة ضرب سبعة؟

- ثلاثة وأربعون؟

فرك الأب جبينه وزفر بامتعاضٍ وحاول تبسيط الأمر:

- سأحاول تبسيط الأمر.. لندعها سبعة ضرب سبعة.

أجاب الابن بثقة:

- تسع وأربعون.

- جيد.. والآن ما هو ناتج ستة ضرب سبعة؟

أجاب الابن بذات الثقة:

- ثلاثة وأربعون.

عقب الأب بغيظ مكتوم:

- من أين أتيت بهذا الرقم؟

لاحظ الابن علامات الثورة القادمة؛ فارتبك وأجاب بنبرة ما إن بدت واثقة في بدايتها حتى تحولت لنبرة تائهة عند آخر كلمة:

- نقوم بطرح ستة من تسع وأربعون فيصبح الناتج ثلاثة وأربعون؟

صفعه الأب على وجهه صائحًا:

- لعن الله غباءك.

احمر وجهه أثر الصفعة وشرع في البكاء المكتوم، فصفعه مرة أخرى صائحًا:

- أجبني.. ماهو الناتج؟

حاول تمالك نفسه وأجاب بصوتٍ باكٍ:

- لا أعرف.

دفعه بقوة؛ فسقط ياسين من المقعد على الأرض، فنهض الأب وركله بالقدم في مؤخرته صائحًا:

- غدًا.. سأمتحنك في الجدول بالكامل، إن لم تجبني سأحطم رأسك.. لو كنت تزوجت من امرأة غير أمك لما كانت ذريتي بهذا الغباء!

دلف الأب لغرفته وأغلق الباب من خلفه، فجلس الابن محاولًا كبت دموعه، ولم يهدأ حتى تفكر قليلًا وتوصل للحل؛ فنهض وطرق الباب وخطى خطوةً واحدة للداخل، وأجاب بوجه لا زالت الدموع ترتسم بين قسماته:

- الإجابة اثنان وأربعون يا أبي.

***

كان الطقس معتدلًا بصورة لم تقض على رائحة ياسين الطيبة، وظل متمسكًا بيد فاطمة بين الزحام؛ فهي لم تأت للقاهرة إلا في مرحلة الجامعة ولم تخوض معركة مترو الشهداء إلا مرة أو مرتان، هبطت درجات بوابة المترو بصحبته وظلت ترميه بنظرات حب سريعة لم يلحظها لانشغاله بالمرور بها من بين زحام الناس والممرات تحت الأرض. توقف عند شباك التذاكر وقطع التذكرة ومن ثم توجها إلى الرصيف اتجاه حلوان، جلسا على إحدى المقاعد الأسمنتية المقابلة للقضبان، وعندما التقط أنفاسه سألها بنبرة حانية:

- بماذا تشعرين الآن؟

تنهدت وأجابت:

- بالقلق.

- ألست سعيدة؟

نظرت تجاه اللا شيء وأجابت:

- سعيدة.. ولكن مع بعض القلق؛ أنت لا تعرف عائلتي.

- أريد أن أعرفها إذن.

- لقد حطمت مخططات أمي.. كانت تريدنا أن نرابط عائلة ثرية تستطيع من خلالها الخروج من قريتنا مثل ما خرجت شقيقاتها بعد زواج بناتهن، لقد ربتنا من الصغر على الاعتناء بأنفسنا وبجسدنا وكأنها تطعم عجل بغرض بيعه في عشية عيد الأضحي، ابنة خالتي تعيش الآن في السعودية والأخرى تعيش بالإمارات وابنة خالتي الأخرى رحلت مع زوجها لإيطاليا، عيون الجميع كانت حولي؛ لأنني الأقل جمالًا بينهن، ولم يكن يتقدم لي إلا أشخاص عاديين لا يرتقون للمستوى، مجرد مكافحين يصارعون من أجل لقمة عيشهم. أمي طارت فرحًا عندما وجدت أخيرًا عريسًا لي ينتسب لعائلة مرموقة مثلما حلِمَتْ.. أو أبله مثلما وجَدَتُ.

- والآن أنتِ هنا، وأفسدتي الخطة.

- وأشعلت الحرب أيضًا.

- كيف؟

- ابنة الشيخ حسني الشافعي الموظف بالأوقاف خطيب مسجد التقوى أكبر مساجد القرية هربت يا سادة من المنزل.. الشيخ حسني لا يطبق الدين على أهل بيته.

عقب بنصف ضحكة:

- حرب تنتهي بالذبح أو بالحرق.

عقبت ساخرة:

- الشرف يا سيد ياسين الشرف.

وصل القطار فنهض الاثنان، فأشار لها بأن تدخل عربة السيدات وتلاقيه في محطة المعادي، تعجبت منه فأشار للجموع المتكدسة في عربة الرجال؛ فدخلت العربة على الفور، وانطلق القطار نحو المعادي حيث يقع مركز د. إسماعيل محفوظ.

***

قبل اليوم لم تكن حول ياسين أي هالة من النور تجعله مرئيًا بين الناس، لا يعطي رأي، لا يتخذ موقف، لا ينطق بخير الكلام ولا بشره، كان كالمشهد الصامت يبكي عند النهاية العظيمة ويبتسم في النهاية السعيدة، لا يبادر بالحديث إلا إذا طُلب منه ذلك، لا يتمرد إلا بين الجموع وعندما تطلب منه الأمر أن يتمرد على نفسه الهشة تخاذل مرات ومرات، أنهى الخمس وعشرين عامًا الأولى من حياته في تكفير ذنب لم يقترفه، وعندما انفتحت أبواب جنات الدنيا أخيرًا ترك كل شيء خلفه وركض، ركض نحو الجنة وعلى وجهه إمارات الفرح، وقال:

- لقد وصلنا.

استقر الاثنان أمام بوابة كبيرة يقف على جانبيها أفراد أمن بملامح جادة وبأجساد مفتولة العضلات لا تناسب موظفين أمن راتبهم لا يتعدى ألفين جنيه. تعرضا للتفتيش على البوابة ومن ثم دخل الاثنان وشرعا في السير وسط ممر طويل تستقر الأشجار الصغيرة على جانبيه وبين كل شجرة وأخرى مجموعة من الزهور الملونة. كانت الحرارة قد بدأت تشتد فجفف ياسين جبينه وظل يسير حتى وصلا لمبنى زجاجي عريض من ثلاثة طوابق تقريبًا تستقر بوابة الدخول في المنتصف وبين البوابة والممر تقع نافورة صغيرة وعلى جانبه يقع بناء آخر بذات الهيئة ومدون على مدخله «بوابة النزلاء». التفا من حول النافورة وصعدا ثلاثة درجات، انفتح الباب فدلف الاثنان للداخل ليشعرا بالحرية والخلاص بعد ما ابتلعهم نسيم التكيف، ساحة انتظار عريضة يجلس فيها عشرات الشباب الأكبر فيهم لا يتعدى الخمسة وثلاثين عامًا، وجوه شاحبة وشاردة في عينيها رحلة طويلة من الألم وعقول محملة بذكريات لا تُعد ولا تُحصى يقع أصحابها في عرض النسيان.

كان مكتب الاستقبال على يمينهم، فتقدم ياسين ومن خلفه فاطمة التي انشغلت في تأمل الوجوه:

- لدى موعد اليوم في العاشرة.

- البطاقة من فضلك.

تفحص الموظف بيانات البطاقات على الحاسوب ومن ثم أخرج قطع بلاستيكية مدون عليها أرقام بالإنجليزية، واحدة لياسين والأخرى لفاطمة، ومن ثم أشار ناحية المقاعد:

- تفضلا بالجلوسِ.

نظر ياسين للرقم وضحك بسخرية؛ فرمقته فاطمة بنظرة مستفهمة فرفع القطعة أمام وجهها، وقال ساخرًا:

- اثنان وأربعون.

قطبت جبينها ولم تفهم ما العيب في الرقم، فاتجها ناحية أريكة فارغة وجلسا، فشعر ياسين بعد ثوانٍ بجفاف في الحلق عندما أيقن أنه لا مزاح بعد الآن وأن الأمر أصبح حقيقيًا، لاحظت فاطمة جمود ملامحه الشديد؛ فتساءلت في قلق:

- ما بك؟.. هل أنت بخير؟

- أريد بعض الماء.

- انتظر هنا.. سأعود بعد قليل.

عادت بعد دقائق تحمل زجاجة مياة صغيرة، اختطفها وتجرعها كاملة فربتت على يده اليسرى، وقالت بحنان:

- اهدأ.. كل شيء سيكون بخير.

مرت دقائق، فخرج صوت مسجل من إحدى مكبرات الصوت:

- المريض رقم واحد وأربعون.

نهضت فاطمة وتركت حقيبة الظهر بصحبة ياسين، وطرقت إحدى الأبواب المدون بجانبها «غرفة التشخيص».

***

كانت غرفة صغيرة مطلاة بالأبيض، مكتب صغير تصطف مقاعد جلدية على جانبيه، صور للجهاز العصبي مثبتة على الحائط، وسيدة أربعينية جميلة تجلس أمام المكتب وفي يدها بعض الأوراق، تنتعل نظارة طبية وينسدل شعرها الحريري الطويل خلف ظهرها ويبدو من شكل جلستها أنها طويلة القامة، ترتدي رداء أبيض يغطي قميص شبابي من الأزرق القاتم مفتوح قليلًا عند منطقة الصدر بدرجة لا تظهر أي شيء من ما يخفيه. بادرت فاطمة بنبرة مترددة لا تناسب طبيعة جمالها:

- صباح الخير.

ابتسمت الطبيبة وأشارت لها بالجلوس:

- صباح النور.. تفضلي بالجلوس.

جلست وراحت تتأمل ملبسها المتواضع مقارنة بهيئة الغرفة وبثياب الطبيبة التي بدا من لكنتها أنها ابنة وزير ما أو تمتلك منزل صغير على سطح القمر.

- فاطمة.. صحيح؟

- نعم.

- أهلًا بك.. كيف حالك اليوم؟

بصوت مبحوح:

- بخير.

تفحصت الأوراق ومن ثم بادرت:

– حسنًا يا فاطمة.. قبل أي شيء أنا دكتور منى أبو زيد، أخصائي طب نفسي وسنتحدث قليلًا قبل أن أحدد هل أنتِ في حاجة للمتابعة مع دكتور إسماعيل وفريقه أم نحن في حاجة فقط للمتابعة مع أخصائي أمراض نفسية.

– أهلًا بكِ يا دكتور.

– حسنًا.. مدون هنا أنكِ تريدين التخلص من الخوف ولم تقومي بتدوين أي شيء آخر.

لم تجيبها؛ فبادرت الطبيبة من جديد:

– يمكنك التحدث معي بلا خوف؛ أنا هنا لمساعدتك.

– منذ طفولتي وأنا أعاني من الخوف، بالتأكيد استمعتِ لقصص تشابه قصتي كثيرًا.

– نحن لا نبحث عن القصص الجديدة نحن نبحث عن الإنسان، نبحث عنك وعن ما يطمئنك ويصل بك لبر الأمان.

– حسنًا يا دكتور، قبل اليوم كان كل شيء في حياتي ضبابي، ليس لي حق الاختيار أو الاعتراض، كنت أرتعب من مجرد التفكير في استخدام صوتي، وعندما لم أستطع فرض صوتي هربت من المنزل، ولكني ما زلت خائفة وأشعر أنني سأتهرب ثانية، إن كنت قد هربت اليوم مِن مَن اغتصبوا حقي في الحياة، لقد هربت اليوم بالفعل؛ فغدًا سأهرب من السعادة، إن تخلصت من الخوف سأتمكن من مواجهة نفسي ومن مواجهة الجميع وسأقتلع ما لي من فم الأسد.

ابتسمت د. منى بحب وقالت:

- بعض الناس يختارون الهروب على المواجهة؛ لأن المواجهة ستطيح بهم بعيدًا، الهروب يشعرهم بالأمان والاختباء في الظلام يهدئ من روعهم ويطمئنهم، ولكن اتخاذك قرار الهروب من المنزل مواجهة في حد ذاتها.

قطبت جبينها:

- كيف؟

- أنا أؤمن أن الهروب نوعان، هروب أبيض وهروب أسود؛ الهروب الأبيض هو ما فعلتيه والهروب الأسود هو الذي نفضل فيه الصمت على الصراخ، أن نفضل الكتمان على البوح بما في داخلنا وإنقاذ أنفسنا، وأن نختار الرضا بالواقع لأننا لا نقوى على رفضه أو تغييره، أنتِ لم تخافي وخرجتي من عباءة مدينتك بأكملها وذهبتي لأرض جديدة تمامًا لترَممي روحك وتعودين للحياة.

تنهدت وقالت بيأس:

- ولكني ما زلت بمفردي.

- من الجيد أن تكوني بمفردك في هذا الوقت حتى لا تتعلقين بما ليس لك، في هذا الزمان الجميع يرحلون في النهاية.

- نظرتك كئيبة يا دكتور، من المفترض أن تخبريني بالعكس.

- هي نظرة واقعية تحرر الإنسان من الوقوع في التعلق والذكريات (أشارت بأصابعها محذرة) لا تقعي في الذكريات يا فاطمة.

- أملك من الذكريات ما يعيدني دومًا للحياة.

عقبت مبتسمة:

- أتمنى أن أكون من ذكرياتك التي تعيدك للحياة.

ضحكت بخفة وقالت:

- إذا وافقت على طلب علاجي بالطبع، أريد التخلص من خوفي ومن الماضي.

نهضت د. منى وجلست على مقعد جلدي قبالة فاطمة وربتت على قدمها:

- أنت أقوى من الخوف ومن الماضي وأقوى من ما تظنين، أنتِ نهضتي بمفردك ووضعتي نهايتك السعيدة بالفعل؛ لذلك أرى أنكِ لست في حاجة للمتابعة مع فريق د. إسماعيل، أنتِ فقط في حاجة للمتابعة مع أخصائي نفسي، خوفك في الحياة مكتسب وأنتِ تهزمينه الآن بالفعل.

- إذن.. ماذا سنفعل الآن يا د. منى؟

دونت الطبيبة شيء ما على روشتة وأعطتها لفاطمة، وقالت بنبرة طيبة:

- يمكنك البدأ بهذا العلاج، وأريد أن أراكِ هنا السبت المقبل، بعد غد، في الرابعة عصرًا، سنتحدث قليلًا إذا أحببت.

ابتسمت بحب:

- أحب ذلك بالطبع يا دكتور.. شكرًا لك.

- وهو كذلك يا عزيزتي.

وقبل أن تفتح باب الغرفة لتغادر نادتها دكتور منى من الخلف؛ فالتفت

ناحيتها فقالت د.مني بنبرة باسمة:

- مرحبًا بكِ في القاهرة.

( ٤ )

العاشر من فبراير، ٢٠٠٢

الثامنة صباحًا.

كان العاشر من فبراير هو ميلاد الصدام الأول مع العالم؛ حين دفع الأب باب غرفة أطفاله بقدمه وبدون مقدمات أزاح عنهم الغطاء مناديًا بصوتٍ جهوري:

- استيقظوا!!!

انتفض الطفلين فجأة من ثباتهم العميق وفي عيونهم نعاس مرتعش كمريض تسعيني على بُعد دقائق من لقاء ربه. ظلت نظراتهم ثابتة نحو الأب الذي راح يفتح خزانة الملابس على مصراعيها وأشار ناحيتها بصوت أقل حدة:

- اجمعا أشياءكما.. ستغادران.

فاعتدل ياسين في جلسته، وراح يفرك عينيه في عجالة فسقطت من عيناه دمعة ضلت طريقها، وقال بصوت مرتعش ومتقطع:

- لماذا يا أبي؟

قال بلا مبالاة عائدًا للصالون مرة أخرى:

- اسأل أمك.

نهض ياسين وراح يجمع أشياءه وأشياء يسرا في استسلام تام، بينما ظلت شقيقته جليسة الفراش تحتضن عروسها بقوة ولا تفهم المغزى من كل ذلك ولماذا يضع ياسين ملابس في حقيبته بدلًا من الكتب!.. انتهى ياسين من كل شيء بعد دقائق ليست بالقليلة فراح يتأمل حقيبته التي امتلأت عن آخرها بالملابس بينما الأقلام والكتب تبحث عن مسكن للمرة الأولى، فترك التأمل وربت على رأس يسرا التي تركت فراشها وتشبثت بقميصه فور دخول الأب مرة أخرى، رمى الحقائب بنظرات سريعة ومن ثم سأل بذات النبرة الفظة:

- هل انتهيت؟

- نعم.

أشار لهم بعلامة مفادها بأن يتقدما أمامه، فلم تتحرك يسرا؛ فضمها ياسين أكثر فأكثر وتمتم في أذنها:

- لا تخافي.. أنا معك.

***

- المريض رقم ٤٢.

ضرب صوت الإذاعة الداخلية جنبات قاعة الانتظار؛ فتجمدت أطراف ياسين بينما ظل القلب دافئًا برؤية فاطمة التي ما إن خرج من الغرفة حتى ابتسمت كمن استجاب الله لدعائه ورفع عنه البلاء. راحت تشير له بالنهوض؛ فضرب السقيع جنبات جسده كمن صعد لقمة إيفرست عاريًا ثم سقط في بركة من الماء المغلي فأفترش العرق جبهته وأخذ يسير بخطوات مترنحة، وعندما اقترب من الباب أخرج منديلًا بيدهِ المرتعشة وراح يجفف

عرقه بعشوائية أدت لالتصاق بعض من فتات المنديل بجبهته، ومن ثم اعتدل وطرق الباب برعونة. دفع الباب برفق وألقى التحية بصوت مبحوح فابتسمت له دكتور منى ومن ثم أشارت له بالجلوس؛ فاتجه بخطوات حذرة ناحية المقعد الملاصق للمكتب.

ارتدت نظارتها الطبية وبدأت في فحص الملف بتمعن، ومن ثم توقفت بعينيها عند شيء ما أسفل الورقة الثانية، وقالت كمن يفكر بصوت مسموع:

– أنا جبان.

أغلقت الملف، ومن ثم رفعت رأسها وتساءلت مبتسمة:

– كيف حالك يا ياسين؟

أجابها بتردد:

– بخير.

– لا يبدو لي ذلك .

اكتفى بابتسامة قصيرة لرفع الحرج؛ فبادرت بالحديث:

– مدون هنا أنك تعاني من الجبن، كيف ذلك؟

انتظر ثانيتين لتأمل السؤال، وشرع في الأجابة بصوت متلعثم ومرتبك:

– أنا جبان لأنني لا أستطيع.. لا أستطيع مواجهة الناس.. ولا أستطيع مواجهة نفسي.. وليست لدي الشجاعة لحماية من أحبهم، بل أبرر قذارة الظالم؛ حتى يعفيني الناس من مهمة استرجاع الحق.

– منذ متى وأنت هكذا؟

– منذ طفولتي.

– هل هناك حدث ما في حياتك تراه مصدر لكل ذلك؟

– عندما تخلى أبي عنا.. أنا وأمي ويسرا.

خلعت نظارتها ووضعتها جانبًا:

– من هي يسرا؟

– شقيقتي الصغيرة.

– أها.. حسنًا.

فتحت الملف من جديد والتقطت القلم من يمينها، فباغتها بالسؤال قبل ان تدون حرفًا واحدًا:

– حسنًا، ماذا الآن؟

أعادت القلم لموضعه، وعدلت من سترتها الطبية، ومن ثم ارتدت نظارتها الطبية مرة أخرى، وأجابت بصوت تقريري:

– أنت في حاجة للمتابعة مع أخصائي نفسي.. جبنك مكتسب.

فخرج ياسين عن صمته ووضع ارتباكه جانبًا:

– أي هراء هذا؟ أنا مريض بالجبن ولست بمجنون أو مختل.

رمت الملف بنظرة يائسة ومن ثم تنهدت ببطأ وقالت:

– انظر يا ياسين.. في البداية وقبل أي شيء أنا أخصائي أمراض نفسية، إذا أخبرتني عن ما يؤرقك لن أتردد في مساعدتك، ولكن الأمر هنا لا يسير

بهذه الطريقة؛ الأمر هنا يسير بالأولوية وبمدى بشاعة الألم، إذا فتحت الباب ونظرت للخارج ستجد أشخاص يعانون من أمراض وصدمات وأشخاص حاولوا قتل أنفسهم ولم يفلحوا، ما الذي يميزك عن المنتظرين في الخارج حتي نقبل بك؟.. نحن منذ افتتاح المركز لم نقبل إلا بعلاج مائة شخص فقط من ضمن خمسة ألاف حالة تقدمت لنا.. ووقت الجلسة هنا لا يتعدى الخمس دقائق نظرًا لضيق الوقت وأنا لا يمكنني إثبات أو نفي صحة حديثك، ولكنني استمعت لقصص شبيهة.. ولكن ما يجعلك مميزًا ولو بواحد في المائة هي طريقتك في التعبير عن ألمك وأنت عبرت بطريقة جيدة نوعًا ما، ولكن هذا ليس كافيًا.. ساعدني حتى أساعدك وأنا لم أفعل هذا مع أي حالة سبقتك.

- ولماذا تفعلين ذلك؟

- لأنني طبيبة يا ياسين قبل أي شيء ولست حكم في مسابقة.

التقط كوب من المياه وتجرع ما تبقى منه، وقبل أن تلمس قاعدة الكوب سطح المكتب التفت ناحيتها وتحدث:

- منذ سبعة أعوام طردتني أمي من المنزل؛ لأنني أذكرها بأبي، وأمي كانت تبغض أبي كثيرًا؛ لأنه لم يجرأ على حمايتها من أي خطر.. وأنا فعلت المثل مع شقيقتي الصغيرة.. رأيت فيها ما رأيته في أمي ورغم ذلك لم أتجرأ علي فعل أي شيء.. تركنا المنزل مرة وفي الثانية طردتني أمي وقالت لي أنا لا أريدك هنا مرة أخرى.. أنا لست وليد صدمة دنيوية، أنا أشبه أبي في كل شيء، وبشكل لا يحتمل.

- ماذا حدث لشقيقتك ؟

ابتسم بسخرية وعقب:

– لن يحدث.. إذا تطلب الأمر أن أخبرك ما حدث فتبًا للأمر برمته.

التقطت الملف من يسارها والتقطت القلم من جديد، وقبل أن تقم بالإمضاء قالت له بنبرة روتينية:

– تريد العودة للمنزل؟

– وأريد العودة شجاعًا.

قامت بإمضاء اسمها على الملف وأعطته له:

– اصعد للطابق الثاني وتوجه لغرفة الانتظار.

– ماذا سيحدث؟

– سيخبرونك.

***

ما إن انفتح الباب وبدأ جسد ياسين في الظهور تركت فاطمة مقعدها على الفور واستقبلته:

– أخبرني .

قال بصوت مرتبك:

– يبدو أنه انتهى وقت المزاح.

– لماذا؟

– لقد تخطيت التشخيص الأول.

- ممتاز، وماذا الآن؟

- سنصعد للطابق الثاني.. وننتظر .

- ماذا يفعلون في الطابق الثاني؟

- لا أدري، ولا أهتم، كل ما أريده أن أُشفى وأن أرى أمي ويسرا مرة أخرى.

صعد الاثنان وانتظرا في ساحة أخرى بها عدد أقل من المرضى وتبدو في وجوههم هموم الأمة جمعاء، جميع المرضى يجلسون بمفردهم بلا رفيق وكأن علتهم في أجهزتهم التناسلية، تقدم ياسين ناحية أحد المنتظرين، كان رجل أربعيني ذو رأس أصلع من الأمام ويبدو أن قميصه على وشك الانفجار، يضع كفيه على معدته ممددًا قدماه جالسًا بلا مبالاة ولولا عدم وجود شيشة لظن ياسين أنه توجه لمقهى شعبي بالخطأ .

- مساء الخير، لمن أعطي هذا الملف؟

حك الرجل أنفه وقال بلا اكتراث:

- اجلس وسيأتي أحدهم.

ومن ثم ألقى عليه نظرة فاحصة وتساءل مشيرًا بالسبابة ناحية الملف:

- لماذا أنت هنا؟

- أنا جبان!

- تشرفنا.

- وأنت؟

– بخيل.

– أعوذ بالله!

ضحك الرجل فتراقصت معدته، وقال معقبًا:

– على الأقل لست جبان.

ضحك ياسين:

– هذا صحيح.

مد الرجل يده مصافحًا:

– أنا فتحي .

– ياسين .

جلس ياسين على مسافة قريبة من الرجل، وفاطمة بجانبه تقبض على يده فالتفت ناحيتها وتساءل ضاحكًا بخفة :

– ماذا تفعلين؟

– ماذا؟ ..

– ما كل هذا الحنان؟

– سعيدة من أجلك.

أتى بعد قليل أحد الممرضين مرتديًا البلطو الشهير، وباغت ياسين متسائلًا:

– أستاذ ياسين، الدكتور في انتظارك.

– إسماعيل محفوظ؟

ضحك الممرض وأجاب:

– لا، دكتور أحمد مكرم .

– وعلام الضحك إذن؟

– دكتور إسماعيل لا يشرف إلا على الحالات الميئوس منها، هل أنت ميئوس منك؟

– ربما .

نهض ياسين وقبل أن يذهب بصحبة الممرض لوح لفتحي الجالس في مملكته الخاصة، ومن ثم دخلا ممر آخر في نهايته لوحة كبيرة في الواجهة مدون عليها «معمل الأحلام». التفت ناحية الممرض وتساءل بقلق :

– لا أفهم، ماذا ستفعلون معي؟

أجاب بنبرة عادية :

– سترى.

***

العاشر من فبراير، ٢٠٠٢

العاشرة صباحًا.

كانت الساعة قد أصبحت العاشرة صباحًا عندما استقل الطفلان سيارة

بصحبة رجل لا يعرفانه كان قد توسط لالتقاطهما من منزل أبيهما، انطلقت السيارة في شوارع القاهرة ومن ثم توقفت في ميدان طلعت حرب عند ناصية إحدى المحال التجارية، فصرخ الطفلين في نفس واحد:

- ماماااا!!

هرعت ناحية الباب الخلفي وفتحته بعصبية وألقت نفسها في الداخل وعانقت أطفالها بقوة وراحت تبكي بلا سابق إنذار، ضحك الرجل وقال:

- هيا هيا، لننتهي من تلك اللحظة، أمامنا يوم طويل .

راح ياسين يتساءل باكيًا:

- أين كنت يا أمي؟

ربتت على رأسه وقبلتها وقالت برقة :

- ليس الآن يا حبيبي.

أغلقت باب السيارة وأخرجت زفيرًا أحرق صدرها، فالتفتت ناحية الطفلين وقالت بنبرة جادة:

- ياسين، يسرا، عداني أنكم لن تصبحا نسخة من أبيكما في يوم ما، لن أتحمل ذلك، لا أريد قسوة في منزلنا، لا أريدك جبانًا يا ياسين مثل أبيك، لا تكن مثله، لن أقبل بذلك.

- أعدك يا أمي.

ومن ثم التفتت ليسرا وقالت لها برقة:

- يسرا، لا تسمحي لأي رجل كان أن يعتدي عليك .

عقبت يسرا بصوت حماسي:

- لقد أسقطت يوسف على الأرض بالأمس ، وقلت له يا حمار.

ضحكت الأم :

- يوسف ابن الجيران؟

فضحك ياسين بدوره معقبًا:

- نعم نعم ، وعاد لأمه باكيًا.

- وماذا فعلت أنت يا ياسين؟

- لم أفعل شيء.

قطعت الأم ضحكتها وتساءلت في قلق مفاجئ:

- كان يعتدي على يسرا، ولم تفعل شيء؟

- نعم.

قاطعهما السائق وعيناه صوب المرآة:

- أستاذة بسمة، أرى أن الوقت ما زال مبكرًا للحديث في تلك الأشياء، هل من الممكن أن ننطلق؟

عقبت الأم في استسلام:

- حسنًا، ما زال الوقت مبكرًا.

***

انفتح الباب الكبير على مصرعيه، وظهرت غرفة يتوسطها جهاز كبير بعرض مترين يشبه السونار إلى حد كبير وطبيب ما يجلس على حاسوب محمول مواجه للجهاز، ما إن لمح ياسين حتى أشار له بالجلوس على أريكة ملاصقة لإحدى الحوائط، جلس ياسين وبدأ يتأمل الغرفة ورائحة الديتول تخترق أنفاسه فتسلل الرعب لجنبات عقله، هل سيقتلعون رأسه وبذلك يخلصوه من الألم؟ أم سيحطمونها بالمطرقة وبذلك يقضون على عدوى الجبن للأبد؟

التقط أنفاسه بصعوبة فوجد الطبيب ينهض من مقعده متجهًا ناحية الجهاز وقد بدا منهمكًا في تجهيز شيء ما، وليكسر الثلج بادر بالحديث دون النظر تجاهه :

- كيف حالك ياسين؟

أجاب بصوت متقطع:

- بخير الحمد لله .

- مدون هنا أنك تشكو من الجبن .

- نعم.. «واستطرد ساخرًا».. أزمة حياتي.

عقب وفي لهجته شيء من الاهتمام:

- لماذا تراها أزمة حياتك؟

ظل صامتًا لثوانٍ محاولًا البحث عن إجابة عمره، وعندما شعر بالعجز أجاب بنبرة عادية:

– لا أجد ما أستطيع قوله، أنا جبان وضعيف وكفى.

ترك الطبيب ما في يده والتفت ناحية ياسين:

– لا يهم، سنخلصك من كل ذلك، أنا دكتور أحمد مكرم وأنا أحد أعضاء فريق دكتور إسماعيل.

– أهلًا وسهلًا.

– أهلًا وسهلًا يا بطل .

قطب جبينه وقال مستنكرًا:

– أرجو أن نتجنب أساليب التحفيز النفسي تلك، لو كنت من الأبطال لما عشت وحيدًا.

عقب الدكتور باسمًا:

– اهدأ يا صديقي، لا يوجد في هذه الغرفة ما يستدعي غضبك .

مط شفتيه متسائلًا:

– حسنًا، ماذا سنفعل الآن؟ وما قصة معمل الأحلام تلك؟

خطى الطبيب بعض الخطوات ناحيته وجلب مقعدًا خشبيًا كان متروكًا عند أحد الزوايا، وعندما جلس قبالته شعر ياسين أنه ليس في مستوى رؤيته؛ فقال بضيق:

– لا تجلس على هذا المقعد .

– لماذا؟

- يجعلك أعلى من مستوى رؤيتي، لا أحب النظر عاليًا.. يربكني ذلك، يشعرني أنني في موضع اتهام.

نهض وأزاح المقعد وجلس قبالته على الأريكة:

- هل تعرف ما يربكني؟

- لا .

- رائحة الغرفة، رائحة التعقيم تشعرني بالتوتر دائمًا .

فضحك ياسين :

- لا يربكني المرضى أو الاتصالات المفاجئة في منتصف الليل أو فلان الذي شنق نفسه وفلانة التي تعاني من مرض يتكون من أربع كلمات، هي تلك الرائحة، أليس من الأفضل أن نملأ المستشفيات والمعامل برائحة الشاورما على سبيل المثال؟

قاطعه ياسين ضاحكًا:

- معي بعض الشطائر يا دكتور، يبدو أنك لم تتناول فطورك بعد.

عقب الدكتور:

- لا لا، أمزح معك.. «هدأت ضحكته قليلًا وظلت الابتسامة».. والآن أريدك أن تستلقي على الجهاز .

- أعتقد أن هذا الجهاز هو معمل الأحلام خاصتكم .

- ليس بالضبط، ولكن يمكنك أن تفسرها بتلك الطريقة .

– حسنًا، ولكن قبل أن أذهب ما الجدوى من هذا الشيء .

نهض الطبيب واتجه ناحية حاسوبه المحمول المستقر على مكتب صغير على الزاوية الأخرى من الغرفة :

– تعال معي.

استقر الطبيب مقابل حاسوبه وأشار لتسلسل من الأرقام يستقر على أعمدة ملونة تشبه الترمومتر إلى حد كبير وبعض البيانات المحللة:

– ما هي درجة الحرارة المناسبة للإنسان؟

– ٣٧.

– وإن وجدنا شخصًا درجة حرارته اثنان وأربعون؟

عقب بغضب :

– ما قصة هذا الرقم الملعون؟

– أي رقم؟

– اثنان وأربعون .

– إنه الرقم المدون على بطاقتك !

– آه، لا عليك، يصبح الإنسان مريضًا إذا كانت حرارته اثنان وأربعون .

– حسنًا، نحن أيضًا وضعنا مقياس للشجاعة والجبن، الإنسان الطبيعي درجة شجاعته من ٧ إلى ١٠ ، الأعلى من ذلك مندفع والأقل من ذلك جبان.

– جميل، ستجدني – ٥٠ .

– لا تقل ذلك.

– انا أخبرك بالحقيقة.

– الحقيقة غير حقيقية بالمرة.

– إذن؟

– إذن كل شيء يمكن أن ينتهي بضغطة زر، ولكن عليك الصبر وفقط.

– أها.

– دعني أكمل حتى تعلم ما سنفعله داخل رأسك، يوجد مقاييس أخرى للكرم، للإخلاص، للصدق، كل هذه السلوكيات تنتمي لجهاز داخل رأسك يسمى الجهاز الحوفي أو الـ Limbic system وهو جهاز يتحكم بشكل كبير بالسلوكيات والذكريات والمشاعر، وطريقة علاجنا هنا تعتمد على التوغل بداخله لنبحث عن الحدث الرئيسي الذي تسبب لك في كل الألم ونمحي أثره، بالطبع نتعرض لمقاومة من بعض الأحداث والذكريات الثانوية إذا كان الضرر قويًا.

– وماذا سيحدث إن قاومتكم ذكرياتي الثانوية؟

– هناك منطقة داخل رأسك تدعى الحصين أو الـ Hippocampus وهي المنطقة المسؤولة عن الذكريات، ربما ستتعرض لبعض الضرر والانكماش قليلًا هي ومنطقة أخرى تدعى اللوزة الدماغية وهي المسؤولة عن الاستجابة والمشاعر وهي ما سنعمل عليها بشكل كبير كونك تعاني من الجبن الشديد.

– هل تعني أنني ربما أفقد بعض الذكريات؟

- في حالة مثل حالتك.. ربما.

ابتلع ريقه بصعوبة فاستطرد د. أحمد حديثه:

- هناك بعض النتائج ستعطينا تلميح عن طريقة علاجك؛ فلا تقلق .

- حسنًا، هل هناك شيء آخر يجب عليّ معرفته قبل البدأ؟

- بالطبع.. أريدك أن تخبرني بأكثر الأشياء التي يرعبك مجرد التفكير فيها.

قطب جبينه متسائلًا:

- لماذا تسأل؟

- أجبني .

- ترعبني فكرة رؤية أبي في المنام؛ نتعارك كثيرًا وأستيقظ باكيًا.. لم أراه منذ انفصل عن أمي.. ترعبني الثعابين، مجرد التفكير يرعبني.. ترعبني فكرة تخيل شكل الشيطان، كيف يبدو وكيف سيكون.. يرعبني السقوط من السماء.. في ختام كل منام أجدني أصعد لأعلى سماء يمكن للإنسان أن يراها.. أجدني أحاول النجاة من الغرق في الفضاء الشاسع، وما إن تمر لحظات حتى أجدني معزولًا بين ظلام غرفتي الصغيرة.

مرت لحظات من الصمت قبل أن ينطق الطبيب بكلمة واحدة، وفي المقابل لم يطالبه ياسين بالرد، فقط توجه ناحية الجهاز واستلقى في استسلام؛ فابتسم الطبيب وبدأ يدون بعض الأشياء على الحاسوب.

***

استلقى ياسين وراح يتأمل الفراغ؛ فباغته صوت دكتور أحمد من مكتبه :

– ما هو حيوانك المفضل؟

– الكلاب.

– لا تخشاها؟

– لا أتحمل رؤيتها .

– وتضعها في قمة حيواناتك المفضلة؟

– نعم، من أجل الوفاء فقط ولا شيء آخر .

– فنانتك المفضلة؟

– هل يمكنني الإجابة بمعلمتي المفضلة؟

– معلمتك؟!

– نعم، لم أتحدث عنها من قبل ولكنها ما زالت تؤثر في حتى الآن.

– لماذا؟ «قالها وهو يدون بعض الكتابة باللغة الإنجليزية على الحاسوب».

– لا أدري، كل ما أعرفه أن حضورها كان يشعرني بالأمان، بالسكينة، كنت أذهب للمدرسة فقط من أجل أن أراها وأقص عليها كل شيء. لم يشغلني ما كان يشغل أبناء جيلي ولم أعرف ما كان يشغل عقولهم، كنت أعرف فقط ما يشغل رأسي وعلاجه، كيف لعناق وكيف لكلمة وكيف لنظرة أن يجتمعوا عليك فيجعلون من قلبك زهرة عباد شمس تتبع هواها في كل صباح.

– كل هذا؟

– وأكثر يا دكتور، في تلك البقعة البعيدة من العالم وجدت نفسي قبل أن يحطمها ذات العالم وينتهي بي الحال هنا.

– هل تعلم يا ياسين أن مقياس الحب يكاد يحطم الشاشة من بركان المشاعر الذي يفترش رأسك الآن؟

– دعها تتحطم، من أجلها يمكنني أن أحطم العالم.

ضحك الطبيب معقبًا:

– والجبن؟

– مجاز يا دكتور، مجاز، انا لا أجرؤ على مصارعة نملة .

– حسنًا، السؤال الأخير، أخبرني بشيء تتمنى أن تأتيك الجرأة لنسيانه .

– الفتاة التي جاءت بصحبتي .

– لماذا؟

– لا أريد أن أسير ما تبقى من طريقي مع شخص يتألم مثلي، لا أريد أن أنتشل أحد من الضياع؛ أريد شخصًا ينتشلني أنا من كل هذا .

– أليست أنانية منك أن تفعل هذا في شخص يثق بك؟

– سأكون سعيدًا لو فعلت شيء سيئًا مثل هذا ولو لمرة في حياتي، قليلًا من الأنانية لن تضر طالما سيساعدني ذلك على النجاة .

قطب الطبيب جبينه :

– النجاة من ماذا؟

- الماضي.. .

***

نهض الطبيب من مكتبه وتوجه لياسين وعدل رأسه ووضعها أسفل حلقة دائرية، ومن ثم ثبت قدميه في قاعدة الجهاز، أتى بحقنة وملأها بسائل ما ومن ثم أفرغ محلول الحقنة في أحد أوردة ياسين .

- هل أنت متدين يا ياسين؟

- نعم.

- ردد خلفي هذا الدعاء.. ربي إني توكلت عليك .

- ربي إني توكلت عليك .

- فكن لي خير وكيل .

- فكن لي خير وكيـ...

سرى مفعول المخدر في جسد ياسين وراح في ثبات عميق.

## ( ٥ )

كان معلقًا من أطرافه كالذبيحة على باب زويلة في منتصف الليل، وتتساقط دماءه قطرات على أرض المعز. صرخ ألمًا فخرج صراخه مكتومًا ولا أحد يراه أو يسمعه أو يشعر به، وامتلأت الأرض من تحته ببركة دماء صغيرة تكفي لاحتواء جثمانه. بكى ونزف من الدمع أنهارًا ليختلط الدمع والدماء ولم يتغير شيء، ظلت البركة كما هي والدماء كما هو وتبخر دمعه مع الهواء. التفت يمينًا فوجد مجموعة من رؤوس بشرية معلقة، العين في سبات عميق وخصلات شعر معبأة بالطين والأتربة وحفنة من الذباب ملتفة حول قاعدة الرأس وتشرب من دماء الحنجرة والمريء. التفت يسارًا فوجد مجموعة أخرى من الرؤوس وذات الطين وذات الذباب ورأس واحدة بجانبه، نظيفة، جميلة، لم يمسها العفن ولم يمسها السوء، يقولون أنها لحاكم قديم ذو شأن عظيم.

نظر أسفله فرأى انعكاسه في دماءه وما إن رمش بعينيه وفتحها حتى تفاجأ بثعبان كوبرا أسود يخرج من وسط الدماء ويرتفع، صرخ، ظل الصراخ مكتومًا، تشنج في الهواء وأخذ يصارع قيوده وفشل، ظل الثعبان يرتفع ويرتفع حتى اقترب منه وأصبحت قلنسوته في مقابل وجه ياسين الدامي. مد ضلوع رقبته ورفع رأسه وانتصبت حراشفه وأصدر فحيحًا تقشعر له الأبدان؛ فانتفض ياسين في قيوده، فقال الثعبان بصوت شيطاني رخيم «قد أتاك سلطان السم؛ فقف له احترامًا وتبجيلًا» وامتد لسانه المنشق

من الأمام وأصدر فحيحًا عظيمًا، وما إن أغمض ياسين عينيه رعبًا لدغه في رقبته، صرخ صراخًا مكتومًا فلدغه الثانية، الثالثة، الرابعة، ثم التف حول جسد ياسين المعلق فانكسرت القيود وسقط في بركة دماءه.

انكسرت كل عظامه وتحطمت كل ضلوعه فأخذ يتحسس جسده فلم يجد للثعبان أثر، نظر للأعلى حيث الرؤوس فوجد الثعبان يزحف بينهم، فنهض بعظامه المتكسرة كفريسة تصارع الموت فشعر بخيال لحيوان جدي مفتول العضلات يقف أمامه، يقف على قدمين وطوله متران وقرونه كسيوف قاطعة، رأى ياسين سوط عظيم يخرج من الظل فرفع رأسه فلم يرى أي شيء، مجرد شارع مظلم ومجرد قمر ينتصف السماء، التقط أنفاسه وطرد زفيرًا لاهث فهوى الجدي بالسوط على ظهره فانقسم الجسد إلى نصفين.

شعر بقوة تجبره على النوم على ظهره، ضغطت على بطنه فانشقت الأرض، ثم صلبت يداه في وضع موتى المصريين القدماء وأهالت عليه التراب.

ظل مدفونًا تحت الأرض بنصف جسد ونصفه الآخر ملقى على بلاط المعز فنمى لسمعه صوت يعرفه، يصرخ فيه، يوبخه «ياسين، أين أنت يا أقذر من أنجبت؟».. سمع وقع خطوات يقترب من مدفنه حتى توقفت الخطوات وحل السكون. قطع الصمت ضاحكًا «هل تظنني لن أراك يا بالي الروح و الجسد؟!» مد يده تحت الأرض ثم اجتذبه إلى الخارج وألقاه على البلاط، تناثر التراب من حوله فصرخ ثانية وفي هذه المرة حطم صراخه البيوت الصغيرة والحوانيت حتى طارت في الهواء وأصبح المعز عاريًا كصحراء قاحلة لا ماء فيها ولا زرع، لا حي يرزق ولا ميت يدفُن، أما الرجل فظل ثابت كما هو، يراقب ياسين الجالس على الأرض بنصفه الأعلى بابتسامة ساخرة ومن أمامه

باب زويلة، يقف شامخًا حاملًا رؤوسه مزينًا بثعبانه العظيم.

صرخ باكيًا «اللعنة عليك يا أبي!».

اهتز جهاز المعمل من تشنج ياسين وانتفاضاته وتصبب العرق العشوائي من كل مسام وجهه حتى ابتلت ملابسه والسرير، هبط مؤشر الشجاعة بين رقم واحد واثنان على الشاشة فطلب د.احمد رقم ما بينما يراقب حركة المؤشر وخريطة العقل الفوضاوية، وما إن أجاب الطرف الآخر حتى قال بجدية:

– عليك رؤية هذا.. الآن.

التقط الأب أحجارًا من الأرض وألقاها على رأس ياسين الدامي، يلقيه بالواحدة تلو الأخرى وهو يردد غاضبًا «مُت، اذهب لربك أنا لا أريدك، عد لقبرك يا ذرية الشؤم» ثم اقترب منه وركله في عينيه فصرخ ألمًا، فركله ثانية فتبدلت العينان بكرتان دمويتان تمر على سطحهما خيوط دودية سوداء؛ فخلعهم بقسوة وأصبح في موضع عيناه ظلمة وسواد، خلع العينين وألقاهما على سقف باب زويلة فالتهمهم الثعبان. جاء بسيف من معدن أسود ووقف أمام نجله بجلباب أسود وفي سبابة يده اليسرى خاتم مرصع بذهب غليظ هيئة الجدي مطبوعة على سطحه، ثم رفع السيف في الهواء ونظر لفتاه الكفيف في اشمئزاز ثم هوى بالسيف على رقبته؛ فطارت الرأس بعيدًا في الصحراء وانفجرت نافورة دماء أسود وما إن تبدل للأحمر في ثوان حتى قامت عاصفة أطاحت بأبيه بعيدًا وأغرقته في الرمال وانفجرت رأس الثعبان بحراشفها وسقطت جميع رؤوس زويلة عدى الرأس النظيف. أحاطتها قماشة بيضاء ثم هبطت من الباب ورحلت نحو جسد ياسين، ارتدت الجسد ورفعته إلى السماء فاكتمل الجسد ودبت فيه الحياة من جديد. تحررت الجفون من بعضها

وأخذت العين تذهب يمينًا ويسارًا وتمتمت الشفاه بصوت خفيض «أنا حي» ثم سعل فانقبضت قسمات وجهه وقال متوجسًا «هذا ليس صوتي، أنا ياسين، هذا ليس صوتي!»، تحسس وجهه في السماء حتى ارتفع الجسد وأصبح كالظل أمام القمر فصرخ ثانية «هذا ليس وجهي»، نظر للأسفل فرأى الأرض وباب زويلة البعيد وبحار هائجة في مشارق الأرض وفي انعكاس القمر على أمواجها العاتية لمعة تشق القلب.

فرد ذراعيه في السماء وحاول الطيران نحو مدينة مرصعة بالأنوار في مغاربها، عيونها لا تنام، وسماءها لا تعرف الظلام، ما إن بدأ في الطيران حتى سحبته الرياح للخلف نحو البحر، حاول الإفلات من مصيره فجذبته أكثر فأكثر، وما إن أصبح قريبًا من الأمواج الهائجة حتى تحولت الأمواج لتظاهرة مليونية من صراصير سوداء وحمراء يصل طولها لنصف متر فصرخ كالأطفال فطارت الصراصير وحلقت حوله كرضيع في بطن أمه مقيد بشواربهم مغطى بأجنحتهم، بكى وصرخ، وبدلًا من أن يرى النور ابتلعه صرصور أسود فانتفض واستيقظ من نومه صارخًا حتى أربك صوت صراخه المرضى في ساحات الانتظار.

هرع د. أحمد من مقعده وفك قيوده على السرير، وأجلسه على مقعد جلدي، فدخل ياسين في نوبة هلع قوية، وتبول لا إراديًا، ثم سقط على الأرض مغشيًا عليه.

***

بعد مرور نصف ساعة كان ياسين مستلقيًا على مقعده الجلدي لا يتفوه بكلمة واحدة، بنطاله مبتل من قضاء حاجته وقميصه مبتل من العرق،

وينظر لد. أحمد و د.إسماعيل بعيون نصف منغلقة ولا يدرك أي شيء من ما يدور حوله.

أخذ د. أحمد يتأمله بعيون جامدة، بينما جلس د. إسماعيل يراقبه في استفهام فسأل ياسين بصوته الرخيم :

– هل أنت بخير يا بني؟

لم يجيبه. التفت نحو د. أحمد مشيرًا نحو ياسين وسأله بصوت خافت:

– ماذا سنفعل معه؟

– لا أدري.

– هذا الفتى مثير للشفقة، كيف عاش حتى الآن؟ أمثاله يقتلون أنفسهم في عمر صغير.

قال ياسين بصوت خافت مريض:

– لأنني أجبن من أن أقتل نفسي.

سعل د. إسماعيل حرجًا وقال:

– أعتذر يا بني، ولكنني طيلة مسيرتي الطبية لم أرى مثلك، أنت أجبن شخص رأيته في حياتي.

قال ساخرًا بذات الصوت المريض:

– هذا وسام على مؤخرتي، شكرًا لك.

قال د. أحمد بصوت قلق:

– ماذا تحمل بداخلك يا ياسين؟

لم يجيب.

– لن أطيل عليك، لقد قُبلت، (ثم أشار لبنطاله) وهناك شخص ما سيحضر لك بنطال جديد لا تقلق.

تأمل ياسين بقعة المياه على بنطاله، وسأل دون أن يرفع وجهه:

– متى سنبدأ؟

قال متعاطفًا:

– السبت في العاشرة صباحًا.

– هل هناك شيء اخر؟

نهض د. إسماعيل وربت على رأس ياسين، وقال:

– انظر يا بني، في كل المراكز على مستوى العالم لم نلتق بشخص مثلك، أنت مقياس شجاعتك ٢، من المفترض أن تكون ميتًا، ولكن هأنت هنا ولا اعلم كيف فعلتها حقيقةً! ولكن إذا نجحنا في علاجك سندخل تاريخ الطب من أوسع أبوابه، أنت مشروعنا القادم يا ياسين.

أزاح يده من على رأسه وقال ممتعضًا:

– مشروعك يحتاج لبنطال جديد.

– بالطبع يا بني، وما حدث هنا سيبقى هنا، ولكن ألن تخبرنا ماذا رأيت؟

غطي وجهه براحة يديه؛ فخرج صوته مكتومًا:

- رأيت أبي.

***

- لماذا استغرقت كل هذا الوقت؟

قالتها في قلق وقلبها يخشى أن تكون مصيبته في أشياء أكثر من مجرد جبن، ولأن النساء دقيقون في ملاحظاتهم كعقارب الساعة في عملها لاحظت اختلاف مظهره على الفور. الوجه الشاحب والقميص المبتل بشكل مختلف والبنطال الذي تغيرت قماشته وتغير لونه لدرجة جعلتها تراجع عقلها مرارًا وتكرارًا، هل كان حلم صغير أم رحلة بالزمن؟ فأشارت لبنطاله وقالت في صوت يبدو وكأنه يفكر:

- تبدو مختلف!

لامس قماشة بنطاله وقال لها:

- بنطال جديد؟

- نعم.

- تبول لا إرادي.

قطبت جبينها:

- عفوًا؟

- هيا بنا إلى المنزل.

ما إن وصل ياسين لساحة الانتظار في طريق الخروج رفع بطاقته المدون عليها رقمه أمام موظف الاستقبال، وقال بحماس ساخر:

- ٤٢ .. إجابة صحيحة.. جبان رسميًا.

قطب الموظف جبينه بعدم الفهم والتقط البطاقة وهو ينظر لها في استفهام، بينما ظلت فاطمة على حالها؛ لا تفهم شيء.

شعر بالذل بعد ما حدث داخل المعمل؛ أن يكون مثير للشفقة للدرجة التي تجعل شاب راشد يتبول لا إراديًا من الخوف، من مخاوف أحاط بها روحه وعقله وفي النهاية كان هذا مصيره. على الرغم من أحلامه اليومية لم تكن بهذا الشكل أبدًا، وكانت كوابيسه أليفة بعض الشيء، ولكن عندما دخل المعمل هذا تجمعت كل أفكاره وكل لعنات عقله الباطن فوق رأسه، لم يكن يدرك أن بداخله كل هذا الخراب وكل هذا العبث، لم يكن يدرك أنه ظلم نفسه لهذه الدرجة وأنه تأخر كثيرًا على طلب المساعدة، سبعة أعوام لم يحاول فيها ولو لمرة وحيدة أن ينتصر على نفسه بجدية، استسلم لواقعه الجديد ورضى به ولم يكترث لتغييره إلا عندما أدرك كم هو وحيد وحزين وليس له أحد. خرج معها للشارع، وفي هذه المرة لم يشعر بحرارة الجو، لم يشعر أصلًا بالوقت والشمس وذهبا سويًا في صمت كئيب إلى شقته بالسيدة زينب.

دخلت فاطمة وهي تتأمل الأثاث والتفاصيل، فلم يكن عليه إلا أن أشار نحو غرفة صغيرة معلق بكلمة واحدة :

- غرفتك.

كانت غرفة فارغة من الحياة، مجرد مرتبة صغيرة في منتصفها وجدران متسخة ومروحة سقف تصدر أزيز خافت، وضعت حقيبتها على المرتبة وتوجهت لشباك الغرفة، تأملت الشارع لثوان ثم تنهدت وعادت لتجلس

على المرتبة الصغيرة، شاردة في ذكريات قديمة ولسان حالها يستفهم «هل هذا هو ثمن الحرية؟» أغلقت باب الغرفة وحررت شعرها فانسدل وتمدد على ظهرها، راحت تمشطه بأصابعها وهي تسأل نفسها «ماذا بعد؟» حصلت على الحرية فماذا بعد؟ هل هذا هو كل شيء؟.. لم تعطِ فرصةً لعقلها أن يورطها في التفكير فهي لم تعرف النوم من الأمس، فكانت رغبتها في النوم أقوى من رغبتها في تعذيب النفس؛ فسقطت فيه بملابسها أما شعرها فأخذ من المرتبة منحدرًا وأصبح يبدو كشجرة لبلاب على واجهة منزل قديم مهجور.

***

ركض أبيها خلف القطار في ظلمة الفجر وبين سكون الحقول كحصان عربي أصيل في سباق رويال سكوت الملكي، وما هي إلا ثوان حتى لحق بالقطار وصعد بوابة عربته الأخيرة كطفل شقي، وأخذ يركض بين العربات حتى وجدها، تستند برأسها على نافذة القطار متشبثة بحقيبتها الصغيرة، فقال لها معاتبًا:

- لماذا فعلتي ذلك يا فاطمة؟

انتفضت من نومها وبكت؛ فربت على ظهرها وقال بلهجة حانية:

- هيا انهضي، ستعودين معي.

قالت باكية:

- سامحني يا أبي، ولكن لم يعد حبك كافيًا.

ما إن ابتسمت حتى تحولت هيئة أبيها الطيبة ووجوه الركاب لأسراب من الجراد واختفى القطار والقضبان، وخرج من بين الجراد رجل يرتدي

بذلة سوداء ورابطة عنق بابيون وجهه متآكل ويحمل في يده باقة زهور ذابلة، ابتسم ليكشف عن أسنان رمادية اللون وقدم لها الزهور، ما إن حملتها وتأملتها بخيبة أمل حتى أخرج سكين وبدأ في نحر رقبتها بذات الابتسامة، وتحولت أسراب الجراد لوجوه صغيرة غاضبة، شعرت بانسحاب دمائها وبروحها تخرج من جسدها، وقبل أن تنفصل الرأس جحظت بعينيها فنمى لسمعها طرقات باب شديدة فلم يتوقف الرجل عن عمله وظل على ذات الابتسامة، أين هذا الباب؟ وصوت لباب آخر يُفتح فالتفتت يمينًا ويسارًا فوجدت السماء وقد أصبحت شبكة من أبواب خشبية سوداء، فركضت ورقبتها من الأمام كشلالات نياجرا وفتحت إحدى الأبواب بقوة؛ فوجدت نفسها نائمة ومن أعلاها مروحة سقف وعصفور ينظر لها من النافذة، وما إن نهضت حتى طار العصفور بعيدًا. عدلت من شعرها فعادت الطرقات، فهرعت نحو باب غرفتها وهي تتمتم في هلع «لا تفتح الباب».

## ( ٦ )

الجمعة..

٢٩ يونيو ٢٠١٨ / التاسعة صباحًا.

كانت الأجواء ساكنة ويكاد لا يقطع هدوء الصباح إلا زقزقة العصافير قبل أن يطرق أحدهم باب الشقة طرقات عنيفة ومنتظمة تكاد تسقطه أرضًا، انتفض ياسين من نومه فسقط على الأرض أثناء نهوضه وعلى وجهه إمارات الرعب، وراح يصيح في الطارق:

- أنا قادم.. انتظر.

خرجت فاطمة من غرفتها بحجاب يغطي رأسها بطريقة عشوائية، لوحت لياسين وراحت تهمس بعصبية:

- لا تفتح الباب.

وضع يده على قلبه محاولا إبطاء ضربات قلبه قائلًا بارتباك:

- كيف توصلوا لمكانك؟

بذات الهمس الغاضب:

- لا أعرف.. لا تفتح أرجوك.

بدأت الفتاة في البكاء وأغلقت باب غرفتها محاولة الاختباء؛ فشعر ياسين

أنه قد ورط نفسه في أمر لا يعنيه من البداية، فجاءه صوت أنثوي آمر من الخارج لسيدة تتعدى الخمسين من العمر؛ فشرد وجهه وشعر أنه يعرف هذا الصوت جيدًا.

- افتح الباب يا جبان.

هرع تجاه الباب، وما إن ضغط على المقبض حتى دفعت الباب بقوة من الخارج؛ فاختل توازنه وعاد للوراء وارتطم بالحائط.

- أين هي؟

أجاب في رعونة:

- من هي؟

- الفتاة التي معك.

التقط أنفاسه ونظر لها بامتعاض وفي وجهه بدايات الثورة :

- ماذا تريدين منها؟

وضعت يديها على فخذيها، وعقبت وهي تنظر له باشمئزاز:

- ماذا أريد منها؟

- نعم.. تشبهينني بأبي وتخرجيني من المنزل، والآن وبعد سبع سنوات تأتيني لتملين عليا تصرفاتي؟ سبع سنوات وهذا ما جعلك تأتين لزيارتي؟

أجابته بنبرة حادة تخلو من التعاطف:

- أنا من أدفع إيجار هذه الشقة وأن كنت ستملؤها بالنجاسة فلا مكان

لك فيها .

ضحك بسخرية :

– مالك المنزل هو من أخبرك إذن.

ثم توجه للأريكة وهم بالجلوس، ومن ثم وضع قدمًا على قدمٍ، واستطرد بصوت لا مبالي لا يعرف الخوف:

– فاطمة لن تغادر.. وأنا لن أغادر.. ولا أريد قرش واحد من مالك بعد الآن، أنا من سأتولى إيجار الشقة بعد ذلك، ويمكنك الاستمرار في عدم الاعتراف بي أو بتشبيهي بأبي كما يحلو لك .

تسمرت في موضعها ولم تجد ما تقوله، فوجدت نفسها بعد لحظات من الصمت تعقب بسخرية يائسة:

– من أين أتيت بتلك الشجاعة؟

– ليس من شأنك يا أمي ولا من شأن أحد .

تقدمت خطوة للأمام ومن ثم استقرت على مقعد مقابل، وقالت بصوت أقل حدة:

– هل تريد العودة للمنزل؟

بصوت متمرد:

– وسأنتقم .

– لا داعي لذلك.. شقيقتك تقدم لها شاب ابن أصول ولا نريد مشاكل مرة أخرى.

قال مندهشًا وعلى وجهه ابتسامة حب خافتة:

- يسرا تقدم لها عريس؟

- نعم.

- مبروك .

- لا تغير الموضوع.. من فاطمة تلك؟

مال ياسين برأسه تجاه باب غرفة فاطمة وقال بصوت ثابت:

- فاطمة.. تعالِ.. أمي تريد أن تراكِ.

خرجت فاطمة بخطوات متلكئة ووجه شاحب واضعة وشاح الرأس، تقدمت ناحية الأم وصافحتها فتفحصتها الأم من الأعلى للأسفل وعيناها لا تفارق مفاتنها بين كل حين وحين، فالتفتت ناحية ياسين مشيرة بأصبعها ناحية فاطمة المتسمرة في موضعها وتساءلت بنبرة عادية:

- حبيبتك؟

عقب ضاحكًا:

- لا حبيبتي ولا عشيقتي ولا كل ذلك.. قصة طويلة خلاصتها أن فاطمة في حاجة لمساعدتي.

تسائلت في اهتمام :

- هل تؤنسك؟

أجاب بصوت هادئ:

– إنها فتاة طيبة يا أمي وفي حاجة للمساعدة.

قالت فاطمة بصوت يغلب عليه الخجل:

– أعتذر لك يا سيدتي، لم أقصد أن أفتعل أي مشاكل بينكم، سأوضب حقيبتي وأغادر الآن.

وبينما هي عائدة تمتمت بصوت مسموع «أعتذر لك مرة أخرى» فقبض ياسين على معصمها؛ فتوقفت دون أن تلتقي عيناها بعينيه.

نهضت الأم وقبل أن تهم بالرحيل قالت دون أن تلتقي عيناها بعين ياسين:

– زفاف شقيقتك في السابع من يوليو!

ابتسم:

– أمي.. غدًا سأبدأ رحلة علاجية للتخلص من الجبن والخوف، ولن أذكرك بأبي مرة أخرى.

مطت شفتيها وقالت بنبرة من أرهقه العمر والمرض:

– كل شيء بإذن الله.

تقدمت ناحية الباب فبادر من جديد:

– وفاطمة؟

أجابت بذات الصوت المرهق:

– سأخبره أنها زوجتك.

ومن ثم ألقت السلام ورحلت.

***

تقدمت فاطمة نحو الباب وأغلقته في هدوء، ومن ثم جلست على ذات المقعد الذي جلست عليه الأم منذ لحظات، وقالت وفي عينيها غفوة قرية بأكملها:

- هل هي من تسدد إيجار شقتك بالفعل؟

- نعم.. عندما طلبت مني الرحيل عن المنزل منذ سبع سنوات تعهدت بأنها ستوفر لي مسكن جديد وستساعدني في الإيجار.

قالت في حنق :

- ما الذي يجعلها تفعل كل ذلك؟

حك رأسه:

- لأنني أذكرها بأبي.. أشبهه شكلًا ومضمونًا.

- فتطلب من نجلها الرحيل .

- بالضبط.

تساءلت من جديد:

- حسنًا، ماذا سنفعل الآن؟

أجابها بصوت واثق يدرك ما يفعله :

- لا شيء.. سنعود للفراش وننال قسطًا آخر من النوم .

انحنت للأمام، وأسندت رأسها بين راحة يديها، وقالت بصوت مكتوم ونائم:

– في صباح الجمعة يستيقظ أبي ويحضر لنا الفطور ونتناوله سويًا علي صوت النقشبندي.. ومن ثم ندفئ معدتنا بشاي ساخن قبل الشروع في قراءة صباحية للقرآن سويًا، وعندما ننتهي أقوم بكي ملابسه قبل الذهاب لإلقاء خطبة الجمعة على المصلين .

رفعت رأسها مرة أخرى واستطردت بصوت تغلب عليه الحسرة:

– كان يقبل رأسي كل صباح .

راحت عيناه تنظر للفراغ وكأنه يتذكر أمرًا ما، وقال بصوت نائم ومحبط:

– كان يلعن وجودنا في كل يوم .

– مائة عام من الحنين .

– مائة عام من الخوف .

عدلت حجابها ونهضت، وابتسمت بقلق وقالت بتعبيرات وجه متقلبة:

– غدًا ترحل ويتغير مصيرك.. وربما مصيري .

رفع رأسه ناحيتها ونهض مستندًا براحة يديه على ساقيه، وقال كمن يريد أن ينهي الحديث في سبيل النوم لبضع ساعات أخرى:

– ربنا يصلح الحال .

توجه لغرفته وأغلق الباب؛ فعادت لغرفتها هي الأخرى وأغلقت بابها هي الأخرى وساد الصمت، السكون؛ فعادت العصافير لاحتلال النوافذ

من جديد.

***

في النصف الآخر من العالم أو على مسافة ساعتين فقط بالسيارة كان آذان الظهر قد رفع في أنحاء طنطا وبالتحديد قرية كفر نعيم، قرية لا تختلف كثيرًا عن أي قرية في ربوع الدلتا. خرج الناس للصلاة، شارع كبير ينتصف القرية كالنيل في قلب مصر، مجراه الناس ومصبه المسجد، وعلى شواطئه بائعات الفجل والجرجير اللاتي افترشن أرصفة المنازل كأزهار اللوتس في منافسة شرسة مع بائعات البرسيم على الشاطئ الآخر؛ فحيوانات القرية في قيمة ساكنيها وإن ماتت البهائم والطيور والحمير مات ساكنيها من الحزن والفقر والجوع. رجل ما يسير بجلبابه الأبيض، في يمناه سجادة صلاة زيتية اللون وفي يسراه طفله الصغير، شاب ما في المقدمة يسير بمفرده ويبدو الوجوم على وجهه، رجل عجوز يتكئ على عصاه ويسير بخطوات بطيئة وربما يصل للمسجد في الجمعة التالية، وفيضان من الناس يحمل نعش ما وفي طريقه للمسجد. انتهى المؤذن ففرغت الشوارع والأزقة من أهلها، تكدس مسجد القرية عن آخره بالمصلين والنعش بجانب القبلة، نهض أحدهم من الصف الأول للجالسين في طريقه لصعود المنبر، وعندما استقر على مقعده نهض أحد المصلين وصاح معترضًا:

- ماذا تفعل يا رجل؟

فجذبه أحد المصلين من ذراعه، فحرره ولوح للخطيب مرة أخرى صائحًا:

- لن يخطب فينا رجل لم يربي بناته .

قال الخطيب بصوت مؤدب:

- تحشم يا بني .

نهض أحد الشيوخ من أول صف وتوجه ناحية الشاب وقال في حزم :

- إما أن تجلس صامتًا أو تغادر المسجد.. هذا بيت الله !

- لن يصلي على أخي رجل ديوث.

تنهد الرجل غاضبًا:

- لقد طفح الكيل، خذ أخاك وارحل للصلاة في مسجد آخر!

عقب ساخرًا:

- ألم تقل أن هذا بيت الله؟

ابتسم الخطيب من مجلسه بحزن، وقال بذات النبرة المؤدبة:

- لا داعي للشجار يا سادة.. بيت الله يسع جميع العباد.. تفضلوا باختيار شخص آخر لإلقاء الخطبة .

نهض وبدأ في النزول وعلى وجهه السكينة والهدوء؛ فخرجت ثورة من الأحاديث الجانبية أنهاها رجل أربعيني نهض من مجلسه وقال بصوت آمر يكسوه الحب:

- عد للمنبر يا رجل، لن يخطب فينا أحد غيرك، وهذا بيت الله ليس بيت فلان أو علان.

فأحاطته تمتمات توافقه الكلام فجلس الشاب رغمًا عنه، نهض الشيخ

حسني مرة أخرى للمنبر وبدأ خطبته بصوت رقيق وطيب يخترق القلوب دون سابق إنذار:

– الحمد لله ذي الرضا المرغوب، يعفو ويصفح ويغفر الذنوب.. يملي ويمهل لعل العاصي يتوب، يعطي ويرضى ويحقق المطلوب.. يُطعم ويَسقي ويستر العيوب، يغني ويشفي ويكشف الكروب ..نحمده تبارك وتعالى حمدًا هو للذات العلية منسوب، ونعوذ بنور وجهه الكريم من شر الوسواس الكذوب، ونسأله السلامة فيما مضى وما سوف يأتي من خطوب.. أما بعد ..

***

انتهت الصلاة فحمل الناس ميتهم لمثواه الأخير، وجلس الشيخ حسني على الأرض مستندًا على إحدى أعمدة المسجد شاردًا في الفراغ.. في وجهه غم وضيق يكادا يلتفا حول رقبته ولا يشكو، اقترب منه خادم المسجد والذي بادر سؤاله بنبرة رقيقة:

– هل أنت بخير يا شيخنا؟

لم يجبه، بل ظل شاردًا كما هو وعيناه ثابتتان في موضعهما كالحجر، وبعد مرور عشرون دقيقة تقريبًا نهض من مجلسه وهو يتمم «الفرج من عند الله.. الفرج من عند الله».

انتعل حذاءه وخرج من المسجد، وبدأ يسير في شارع القرية الكبير كمن يسير في معسكر العدو حاملًا العار على رأسه، يحاول قطع الطريق سريعًا حتى يصل منزله دون إصابات من نظرات الناس، لم يجرأ حتى على الالتفات يمينًا أو يسارًا ولو حتى لإلقاء السلام، ظل يسير بخطوات ثابتة وبوجه

عابس يريد من الأرض أن تبتلعه أو تنتشله السماء وتلقيه بعيدًا أو يحدث ما ينهي الزمان ويحول مصيبته لرماد وقريته لقيامتها. اخترقته نظرات الناس وحركة شفاههم التي قرأها مرارًا وتكرارًا طيلة طريق العودة، واسم ابنته الذي أصبح يذكر على ألسنة أهل القرية أكثر من ذكر الله؛ فالناس في قريته كانوا يقدسون المصائب أكثر من تقديس العبادة ويعطون من طاقتهم ما يلزم للخراب أكثر من ستر مسلم. وصل منزله وعندما التقى زوجته لم يلقي السلام أو يسأل عن الحال، دخل لغرفته واستلقى على فراشه محاولًا كتم العار بالنوم، دخلت الأم من خلفه بوجه حانق وسألته بصوت مستنكر:

- لم أراك تفعل شيء بعد في أمر تلك العاهرة!

لم يجبها، بل لم يلتفت نحوها وظل على حاله، مستلقيًا على ظهره بذات الوجه الشارد الذي انفصل صاحبه عن الدنيا ولم يُستدل على مكانه حتى الآن.

- أنت.. هل أحدث نفسي؟

أغمض عينيه.. وحل الظلام على الدنيا، وانتهى كل شيء بمشيئة ربه الرحيم.

( ٧ )

٢٩ يناير، ١٩٩٨

قبل أن يموت الجسد.. وقبل أن تفوته الروح.. قبل أن يتوقف القلب عن الخفقان، ويعتزل الدنيا.. كان الخميس صبيحة عيد الفطر المبارك يوم لا ينسى في حياة الشيخ حسني، أو حسني الموظف الشاب بهيئة الأوقاف الذي ما زال وجهه ينضب بالشباب والحياة، لحية قصيرة ومشذبة بعناية وشعر مصفف للخلف ورائحة طيبة من المسك تملأ جنبات المنزل. كانت الخامسة فجرًا عندما دلف لغرفة فاطمة ابنة الست سنوات والتي كانت في سبات عميق بجانب ملابس العيد. راح يفرك رأسها الصغير بأنامله بسعادة:

- استيقظي يا حلوتي.. هيا لنذهب سويًا لصلاة العيد.

تقلبت فاطمة على الفراش وأصبح وجهها الملائكي قبالته، بينما افترش شعرها الحريري عينها اليسرى؛ فأزاح عنها الخصلات بأصابعه، وجلس على ركبتيه وقال:

- من الجميلة التي ستنهض الآن؟

أجابته بابتسامة يغلبها النعاس:

- أنا.

ثم مدت له يديها فحملها بين يديه، وراح ينظم شعرها بأصابعه ،وذهب

بها إلى الحمام لتغتسل. عادت فاطمة لغرفتها وارتدت ملابس العيد وهي تردد تكبيرات العيد بصوت حماسي، ثم فتحت باب الغرفة وركضت نحو أبيها الذي ما إن رآها حتى عانقها بشدة وحملها مرة أخرى لتجلس على كتفيه، قطعا الشارع الكبير والسعادة تملأ قلبهما بين معايدات الجيران وتكبيرات العيد التي أحاطت القرية من كل اتجاه، وراح صوت التكبيرات يعلو ويعلو حتى وصلا إلى ساحة فسيحة يغطيها المصلين بجلابيبهم البيضاء وكأنها صلاة في الحرم المكي. جلس حسني على حصير أخضر وفاطمة على يمينه تراقب الوافدين في فضول، بادرها بصوت طفولي:

- أخبريني يا حلوتي، أين سنذهب بعد الصلاة؟

التفتت نحو أبيها ومن ثم أشارت بأصابعها الصغيرة نحو ملاهي للأطفال على مقربة من ساحة الصلاة؛ فضحك حسني:

- ألا تريدين النوم ثانية؟

أومأت رأسها بالنفي فضحك ثانية وقبل جبينها، وربت على رأسها ضاحكًا:

- حسنًا يا بطوطة.

نهض الناس للصلاة وفي دقائق قليلة كانت قد انتهت الصلاة وبدأت خطبة العيد، فانصرف حسني حاملًا فاطمة نحو الملاهي الصغيرة وفي كل خطوة كان يتوقف لمصافحة أحدهم وتبادل تهاني العيد، كان يبدو أن حسني محبوب بالقرية على الرغم من مركزه المحدود في ذلك الوقت، ولكن بشاشة وجهه كانت ترغم الناس على محبته. وصلا إلى الملاهي وبدأت فاطمة اللعب

في حماس بالغ بينما راح حسني يراقبها باهتمام ويبتسم كلما التقت عيناها بعينيه، ذهبت فاطمة بإرادتها بعد ذلك لأرجوحة على الجانب فذهب خلفها وراح يدفعها بخفة فبدأت تردد تكبيرات العيد مرة أخرى بهذا الصوت الذي لم يعرف العالم إلا منذ ست أعوام، ظلت على هذا الحال لعشر دقائق ومن ثم تركت اللعبة عندما لمحت بائع لغزل البنات يقف على بعد خطوات محاطًا بأطفال القرية، فحملها حسني بدوره متجهًا صوب البائع، ابتاع لها واحدة وراحت تلتهمها في نهم دون أن ينزلها على الأرض، ثم ابتاع لها بالونة زرقاء فالتقطتها وراحت تضرب بها على رأسه فراح يضحك ثانية، ثم أنزلها وقبّل رأسها ثانية وقال لها بنبرة حانية:

- أنت عوض الله لي في الدنيا.. أنت أجمل شيء حدث في حياتي.

لم تنتبه لكلمات أبيها لانشغالها بالبالونة فراح يتأملها في صمت دون أن يتفوه بكلمة واحدة، كانت تلعب بمفردها ولم تهتم للعب بصحبة أي طفل آخر، كان باديًا عليها أنها لا ترى إلا وجه أبيها ولا تسمع إلا صوته ولا تميز أي شيء في العالم إلا هيئته. تقدمت خطوة نحوه وتساءلت في لهفة:

- ما رأيك في فستاني؟

- جميل يا حبيبتي.. جميل.

ثم بادرها بالسؤال:

- ماذا تريدين أن نفعل الآن؟

فمالت برأسها يمينًا ويسارًا باحثة عن شيء يسرق اهتمامها فلمحت طفل ما يتناول خمسة جنيهات من أبيه؛ فالتفتت نحو أبيها سريعًا وقفزت في

الأرض، وقالت بذات الصوت الحماسي:

- أريد العيدية.. أريد العيدية.

أخرج حسني على الفور عشرة جنيهات وأعطاها لطفلته:

- ماذا ستفعلين بالعشرة جنيهات يا بطوطي؟

صمتت برهة، وقالت بصوت يبدو عليه الحيرة:

- لا أعرف.

- ما رأيك أن أرتدي ملابسي ونذهب سويًا للسيد البدوي؟

بدى على وجهها عدم الفهم:

- سنذهب لملاهي أكبر ونلعب كثيرًا.. ما رأيك؟

- متى؟

- الآن.. هيا هيا.

فمدت يديها نحو أبيها فحملها من جديد عائدين للمنزل، وما إن دخلت غرفتها للجلوس على سريرها الصغير حتى سقطت في النوم؛ فغطاها بغطاء صوفي يحميها من برد الشتاء وأغلق باب الغرفة في هدوء.

***

كان قد حان آذان العصر فخرجت فاطمة للشرفة حاملة في يمينها صورة تذكارية تجمعها بأبيها، وضعتها على السور فلمعت تفاصيلها تحت شعاع الشمس، يقف أبيها ضاحكًا في منتصف الصورة معانقا فاطمته الصغيرة

ومن خلفهما المسجد البدوي وأطفال صغار يحومون حول بلالين بألوان الطيف تحلق في السماء. أغرورقت عيناها بالدموع فسقطت واحدة لتغرق وجه أبيها فراحت تمسح وجهه، عيناه، ابتسامته، وتمتمت بنبرة يائسة بينما ترفع رأسها للسماء:

- اغفر لي يا أبي!

انتهى الآذان فدلف ياسين للشرفة بدوره حاملاً صينية صغيرة يعلوها كوبان من الشاي بالنعناع، وضعها على السور ثم بدأ يرمي نظرات سريعة على شرفات الجيران حتى يتأكد أنه ليس محط أنظار جار متطفل، وعندما اطمئن التفت لفاطمة وتساءل في قلق:

- ما بك؟

لم تستطع أن تسيطر على دموعها؛ فجلست على أرض الشرفة وأجهشت في البكاء:

- ماذا حدث؟

رفعت رأسها وقالت في ألم:

- أفتقد أبي.. لا أعرف كيف سأعيش بدونه وكيف سيعيش بدوني!

جلس على الأرض قبالتها، وربت على راحة يدها، وقال بنبرة حانية:

- في النهاية سنعيش .

أفلتت يدها، وقالت بصوت مريض باليأس:

- أنت من سيعيش.. ستتحرر من أبيك ومن خوفك وتعود لعائلتك، أما

أنا.. فلا حول لي ولا قوة.. سأكمل ما تبقى من العمر في حرية زائفة.. حرية بين أنفاق الظلام .

- لماذا تقولين ذلك؟

تأملت صورتها بصحبة أبيها مرة أخرى، وأجابت بابتسامة ساخرة :

- لأنني أحبك..

ثم التفتت ناحيته:

- هل تعرف لماذا أحبك؟

أومأ بالنفي :

- عندما كنت صغيرة أخبرت أبي أنني لن أتزوج إلا بمن يشبهه.. ويشاء الخالق أن نلتقي.. ولكنه لا يشاء لقلوبنا أن تلتقي! قلبي ألقي عليك السلام ولم تستجب.. رغم أن في قلبك كل السلام.. ولكننا أبدًا لن نلتقي .

تسارعت دقات قلبه وشعر بنوبة هلع قادمة في الطريق؛ فنهض وقال بصوت متألم:

- شخص يحبني لأنني أذكره بأبيه، وشخص آخر يمقتني لأنني أذكره بأبي.. من أنا يا فاطمة؟.. من أنا؟

نهضت بدورها وأعطت ظهرها للشرفة، وعقبت بينما تتأمل في ذات الصورة:

- أنت مشوش.. مشوش بطريقة تربك كل من حولك .

- لا يوجد سواك .

- إذن.. تخيل حجم الألم .

التفت نحو الشارع، وقال بينما يتأمل سيارة تمر بالأسفل :

- الأمس كان يومك.. واليوم نطوي صفحة الماضي، وغدًا صفحة بيضاء..

- وماذا سأفعل في روايتي؟

- روايتك جميلة يا فاطمة.. ولكنني أخشى أن أقرأها فتصيبني لعنتها.

- تريد مني الرحيل؟

- عندما تستطيعين ذلك .

- سنظل أصدقاء؟

- حتى يفرقنا الموت.

***

رفعت فاطمة كوبها معقبة بصوت حماسي ساخر:

- سأنهي كوب الشاي الرائع هذا وأعود من حيث أتيت .

- هذا ليس الوقت المناسب للمزاح !

أخذت رشفة وقالت بذات الصوت الساخر:

- ليس لي أحد هنا، ليس لي أحد هناك، ما الفرق؟.. ماذا سأفعل؟

ارتشف من كوبه:

- أرض الله واسعة .

لم تعقب؛ فاستطرد:

- لقد وضعتك على الطريق فدعيني أكمل طريقي.. من فضلك .

وضعت كوب الشاي واتجهت صوب باب الشرفة، وقبل أن يبتلعها ظلام الغرفة عقبت بنبرة هادئة:

- حسنًا يا ياسين.

***

أبريل ٢٠٠٤

اصطف ياسين ويسرا ومجموعة تلاميذ عددهم قرابة الخمسون في حرم مسجد الحاكم بأمر الله بشارع المعز لدين الله الفاطمي. كان الجميع ينصتون لأحد المرشدين السياحين والذي انهمك في الشرح للتلاميذ ويداه تشيران نحو معالم المسجد في حب وإخلاص. التفت ياسين نحو مئذنة تحتل إحدى زوايا المسجد الخارجية وظل يتأملها طويلًا ثم رفع عينيه إلى السماء وعاد بها للتأمل في المئذنة وفي مداخل الحرم.

- هل تعلم أن في نهاية هذا الشارع وفي مثل هذا الشهر هناك باب يدعى باب زويلة شُنق عنده أحد حكام مصر؟

ارتعب ياسين واستدار للخلف فوجد تلميذ ما قبالته؛ التلميذ الذي سمح له للجلوس بجانبه في أول يوم مدرسة قبل خمسة أعوام؛ فسأله ياسين

مرتبكًا:

- كيف عرفت؟

- أبي من أخبرني بذلك.

ثم صاح التلميذ في المرشد بصوت طفولي:

- هل سنرى باب زويلة اليوم يا أستاذ؟

ابتسم المرشد بحب وكان شاب ثلاثيني وسيم الوجه:

- ليس اليوم يا صديقي

ظل ياسين مرتبكًا ولم يهدأ إلا عندما أعطته يسرا زجاجة مياه فأخذ يتجرعها دون توقف؛ فضحك صديقه وعاد للاصطفاف مع التلاميذ ليترك ياسين غارقًا في خياله.

بعد دقائق خرج التلاميذ بصحبة المرشد في جولة سياحية بالشارع بداية من باب الفتوح وباب النصر مرورًا ببيت السحيمي ومسجد سليمان أغا ومسجد الأقمر وقصر الأمير بشتاك، فالتفت ياسين لصديقه وهمس في أذنه:

- أريد أن أرى باب زويلة.

فعقب ضاحكًا:

- يا صاح، لو أبصرت باب زويلة لعلمت قدر محله بنيانًا.. لو أن فرعونًا رآه لم يرد صرحًا ولا أوصى به هامانًا.

قطب ياسين جبينه وقال حانقًا:

– ماذا تقول؟ لم أفهم شيء.

همس صديقه في أذنه:

– هذا شعر كتبه شخص ما على الباب.. أبي يقول أن كثيرًا من المجرمين عُلقت رؤوسهم على هذا الباب وأن أشرف من عُلق على هذا الباب كان قد مات مشنوقًا.

– خذني إلى هناك.. الآن.

نظر صديقه لمجموعة التلاميذ وسأل بوجه يكسوه عدم الفهم:

– لماذا؟..

أجابه في تحدٍ:

– لأنني سأعلق رأس أبي على هذا الباب في يومٍ ما.

ابتلع الفتى ريقه وقال مرتبكًا:

– أنا لا أعرف الطريق.

جذب ياسين شقيقته من يدها وذهب نحو تاجر في حانوت صغير وسأله عن مكان الباب فشرح له الطريق؛ فتملص من الجمع ووعد صديقه بأنه سيلاقيه في نهاية اليوم. أخذها بصحبته وشرعا في قطع الحارات والأزقة حتى أصبحا بعد نصف ساعة من السير تحت الشمس أمام الباب بمئذنتيه. شعر ياسين بأنه تسلسل لعالم آخر جديد لم يره من قبل، شرطي يركب الخيل حاملًا في يده سوطًا وحدوة الخيل في ملامستها لبلاط الشارع إيقاعًا غريبًا. اقترب من الباب ورفع عينيه للأعلى ثم أشار ليسرا عند موضع محدد وقال

في فخرٍ:

– هنا سأعلق رأس أبي.

ما إن قالها حتى تخيل شكل رأس أبيه بصحبة رؤوس أخرى قبيحة الشكل، وقبل أن ينغمس في مخيلته نكزه رجل صغير وجهه بذات القبح ورائحته كريهة، ويقول بينما اللعاب يتدلى من فمه:

– حسنة لله.

اختبأت يسرا خلف ياسين من الخوف؛ فأخرج ياسين خمسين قرشًا وعاد للخلف فاصطدم رأسه بفم حصان الشرطة؛ فقبع الحصان وصاح الشرطي من الأعلى:

– افسح الطريق يا ولد.

همست يسرا في رعب:

– أنا خائفة.. هيا بنا نعود.

قال وفي وجهه الخجل:

– أنا لا أعرف كيف نعود.

صاحت فيه غاضبة:

– مثلما أتيت بي إلى هنا!!!

شعر وأنه قد ورط نفسه وأن اليوم لن يمر مرور الكرام وسيتلقي مزيد من التوبيخ؛ فنظر لأعلى الباب وقال لها بذات النبرة المرتبكة:

- أنا لا أعرف أين ذهبوا، ولكن صديقي سيخبرهم بمكاننا وسيأتون من أجلنا.

دفعته للخلف غاضبة:

- أنت أبله.

***

قبل أن تغيب شمس الجمعة كان ياسين قد خرج من الشرفة ومن ذاكرته بوجه واجم يريد تحطيم كل ما يدور داخل رأسه، حمل صينية الشاي وعاد بها إلى الداخل فوجد فاطمة تبكي بغرفتها، لم يشأ أن يتفوه بكلمة أخرى تزيد الطين بلة فوضع الصينية جانبًا واتجه لغرفته لتحضير حقيبته. للمرة الرابعة يقوم ياسين بتحضير حقيبته للانصراف لعالم جديد لم يعشه ولا يعرفه، تارة عندما انفصل أبويه، وتارة عندما غادر مع أمه و يسرا مسكنهم القديم، وتارة عندما أخرجته أمه من المنزل وتارة الآن، عندما قرر التخلص من نفسه.

كانت الشمس قد غربت عندما انتهى من ملئ الحقيبة؛ فوضعها على الفراش وقرر الخروج ليودع القاهرة قبل الرحيل.

راح ياسين يقطع شوارع وسط البلد بلا هدًى فوجد نفسه أمام مقهى الونش، لم يبدي اعتراضه عندما أخذته الشوارع لمكانه المفضل؛ فأخذ جلسته بين الخارجين على المعاش وما هي إلا ثوان حتى ظهر عم رضا من العدم بحماسه الغريب:

- أستاذناااا!!!

نهض ياسين على الفور وتبادلا العناق.

- كيف حالك يا رجل يا عجوز؟

- بخير يا أستاذنا.. كيف حالك أنت؟

- أنا بخير يا عم رضا.. أنت تعرف طلبي المعتاد.

لم يعقب عم رضا بكلمة «أوامرك» كعادته، بل بادر بالسؤال بنبرة خافتة:

- لا تؤاخذني يا بني.. أنت ما زلت شاب والعمر أمامك لماذا تحب مقهى العواجيز تلك؟ (ضاحكًا).. نحن بيننا وبين القبر حجر شيشة.

لم يتمالك ياسين نفسه من الضحك:

- يا رجل بعيد الشر!

- لا شر في لقاء رب الناس يا بني.

- ونعم بالله.

- أخبرني.. لماذا تتردد على مقهانا الوضيع هذا؟ نحن حتى لا نعرف المشروبات العجيبة التي تحبونها، باتشينو وفاتشينو!

- (ضاحكًا) كابتشينو ياعم رضا.. شاب وعمري قصير ولكن البركة في مجلسك يا رجل يا طيب.

- ربنا يبارك في عمرك يا بني.

ظل ياسين جالسًا حتى منتصف الليل يراقب المارة والسيارات في صمت و أم كلثوم تغرد بسيرة الحب في الخلفية، ظل جالسًا حتى فرغت المقهى من روادها وندرت حركة السير وبدأ عم رضا في جمع المقاعد البلاستيكية لوضعها بالداخل، نظر ياسين في ساعته فوجدها الثانية عشر صباحًا بتوقيت

وسط البلد، كان سعيدًا بعدم تلقيه أي مكالمة من فاطمة وشعر أنه في طريقه الصحيح للتخلص منها في أقرب وقت، حتى وإن كان يكن لها الكثير من الحب؛ فهو لا يريد هذا الحب الذي يجمعهم تحت سقف واحد.

ما هي إلا ساعات قليلة حتى ينتقل لمسكنه الجديد تاركًا فاطمة بمفردها، خارج منزله وخارج حياته، وما هي إلا أيام حتى يودع نفسه المهترأة. نهض وتوجه صوب عم رضا وأعطاه الحساب وحياه وانصرف، بدأ في قطع شوارع وسط البلد من جديد عائدًا لمنزله منتشيًا بالوحدة في العاصمة الصماء، صماء ولو لدقائق لتترك لياسين خطاب الوداع. بعد ساعات سأصبح ياسين جديد، ياسين لا يخشى أحد، ياسين سريع الغضب، متمرد، قلب يهوى العصيان لا يقوى أحد على تهدأته، ياسين قوي يخافه الناس ويتقبلونه، والأهم.. تتقبله يسرا. ظل يتمشى مع مخيلته متحمسًا للمستقبل القريب حتى وصل للشقة، وعندما أدار المفتاح في الباب وانفتح وجد فاطمة متلحفة بالسواد في منتصف الصالون وصوت الراديو على إذاعة القران الكريم.

- ما بك؟

بادرها بالسؤال؛ فنظرت له وأجابت بنبرة يبدو وكأنها تخلو من الحزن والألم:

- لقد مات أبي..

# ( ٨ )

السبت

٣٠ يونيو، ٢٠١٨

وصل ياسين إلى مقر المركز بالمعادي في العاشرة صباحًا، كان يسير برأس منتكس لا تدل على حماسة صاحبه، خطوات بطيئة وفم جاف ومغلق ونفس لا تكترث. قبل أن يصعد درجات المبنى الأمامية وجد من تناديه بالخلف «ياسين».. التفت للخلف فوجدها متوقفة ملتحفة بالسواد، فاطمة.

حاول أن يتحاشى النظر في عينيها وسألها بصوت شحيح:

– ماذا جاء بك إلى هنا؟

أجابت بابتسامة يملؤها الإرهاق والحزن:

– جئت لأودعك.

– تناسي ما قلت لك بالأمس، كنت قاسيًا عليك.

– لا تقل هذا لأن أبي قد رحل، أنا أعلم أن حديثك كان عين الصواب.

– صدقيني يا فاطمة، لو كنت أعرف الصواب في حياتي لما وصلت إلى هنا.

مدت يدها لتصافحه لتقطع شعوره بالذنب:

- لا تشعر بالذنب يا ياسين، كلنا جسور لبعضنا البعض وأنا عبرت فوق ضعفك وأنت عبرت فوق آلامي، دعنا الآن من كل ما مضى وامضي في طريقك ولنلتقي في زمن آخر ربما.. ربما لا تتقاطع فيه أحزاننا.

صافحها برفق لثوان ليست بالقليلة والعين تحتضن العين، وقبل أن تفلت يدها من بين كف يده وأصابعه جذبته نحوها وعانقته بقوة، وعيناها تكاد تنفجر من كم الدموع الحبيسة أسفلها.

ثم حررت نفسها وقالت بصوت حماسي تكسوه بوادر نوبة هلع قوية:

- سأفتقدك يا ياسين!

عادت سريعًا من حيث جاءت ومضى ياسين في طريقه نحو الداخل، استقبله أحد الموظفين بالداخل بابتسامة طيبة:

- صباح الخير، هل أستطيع مساعدتك؟

أجابه بتلعثم:

- اليوم هو يومي الأول.

- أها، مرحبًا بك معنا، هل لي ببطاقتك لتسجيل البيانات؟

أخرج ياسين بطاقته وأعطاها للراجل، وراح يتأمل في البهو الفسيح ليسكت أفكاره، فقاطعه موظف الاستقبال:

- تفضل يا أستاذ ياسين.. (أعطاه البطاقة).. يمكنك التوجه لبوابة ٢ وأحد رجالنا سيقوم باستقبالك وأخذك في جولة تعريفية بالمكان قبل جلستك الأولى.. اليوم.

***

هل هناك مكان للحزن؟.. بحرية؟ هل هناك مكان يمكنني فيه الانهيار والبكاء والصراخ دون أن يشعر بي أحد؟.. كانت تحدث نفسها ولا تدري ماذا ستفعل، تحت حرارة الشمس الحارقة تبكي على فقدان أبيها في بلاد لا تعرفها وشوارع لم ترها، بلا مأوى وبلا رفيق، بلا يد تنتشلها من كل هذا، ورغم أن الموت هو السيف القاطع لكل الأفكار إلا أنها فضلت الانهيار على الموت.

جلست على رصيف إحدى اأرصفة شوارع المعادي الهادئة ملتحفة بظل إحدى الأشجار العتيقة، راحت تبكي بصوت مسموع فوضعت يدها على فمها في خجل وأخفضت رأسها فراحت الدموع تسقط على الأرض بغزارة أمطار ديسمبر. اقتربت منها إحدى الفتيات المارة وسألتها بقلق «هل أنتِ بخير؟».. فانتفضت كمن لدغها ثعبان سام، ورحلت عن المكان بسرعة البرق وكأنها لم تأتِ ولم تحضر، راحت تسير محاولة كبت دموعها حتى وجدت زاوية غير مرئية فانهارت كالأطفال، أفلتت حقيبتها وجلست على الأرض وصوت النحيب لا يهدأ ولا يتوقف، شعرت بهاتفها فأخرجته على الفور فوجدت ياسين على الهاتف، ماذا يريد؟.. ماذا يريد الآن؟.. ألم ينل حريته؟ ماذا يريد مني؟.. أنهت الرنين بحركة عصبية وألقت هاتفها فوق الحقيبة، ووضعت يدها على فمها من جديد ورأسها منحني كالراكع في الصلاة، رن الهاتف ثانية فوجدته ياسين مرة أخرى، فتحت الخط وأجابت بصوت بركان غاضب.

- ماذا تريد مني؟

لم يرد.

– تحدث، ماذا تريد يا ياسين؟.. اتركني في مصيبتي، اتركني.

– هل انتهيتِ؟

– انتهيت من ماذا؟

– يمكنك العيش بشقتي حتى عودتي يا فاطمة.

عقبت ساخرة:

– يا لك من رجل كريم!

– لا داعي للسخرية، أنا وأنتِ نعرف أنكِ لن تستطيعي تدبر أمورك الآن.

– وإن استطعت؟

– لقد سمحوا لي بإجراء مكالمة واحدة قبل بداية رحلة العلاج، وهأنا أحدثك.. يمكنك العيش في الشقة حتى تدبر أمورك..

ومن ثم أغلق الخط.

***

أعطى ياسين هاتفه لمرافقه وتنهد، ابتسم مرافقه وكان رجل أربعيني تكتسي ملامحه سمات القبول والسكينة وبادر حديثه بنبرة تقريرية بعض الشيء أثناء مرورهم من ردهة مفعمة بنور النهار.

– قبل كل شيء أود أن أبلغك أن الدكتور إسماعيل محفوظ مدير المركز

سيشرف على حالتك بشكل شخصي، هذا باللإضافة لمتابعة دكتور أحمد مكرم بالطبع.

ابتسم ياسين ساخرًا:

– يبدو أنكم تتخذون الأمر بجدية.

– بالطبع يا أ. ياسين.. هذا واجبنا نحوكم.

– نحونا؟.. حسنًا، هل يمكنني شرب القليل من الماء؟

– بالطبع، عندما نصل لصالة الاجتماعات ستجد كل شيء.

واستمرا في السير حتى وصلا لنهاية الردهة، فوجد ياسين نفسه أمام بهو آخر دائري تنتصفه مجموعة من الفتيات بين السابعة عشر والثلاثين عام ويبدو أنهن يتشاركن ذات المأساة التي تجعل من وجوههم أحجار جامدة، فهمس ياسين في أذن رفيقه:

– من هؤلاء؟

أجابه الرجل بنبرة تقريرية تخلو من المشاعر:

– هؤلاء فتيات تعرضن لاعتداءات جنسية في عمر صغير.

لم يعلق وفضل الصمت، واقترب من مقاعد فاخرة مواجهة كانت في صدارة البهو ومن أمامها طاولة خشبية صغيرة. وجد ياسين زجاجة مياه على سطحها فهرع نحوها سريعًا وتجرعها كاملة في ثوان، ومن ثم بدأ في تأمل البهو المقابل واللوحات الفنية التي تزين جنباته وبدأ يعقب في قرارة نفسه «هل أستحق كل هذا الاهتمام؟» فقاطعه الرفيق بصوت حماسي مرحب

مشيرًا نحو بوابة من خشب الزان:

– من هنا يا أ. ياسين.

دخل ياسين إلى صالة الاجتماعات فوجد دائرة من ثمانية مقاعد فارغة؛ فأشار له الرفيق بالجلوس على مقعد يحمل اسمه. سحب الكرسي وجلس فشعر بقلق كاد أن يحطم قلبه فوجد زجاجة مياه على طاولة صغيرة تنتصف الدائرة وبجانبها بضع قطع الشيكولاتة والحلوى، التقطها وتجرعها كاملة فتساقطت بعض القطرات على قميصه الأورجواني. وما إن فرغ منها حتى شعر بيد تربت على كتفه من الخلف؛ فانتفض رعبًا وما إن التفت للوراء حتى وجده؛ فتحي، الرجل البخيل والذي بدوره انفجر ضاحكًا:

– ما هذا يا رجل؟ لقد أخبرتني أنك جبان ولكن ليس لهذه الدرجة.

شعر بالخجل في قرارة نفسه ولم يحرك ساكنًا؛ فسحب فتحي مقعده وهو يشير لياسين بالجلوس:

– اجلس يا رجل، اجلس، لم يحدث شيء.

جلس ياسين وبادر بصوت يعتريه الضيق:

– أنت معنا؟

– نعم، نعم معكم، البخل دمر حياتي يا صديقي.

– أها، أهلًا بك.

وراح ياسين يتأمل الأسماء المدونة على بقية مقاعد الطاولة.

«إبراهيم عزام، أحمد سعيد، كريم شوقي، رقية نبيل، سارة يوسف، د.

أحمد مكرم»

وما هي إلا ثوان حتى وجد المقاعد قد امتلأت بأصحابها فراحت العيون تتناوب النظر لبعضها البعض، نظرات فاحصة وأخرى ماحصة وأخرى محملة بالأسئلة يفضحها الاستفهام، من اعتاد الوحدة ظن في الجمع غدرًا قادم ومن اعتاد نصب المكائد ظنها ساعة الانتقام ومن جلس في سكونه لا يبالي ولا ينوي أن يبالي. مرت الدقائق وتأخر الوقت ولم يأتي الدكتور أحمد مكرم بعد؛ فبدأ الملل يصيب الأجواء فنهض فتحي وتوجه للطاولة الصغيرة في المنتصف وراح يشرع في تناول قطع الحلوى في نهم فرماه إبراهيم عزام بوابل من نظرات الامتعاض. كان إبراهيم عزام رجل أربعيني ذو ملامح حادة، شاربه العريض يكاد يقتلع الجلد من أحشائه، شعر مصفف للخلف بعناية وحاجبان ثقيلان كالخطايا في ماضي صاحبها، يرتدي قميص أسود وبنطال رمادي اللون وتزين يده ساعة رولكس لا تناسب خامة ملابسه، يضع قدمًا فوق قدم ولا يحرك ساكنًا، يتمتم بشتائم غير مسموعة ولكن عند لحظة بعينها قرر الشتم بصوت أكثر وضوحًا:

- يا أولاد العاهرة.

وضعت صاحبة المقعد الذي يحمل اسم رقية يدها على شفاها من الخجل وكانت فتاة تبدو في ملامحها الرقة، ترتدي بنطالًا من الجينز الفضفاض وقميص أبيض مزركش بخليط من ورود برتقالية وأورجوانية وحمراء يزينه وجه تسكن أراضيه السلام، عيون طيبة أهلها، وشفاه لا ينطق أهلها إلا بخير الكلام، وأنف صغيرة ودقيقة يعمل أهلها في زرع حمرة الخجل على الوجنتين بين مزيج من الروائح الطيبة وأنهار من الشعر الحريري الأسود

تنسدل على الجانبين كستار لعرش ملكي. نظرت أسفلها من الخجل فضحك إبراهيم ضحكة ساخرة؛ فشعر ياسين ببضع من التوتر فنهض لجلب زجاجة مياه أخرى، فنهض إبراهيم وقبض على معصمه بقوة شلت يده، وقال بصوت أجش:

- زجاجتي، عد لمقعدك.

وانتشل إبراهيم الزجاجة الصغيرة وتجرعها كاملة، ومن ثم ألقاها على الطاولة بلا اكتراث؛ فسقطت على الأرض بجانبها.

- معك ولاعة؟

قالها صاحب المقعد المدون عليه «كريم شوقي»، كان شاب في بداية الثلاثينات، صاحب جسم رياضي وملامح لا تراها إلا في بيوت الأثرياء، حتى لحيته الغير مرتبة تبدو أجمل من لحيتك في يوم زفافك، وجه تعرف جيدًا أنك لم ولن تصادفه يومًا في مطعم «على بركة الله» أو يجلس بجانبك في أتوبيس الهيئة هذا إن وجدت أنت مقعد فارغ يومًا ما. كان يرتدي حذاء رياضي ماركة (أديداس) وبنطال من الجينز وشيرت أسود من Lacoste، ورائحة عطرة السوفاج تكاد تغرق الصالة.

التفت إبراهيم ناحيته بوجه متأمل، فأعاد كريم طلبه:

- نعم أنت، هل معك ولاعة؟

انتبه إبراهيم معقبًا:

- بالطبع.

أخرجها من جيبه وكانت ولاعة من الفضة، أعطاها لكريم الذي بدوره أشعل سيجارته وراح ينفث الهواء في سكينة وهدوء، نهضت رقية من مقعدها أثر رائحة الدخان وذهبت نحو بوابة القاعة لتنتظر، بينما تسمر البقية في مقاعدهم بدون ردود فعل ملحوظة، أحمد سعيد هذا جلس كتمثال الكاتب المصري القديم حتى ظنوه مومياء هاربة من المتحف، وسارة تلك الفتاة متواضعة الجمال والتي اجتهدت في وضع مساحيق لم تغير كثيرًا راحت تتأمل في الفراغ، لا تهتم لمن يجلس ولا من جلسوا اهتموا لوجودها.

***

وصل دكتور أحمد مكرم لبوابة القاعة وعادت رقية بصحبته، ومن ثم جلست على مقعدها وعدلت من شعرها قليلًا، وجلس دكتور أحمد بدوره مبادرًا بنبرة حماسية مرحبة:

- صباح الخير.. أعتذر عن التأخير.

رمى نظرة سريعة على الحضور.

- كيف حالكم اليوم؟.. أرى وجوه واجمة ووجوه أخرى نائمة.

لم يضحك أحد؛ فتدارك الأمر سريعًا ودخل في صوب الموضوع:

- قبل كل شيء مرحبًا بكم.. بداية أنا أعرف أن كل شخص منكم خاض رحلة طويلة حتى وصل إلى هنا في النهاية، بعضكم تسبب في قتل نفوس بغير حق أثناء رحلته، وبعضكم تسبب في جرح نفوس أخرى، وبعضكم خسر أحبائه في منتصف رحلته، وبعضكم خسر نفسه ولم يحظى برحلته.

بدأت الوجوه في التوتر عدا وجه ابراهيم عزام وفتحي وأحمد سعيد.

- أثناء رحلتنا سويًا سنعمل على محو كل ذلك الألم قدر المستطاع، أنتم هنا لأنكم حالات ميؤوس منها بعض الشيء، لم ينصفها العلاج النفسي ولا الجلسات، ونأمل في التطور الطبي الذي وصلنا له اليوم أن نزيل عنكم كل شعور سيء وتحل في قلوبكم السكينة.

أطفأ كريم سيجارته، وعدل إبراهيم من ياقة قميصه، وتنهدت سارة تنهيدة كمخاض سيدة على أعتاب الولادة.

- رحلتنا معنا تتضمن جلسات دعم جماعية، وجلسات فردية، وعملية صغيرة نعمل فيها على تفتيت ما يؤرقكم ورفع معدل الهدوء والسلام النفسي، لن نحذف شيء من ماضيكم بالطبع ولكننا سنقنع عقلكم على تقبل ما حدث كتقبل أي خسارة عادية لا يدوم أثرها يومان، وبالطبع سنحاول تهذيب صفاتكم عن طريق تهدئة خلايا العقل حتى تصلوا في النهاية إلى النسخة الأفضل من أنفسكم.

صمت قليلا ثم استطرد:

- هل أنتم مستعدون لذلك؟

خرجت رقية عن صمتها أخيرًا، وتساءلت:

- هل يوجد أثار جانبية لهذا العلاج؟

- سؤال جيد، بالطبع يوجد، إذا لم يتجاوب العقل معنا أو تعرض لجرعة زائدة أثناء العملية ربما يتسبب ذلك في فقدان بعض الذكريات، ولكن هل هو فقدان دائم أو مؤقت؟.. لا أستطيع أن أجزم ذلك.

خرجت كلمة اعتراضية من أحدهم نعرف مصدرها بالطبع، بينما تمتمت

سارة بصوت منخفض «يارب»، بينما ابتسم كريم قليلًا كمن يعلم جيدًا أن في النسيان نعمة.

ثم استطرد حديثه:

- والآن يا أصدقائي حان دوركم، أريد من كل شخص أن يعرفنا بنفسه في دقيقتين أو أقل ولماذا هو هنا بالطبع (ثم أشار نحو ياسين) تفضل يا ياسين.

التفت الجميع نحو ياسين فأصابه الخرس عندما وجد الجميع ينظرون نحوه، وينتظرونه، وعندما شعر أنه لا مفر بدأ في الحديث بنبرة سريعة بعض الشيء كمن يريد التخلص من كلماته والعودة لصمته.

«أنا أدعى ياسين.. خمسة وعشرون عامًا تقريبًا، انفصل أبي وأمي عندما كنت صغيرًا، ومنذ ذلك الحين وأنا أعاني، منذ سبعة أعوام تقريبًا طردتني أمي من المنزل لأنني أذكرها بأبي.. تخاذلت في موقف ما لا أحب أن أتحدث عنه وطلبت مني أن لا أعود لهم مرة أخرى.. خلاصة القول أنا جبان.. مثل أبي».

تمتم الجميع في صوت هادئ «مرحبًا بك» عدا البعض الذين لا يهتمون لفكرة مجموعات الدعم. كان أولهم إبراهيم والذي تحدث بدوره بلهجة متكبرة:

«أنا إبراهيم عزام، ظابط شرطة سابق، تم فصلي عن العمل بدون وجه حق بعد مشاركتي في تعذيب مجموعة غوغاء أولاد متسخة لا قيمة لهم، ابنتي قاطعتني بسبب ذلك ونعتتني بالسادي المتوحش.. لم أهتم لحديثها في السابق ولكني أصبحت أهتم الآن بعدما مرضت بالسرطان، وأنا هنا حتى

أتخلص من ساديتي عسى أن يساعدها ذلك على الشفاء.. أنا أحب ما أنا عليه، ولكنها ابنتي في النهاية».

خرج أحمد سعيد عن صمته:

- أنت «إبراهيم عزام» الشهير؟.. أنت تسببت في قتل ثلاثة شباب صغار في عمر الزهور والآن تحدثنا عن ابنتك المريضة؟ ماذا تفعل بيننا؟

ضحك ساخرًا:

- أنا لم أتسبب في قتلهم.. أنا قتلتهم بالفعل.

نهض أحمد سعيد من مقعده وفي نيته افتعال شجار حتى الموت:

- يا ابن العاهرة.

أخرج إبراهيم السلاح من جيبه الخلفي؛ فصرخت الفتيات وهرول دكتور أحمد ناحيته، بينما صوب إبراهيم سلاحه نحو أحمد سعيد بلهجة آمرة:

- اجلس.

عاد أحمد سعيد للوراء، وغادر ياسين ورقية وسارة وفتحي القاعة على الفور، بينما ضحك كريم شوقي ساخرًا وهو يراقب الأمر، اعترض دكتور أحمد زاوية إبراهيم وحدثه غاضبًا:

- من أدخل هذا السلاح إلى هنا؟

ثم أخذه عنوة وأعطاه لأحد العاملين الذي أتى على صوت الصراخ، ومن ثم دعا الجميع للعودة لمقاعدهم.

بعد ثوان من الرعب عاد الجميع لمقاعدهم على مضض، بينما تسمر

دكتور أحمد في منتصف الدائرة بجانب الطاولة الخشبية الصغير، ومن ثم أخرج زفيرًا غاضبًا وتحدث بنبرة حادة وحازمة:

- أنا لن أقبل أن يحدث هذا الأمر مرة أخرى في جلستي.. نحن هنا من أجل دعم بعضنا البعض، ليس لإطلاق الأحكام، من يريد إطلاق الأحكام وتنفيذها يمكنه الرحيل.

صاح أحمد سعيد:

- بيننا قاتل!!

ابتسم إبراهيم مفتخرًا ومن ثم عاد بظهره للوراء واضعًا قدم فوق قدم؛ فعقب دكتور أحمد في هدوء تام:

- بيننا قاتل.. ومغتصب.. وآخر متهم بالشروع في القتل.

- القتل شيء والاغتصاب والشروع شيء آخر.

ابتسم دكتور أحمد ابتسامة شفقة:

- إذن هتك العرض لا يقارن بالقتل في شيء؟

لم يعقب؛ فاستطرد الدكتور حديثه:

- هذه المجموعة تمثل مجتمعكم، ولا فائدة من الشفاء من علة في الماضي إن كنتم لا تتقبلون حقيقة ما يحدث في الواقع.

عقب كريم شوقي بضيق:

- إذن.. كما فهمت.. فأنا من يمثل المغتصب في هذه الجلسة صحيح؟

التفت الجميع ناحية كريم في ارتباك، وعقبت رقية في صوت خائف يملؤه التعب:

- أنت!!.. هتكت عرض فتاة؟

أطفأ كريم سيجارته، وأجاب بنبرة باردة لا تشبه شعور صاحبها:

- نعم يا أستاذة رقية.. فعلت ذلك.

استمر السكون في القاعة؛ فاستمر كريم في الحديث:

- أنا كريم شوقي.. لمن لا يعرفني أنا نجل رجل الأعمال الشهير شوقي كامل، أمتلك مجموعة من الشركات الصغيرة وشهير في وسط التجارة والأعمال بعلاقاتي النسائية المتعددة، تورطت في اغتصاب فتاة قاصر بسبب شهوتي الغير مبررة على ما يبدو، حقيقة في بداية الأمر لم أهتم لما حدث لها، ولكنني الآن لا أستطيع مسامحة نفسي على ما حدث؛ خاصة عندما علمت أن أهل الفتاة طردوها من المنزل بعد ما حدث وألصقوا بها تهم من المفترض أن يتم إلصاقها بي أنا.

- كم كان عمرها؟

كان السؤال صادرًا من فم إبراهيم.

- ١٧.

- في عمر ابنتي!

- أها.. أيضًا التقيت مؤخرًا فتاة أحببتها وأحبتني بلا قيد أو شرط، أريد أن أتخلص من شهوتي قبل أن أخونها مع فتاة أخرى؛ لأنني وللأسف.. ما

زلت قادر على فعل ذلك.

حل الصمت على الجميع، فأشار دكتور أحمد لفتحي بالكلام؛ فتحدث بنبرة عادية تخلو من الحماسة، أو المشاعر، أو حتى الندم:

- أنا فتحي عبد السميع، محاسب مالي، يقولون عني بخيل «جلدة» حتى إذا بحثت عن رقمي في «الترو كولر» ستجد اسمي «فتحي جلدة»، على كل حال أنا رجل حريص على مالي ولست بخيلًا مثلما يقولون...

قاطعه دكتور أحمد:

- لماذا أنت معنا يا فتحي؟

- امم، زوجتي وأبنائي قاطعوني بعد رفضي المشاركة في جهاز ابنتي، وانفصلت عنهم منذ أشهر قليلة عندما فاض بهم الكيل، قالوا أنني بخيل الجيب والقلب.. دراما رخيصة يا دكتور أحمد ولكن بعد ذلك اكتشفت أنها الحقيقة.. التقيت بسيدة صاحبة محل ملابس وشقة في التجمع وسيارة فارهة، مسحت بكرامتي الأرض عندما حاولت التقرب منها وشبهتني بالبغل، أنا بغل يا دكتور؟

وضع ياسين راحة يده على وجنتيه وبدأ يشعر بالملل.

- المهم يا دكتور أحمد أن ابنتي اتصلت بي منذ أيام قليلة وقالت لي إذا كنت تريد العيش معنا مرة أخرى تخلص من بخلك، وأعطتني اسم المركز ودفعت لي مصاريف العلاج وكل شيء.. دكتور أحمد، هل بقى الكثير على وقت الغداء؟

- نصف ساعة فقط يا صديقي.

– عظيم، أرجو أن تكثروا من اللحم في الغداء، مركز مثل هذا أكيد مطبخه مثل مطابخ الأمراء.

– إن شاء الله يا فتحي.

– موزة وفتة كوارع والكثير والكثير من الشوربة الضاني.

أشار دكتور أحمد لسارة الصامتة بالحديث حتى يقطع سلاسل الضحك التي ملأت جنبات القاعة.

شعرت الفتاة بارتباك مفاجىء وبدأت في مط شفتيها وهي تحاول كتم ما عليها البوح به؛ فبادرت بنبرة صاخبة ومرتبكة:

– هل يمكنني الذهاب للحمام أولًا؟.. لا أشعر أنني بخير.

أشار نحو باب جانبي في إحدى زوايا القاعة؛ فنهضت من مقعدها على الفور، والتفتت نحو رقية لترجوها في خجل:

– هل يمكنك القدوم معي؟

– بالطبع .. بالطبع.

رحلت الفتاتان فبقى الرجال في مجالسهم ينتظرون.

( ٩ )

أكتوبر ٢٠٠٧.

في إحدى صباحات القاهرة خرج ياسين هذا الطفل الصغير حاملًا حقيبته فوق ظهره ووحدته داخل قلبه، يقطع الطريق وحيدًا نحو مدرسته الإعدادية المتواضعة، لا يعيقه الزحام ولا تزعجه البرودة، وكل ما يشغله شيء واحد؛ أن لا يتعرض للضرب اليوم.. لا من معلم يراقص عصاه على مسارح تلاميذه، ولا من تلميذ يؤمن أنه لا يوجد لذة أشد من صفع ياسين على وجهه، هذا الفتى الهادىء «الغلبان» الذي لن يجرؤ أبدًا على رفع يده لحماية نفسه أو حتى الضيق والاعتراض، ربما سيتخذ البكاء رفيقًا ويهدأ في النهاية.

رأس منتكس يسير صاحبه بوضع الذليل ناظرًا للأرض ولا يرفعها، يعرف طريقه ولا يراه، ظهر غير مستوي بدون إعاقة ولكنها عادة صاحبه، وجه عابس كحمار يجر عربة محملة بأناس يبغضهم ينتظر فرصته في الخلاص منهم وذكريات كبضاعة ثقيلة وفاسدة، وشكواه وألمه ودموعه ما هي إلا نهيق يستعيذ الناس عند سماعه! عقله الصغير لم يهتدي بعد أين يقع خلاصه، ويرجو في كل يوم إن لم يجد إجابة لأين هو فإن تأتيه إجابة متى!

ما جعل هذا اليوم مميزًا وخالدًا «أبلة حنان»، الإجابة المنتظرة، من يسمع الاسم للوهلة الأولى سيظنها المربية أو عاملة النظافة، أي منصب متواضع

تسبقه كلمة «أبلة»، ولكن في زمن ياسين القديم كانت الأبلة هي «المس» هي الأستاذة هي كل شيء يستحق الاحترام. كانت «أبلة حنان» شابة عشرينية لا يتعدى عمرها الأربع وعشرون عامًا، وجه نضر يحمل دفئ وسلام على كل من يؤانسه، عيون واسعة بنظرات حادة كأجرام في السماء لا تفارق عيون العباد أينما ذهبوا، صوت عذب أثره على المستمع كأثر الحرية في قلب سجين لم يغادر الظلام لخمسين عامًا!

جلس ياسين في الفصل بمفرده في وقت الراحة بين الحصص يتناول شطائره في هدوء، لم يكن لديه شغف الركض في الفناء مثل زملائه، ولم تكن لديه حتى هواية يجد فيها روحه وغايته، كان مجرد طفل هادئ يستمتع بوقته الخاص. دخلت أبلة حنان في نهاية وقت الراحة قبل الحصة الرابعة فوجدته يجلس وحيدًا، اندهشت قليلًا من الأمر؛ فاقتربت منه وهي تحييه بصوتها الدافيء:

- كيف حالك؟

ارتبك وترك شطيرته على الفور، فابتسمت بدورها واقتربت خطوة أخرى:

- لماذا تجلس وحيدًا؟

أجابها بصوته الخجول الخافت:

- ليس لدي أصدقاء.

- امم، وأنا أيضًا ليس لدي أصدقاء.. ما رأيك أن نصبح أصدقاء؟

احمرت وجنتيه من الخجل، فأخرجت شيكولاتة من حقيبتها وأعطتها

له:

– إذا قدمت لك الشيكولاتة ماذا ستقدم لي؟

– لا أعرف.

ضحكت:

– زهرة يا.. صحيح ما اسمك؟

– أنا ياسين.

مبتسمة بحب :

– أوه، اسم جميل! تشرفنا يا ياسين.. وانا حنان، معلمة الرسم.

سألها في فضول:

– لماذا ليس لديك أصدقاء؟

بصوت حانٍ وأكثر دفئًا:

– ما هو السبب في رأيك يا أستاذ ياسين؟

– لا أدري؛ لم أصادف أحدًا وحيدًا غيري من قبل.

ضحكت وجلست على المقعد المقابل له:

– لست وحدك من يشعر بالوحدة، ولكنك ما زلت صغيرًا حتى تشعر بذلك، هل هناك شيء يضايقك؟

نظر في الأرض للحظات محاولًا كتم دموع آتية في الطريق.

- لا تبكِ يا صغيري، أنا بجانبك.

نهضت من مقعدها وبدأت تربت على رأسه بانتظام، ومن ثم أخرجت ورقة ودونت عليها رقم هاتف، ومن ثم وضعتها قبالته:

- انظر، هذا رقم هاتفي.. يمكنك أن تهاتفني بعد نهاية المدرسة، اتفقنا؟

التقط الورقة، وقال بصوت تكسوه بعض الحشرجة المحملة بندى الدموع:

- حسنًا.

عقبت مبتسمة :

- لا عليك.. حدثني متى استطعت.

عقب مبتسمًا:

- شكرًا يا أبلة حنان.

- لا.. نحن أصدقاء.. يمكنك أن تدعوني حنان بلا ألقاب ولكن ليس أمام زملائك.. اتفقنا؟

- (مبتسمًا بعد كبوة) اتفقنا .

ومن ثم صافحت يده الصغيرة بحميمية وربتت فوق رأسه، وعادت لمقدمة الفصل عندما بدأ التلاميذ في الوفود؛ فظل يراقبها بعينيه أينما ذهبت وأينما حلت، وظلت تبادله الابتسامات كلما التقت عيناها بعينيه، وأصبحت سره الصغير.

***

انطفأت النوستالجيا للحظات عند عودة رقية وسارة، فبادر د. أحمد بالسؤال:

- هل أنتِ بخير يا سارة؟

بصوت مسالم:

- نعم.

- إن كنت في حاجة لتأجيل السؤال قليلًا لا مانع في ذلك.

- يوم القيامة لن يأتينا السؤال عند الطلب.

- حسنًا يا سارة.. تفضلي.

مرت بعينيها على وجوه الجميع تتأملهم في سكون، ومن ثم عادت للحديث:

- أنا سارة.. من النوع الذي أهمل نفسه وأهله ودينه من أجل ترقية في العمل، نافقت كل من أعلى مني مكانة واستغللت كل فرصة يمكن أن تضعني في مكان آخر، حرفيًا كل فرصة. لن أتطرق إلى التفاصيل ولكن كانت هناك فتاة تعترض طريقي ولم أستطع التغلب عليها في كل محاولاتي، كانت ذكية وما يحتاج مني ساعتين عمل كانت تفعله في عشر دقائق، استحوذت على حب الجميع ولم أكن مرئية يومًا بجانبها على الرغم من كل ما فعلته في نفسي لجذب انتباه الجميع، كنت أسمع كلمات الإعجاب ومن ثم تستحوذ هي على الحب والتقدير، حتى قررت التقرب من مديري لإنهاء المشكلة وأقمت علاقة معه، احتللت عقله، حتى جاء اليوم وأنهى عقدها.

ظن الجميع أنها النهاية فقبل أن يتفوهوا للنطق بكلمات الدعم قاطعتهم سارة وأكملت:

- هذه الفتاة انتحرت بسببي.. كان هذا العمل هو كل رزقها ورزق أهلها في الدنيا، لم يمر أسبوع حتى سمعت بالخبر، ألقت بنفسها من الطابق الرابع وسقطت جثة هامدة.. بسببي.

حل السكون على المكان، رقية تجمدت في مقعدها ولم تسقط من عينيها دمعة واحدة، فقط جحظت عيناها من الصدمة ولم تستطع التفوه بشيء، بينما اختلفت لغة أجساد البقية؛ إبراهيم لا يكترث، فتحي يشعر بالارتباك، ياسين يتنفس بصعوبة، كريم يكترث ولكن لم يرتقي الموت للفت انتباهه؛ ألعابها هي من لفتت انتباهه، أحمد سعيد قطب جبينه تعجبًا من رد فعل الفتاة المنتحرة المبالغ فيه.. من وجهة نظره.

راح ياسين يرمي رقية بنظرات اهتمام بين الحين والآخر انتظارًا لقصتها، كلما أربكته قصة أحدهم ينظر إليها لمراقبة رد فعلها وكل ما وجدها خائفة شعر بأنه يريد الانقضاض عليها لعناقها، على الرغم من أنه لا يعرفها ولم يلتقيها من قبل ولكن ياسين كان من النوع الذي يستطيع قراءة الناس من وجوههم، الوجه هو المعيار والمقياس، ليست الكلمة وليس المظهر أو الجسد، فقط الوجه. شعر أن وجهها يحمل الدفئ والسلام، حتى وإن كانت الشمس قاسية والعرق يجري فوق العروق فقد كان يشعر معها أن الشمس قد تحولت لمعطف كبير وأن سيول العرق هي من فعل المطر البارد، كل هذا وهو لا يعرف من هي رقية.

التفت د. أحمد ناحية أحمد سعيد وهو يشير نحوه لبدء الحديث:

- تفضل يا أحمد.

عقب بصوت مستنكر:

- لن أقدم نفسي لأحد.

كان أحمد سعيد شاب في منتصف الثلاثينيات، يتميز بوجه خمري عريض غاضب حتى في أسعد لحظاته، أنف مفلطح يكفي لتهريب الممنوعات بداخله، يرتدي بنطال أزرق داكن من خامة الجبردين وقميص رمادي، عندما تنظر له تشعر وكأنه مصارع معتزل أو بلطجي قديم قد أعلن عن توبته.

اقترب منه د. أحمد خطوتين وهو يتساءل في اهتمام:

- لماذا؟

- لم أترك حياتي من أجل هذا الجمع الأبله، ولا يعنيني تعاطفكم.

- وما الذي يعنيك بالضبط؟

- يعنيني أن أخرج من هنا معافى حتى أعود لعملي، فقط. لا أهتم لمن قتل، ولا لمن اغتصب، ولا للجبان والبخيل، جميعها قصص ومبررات مائعة لا تعنيني في شيء، وسعيكم نحو النسيان لن يغير من حقيقة الأمر شيء؛ أنكم حفنة من الحمقى.

ابتسم إبراهيم ساخرًا، ووضع كريم شوقي قدمًا فوق قدم، بينما نهض ياسين من مقعده واتجه نحو أحمد سعيد بوجه واجم لأول مرّة منذ أعوام

طويلة، وبادر بصوت يملؤه الغضب والغيظ:

- أنت مجرد حقير آخر لا يعنيه إلا نفسه، أمثالك هم من حطموني بلسانهم السفيه في كل يوم، إن كنت أتمنى الخلاص من الجبن؛ فأنا أتمنى الموت لك ولكل من على شاكلتك أولًا.

ضحك أحمد سعيد ودفعه للخلف برفق مرددًا بذات السخرية :

- عد لمقعدك يا حمادة.

أخذ ياسين يلتقط أنفاسه بصعوبة ووجد نفسه يحمل الطاولة الصغيرة ويلقيها عليه لترتطم برأسه فيسقط أحمد سعيد على الأرض لتبدأ خيوط من الدماء تحتل جبينه، نهض الرجال من مقاعدهم على الفور ليمسكوا بياسين قبل أن تتحول الصالة لساحة حرب فتملص على الفور من بين يديهم وراح يضرب أحمد سعيد بالقدم في رأسه بينما راح الآخر يصد الضرب بيديه غير قادر على النهوض. جذبوا ياسين مرة أخرى وراح د. أحمد يصده صارخًا:

- اهدأ.. اهدأ يا ياسيييين.

بينما راح كريم يجذبه للخلف، وهو يتمتم بقرب أذنه:

- اهدأ يا صديقي، لا تشغل رأسك بحديث نكرة.

نهضت رقية بدورها واتجهت نحو ياسين، وسألته بصوت رقيق:

- هل أنت بخير؟

فعقب إبراهيم ساخرًا؛

- بخير يا قطة.. بخير.

التفت له كريم شوقي:

- هل هذا وقت للمزاح؟

انسحب إبراهيم خطوة للوراء وأجاب محاولًا حفظ ماء الوجه:

- كريم بيه، لا أقصد بالطبع.

أجلس كريم ياسين بجانبه محاولًا تهدئته وجلست رقية على الجانب الآخر من ياسين، فتحي لم يحرك ساكنًا من البداية وظل يشاهد في صمت، وسارة كعادتها، حاضر غائب. ساعد د. أحمد أحمد سعيد على النهوض، وحضر ثلاثة أفراد من الأمن على الفور لتدارك الموقف قبل حدوث كارثة، وممرض لعلاج أحمد سعيد الذي ظل وجهه يستشيط غضبًا، دماء ينضب في عروقه ودماء يحتل وجهه، وكل ما فيه يريد الفتك بياسين.. هذا الشاب النكرة.

أخرجوه من الصالة لخياطة رأسه فراح د. أحمد يلتقط أنفاسه وهو يحدث نفسه:

- ماذا فعلت اليوم كي أواجه كل هذا؟

جلس على مقعده وراح يجفف العرق من على جبينه، فالتقط ياسين أنفاسه هو الآخر وقال بنبرة حانية لا تناسب ما فعله منذ دقائق:

- رقية لم تتحدث بعد.

خرج فتحي عن صمته وتسائل في اندهاش:

- ألم تخبرنا أنك جبان؟ أنت حطمت رأس الرجل !

فرماه د. أحمد بنظرة فضول وشارك بدوره هو الآخر في الاندهاش:

– لقد ظللت أتساءل يومًا بعد يوم كيف عشت حتى الآن وأنت لا تحمل في چيناتك أي ذرة حياة، كيف صمدت كل هذا العمر؟ كيف نجوت؟ لقد وجدناك لا تجرؤ على مصارعة حشرة فتأتي الآن وتحطم رأس هذا الوحش؟

أجاب ياسين باقتضاب:

– يذكرني بأبي !

تنهد د. أحمد وأطلق زفيرًا طويلًا محملًا باليأس:

– هل تريدون الاستمرار أم نكتفي بهذا القدر؟

تدخل ياسين ثانيةً:

– رقية لم تتحدث بعد !

***

كفر نعيم، طنطا.

التاسعة مساء .

في شارع ضيق لا يتسع عن أربعة أمتار بين منازل لا يتعدى ارتفاعها أربعة طوابق تصدر صوت الشيخ محمد رفعت أجواء ثاني أيام العزاء، حضور كامل العدد وحزن صادق في وجوه الجميع، انتهى الربع الأخير؛ فراح أحدهم يردد بصوت عال «شكر الله سعيكم، لا أراكم الله مكروه في أحبابكم».

بدأ الناس في الانصراف واحدًا تلو الآخر وكلمات العزاء تنتهي عند فم أحدهم فيعيدها من بعده حتى فرغت كل المقاعد من أهلها. راح بعض الشباب والصبية يحملون المقاعد ويضعونها فوق بعضها البعض في نظام، واحدهم يجمع الأكواب الفارغة من الأرض، فتركهم شاب عشريني نحيف وجهه لا يحمل علامات الخير، اقترب من زوجة الراحل التي ارتدت عباءة سوداء وخمار أسود حدادًا على زوجها:

– خالتي، ماذا سنفعل معها؟ الناس ستأكل وجهنا.

– فاطمة؟.. أين أخيك الآن؟

– يراقبها منذ اليوم الأول.

– جيد.. في أي يوم نحن؟

– السبت.

– إذا لم تعود قبل السبت القادم فأنتم تعرفون البقية.

– أسبوع؟.. لماذا يا خالتي؟

– ألا ترى؟ أباها قد مات، لديها أسبوع بحاله للحداد وللتوبة عن ما فعلت، إن لم تعد عند ٦ يوليو أنتم تعرفون البقية.

– تعيش بمفردها الآن في شقة هذا الشاب.

بحزم:

– الصبر يا غبي، أهل العريس لا يعرفون ما حدث بعد وما زالت لدينا فرصة.

- وأن لم تعد؟

- احرقوها.

- نحرقها، ونار الدنيا أهون من جهنم.

- احرقوها فلا يجدون شيء للصلاة عليه، وكأنها لم تكن.

- سيحدث يا خالتي، أسبوع واحد وسنرسل تلك العاهرة للجحيم.

انطفأت أضواء العزاء فتحولت أجسادهم لكتلة من الظلام.

## (١٠)

الأحد

١ يوليو،٢٠١٨

«الله أكبر، الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله.. ..» بصوت تقشعر له الأبدان أن اتعظت! خرج أذان الظهر من مسجد الفتح برمسيس ليسكت ثورة أبواق الحافلات والسيارات وهؤلاء الصبية الذين يصرخون وكأنهم يقودون حرب لاسترجاع أرض نجهلها «عباس أول مكرم الشروق النادي الأهلي» فيرد جيش العدو بضراوة «سكة سادس تامن تبة عاشر» فتنتهي الحرب بالقاضية ومن ثم يسقط الجيشان عند أول كمين، عوادم سيارات تغطي أقدام المارة وكأنهم يسيرون فوق السحاب ولكنها سحابة من الوسخ، مسافرين بملابس قديمة وبالية يحملون حقائب فوق رؤوسهم، وآخرون يركضون تحت شمس صبت العرق في وجوههم وهناك فاطمة؛ التي راحت تقطع الزحام على قدميها متجهة إلى محطة القطارات، تخبئ دموعها تحت نظارة واقية للشمس حاملة على ظهرها حقيبتها المتواضعة التي تحمل في جعبتها أقل من ما يحمل عقلها، عقل غير متزن قرر الذهاب في رحلة مدتها ساعتان إلي نقطة الصفر وفي القلب شوق كبير للمهانة والعبث، ظلت تسير بخطوات مسرعة فتتلاشى الصدام بسيارة وتتجاهل شخص ما يناديها للتبرع بالدم وطفلة صغيرة تسابقها من أجل أن تعطيها شيء لعلاج أخيها الذي وقع من الدور العاشر على مؤخرته فانقسمت نصفين، خطوات متسارعة

ولسان الحال يردد «أثر الفراشة لا يزول، أثر الفراشة لا يزول» مات الأب والسند ولم ينصفنا الحب؛ فماذا نفعل هنا؟ ماذا نفعل عندك يا قاهرة؟

دلفت فاطمة إلى ساحة المحطة، خيوط من المسافرين تتقاطع هنا وهناك ومن يركض للحاق بقطار ما، ومن يتأمل جنبات الساحة كسائح أوروبي، وفتيات في عمر العشرين تتسابقن من أجل «سيلفي» تحت مسلة المحطة المعلقة، راحت تمر فاطمة بين المسافرين في هدوء يائس، تشاهد الحياة التي لم تعشها يومًا وتدرك بداخلها أنها المرة الأخيرة التي ستشاهد فيها شيء تتمناه.

خرج صوت المذيع الداخلي ليغطي ساحة المحطة «يغادر على رصيف ٢ قطار ٩١٣ المتجه إلى الاسكندرية، اكسبريس درجة أولى تانية مكيفة.. يمر بينها طنطا دمنهور سيدي جابر الاسكندرية».. أسرعت فاطمة في خطواتها ووصلت للقطار وقبل أن تضع قدمها بالداخل راحت تنظر إلى اللا شيء، ومن ثم أخرجت زفيرًا مؤلم، ومن ثم دخلت وجلست على مقعد ملاصق للنافذة في منتصف إحدى عربات القطار الأخيرة وهي تتمتم بصوت خافت «يا رب.. يا رب».

***

أحدهم يطرق على باب الغرفة ليقاطع سيمفونية العصافير الصباحية، ثلاثة طرقات بإيقاع متوسط الصوت؛ فخرج ياسين من أبواب الحلم الخلفية لينهض من نومه ببطء شديد، وبصوت يزاحمه التثاؤب:

- أنا قادم.. أنا قادم.

ذهب نحو الباب بخطوات ثقيلة كمن أضاع خمسة أعوام في الأحلام،

وفتح الباب وعيناه ما زالت تصارع النومٍ وتهرب من النور؛ فوجد أحد الممرضين بالمركز يقابله بابتسامة طيبة حاملاً في يده صينية صغيرة بها عصير برتقال طبيعي وجبن أبيض طازج وبسطرمة برائحة طيبة وفول ساخن مع بعض المخللات، وبادر بالتحية وعلى شفاه ذات الابتسامة:

- صباح الخير يا أستاذ ياسين كيف حالك؟.. لقد لاحظنا عدم وجودك معنا في الفطور اليوم فأردنا أن نمر عليك ونقدم لك فطورك.

راح يحك رأسه وهو يحاول الاستفاقة، فعقب بصوت يغالبه النوم:

- كم الساعة الآن؟

- الثانية عشر والنصف.. نرجو أن لا نكون قد أزعجناك.

- لا أبدًا.. لم أتوقع فقط أن هناك وقت للفطور، الحقيقة لم أتوقع أن تلاحظوا غيابي.

بنبرة مفعمة بالحب والمودة:

- أستاذ ياسين هذا واجب علينا، ونتمنى لكم جميعًا إقامة طيبة والسلامة بالطبع، وأن تعودوا لممارسة حياتكم بأفضل حالة ممكنة.

عقب ضاحكًا:

- يا رجل ما كل هذا اللطف؟!

ضحك الممرض وقال وهو يهم بالرحيل:

- نتمنى لك يومًا طيبًا يا أ. ياسين .

أخذ ياسين فطوره وأعطى ظهره للباب ووضع الفطور على طاولة ملاصقة للسرير، ومن ثم اتجه نحو نافذة كبيرة مستطيلة الشكل ليرفع عنها الستائر فتكشف عن جنة من حدائق خضراء وسرب من العصافير يغني هنا وهناك على الامتداد البعيد ونسمة باردة وطيبة تتسلل على جسده النحيف، كانت الغرفة بسيطة الأثاث؛ سرير وطاولة وكوميدونو و خزانة ملابس صغيرة ومكيف وبعض التابلوهات الصغيرة تزين حوائطها البيضاء وأرضها من الباركيه بعدما عاش ياسين العمر فوق سيراميك الفرز التالت، فرد ذراعيه مبتسماً ومن ثم التفت للوراء ليتناول فطوره تحت ضوء الشمس الساطع فوجده أمامه.. أحمد سعيد، وجه واجم ورأس مغطاةً بلفافة طبية بيضاء؛ فعاد ياسين إلى الخلف بخطوات متلكأة، وقال بنبرة متلعثمة:

- ماذا تريد؟!

أغلق أحمد سعيد الباب من خلفه، وتقدم خطوتين بنظرات متوعدة ولا يفصله عن ياسين إلا الفراش، فأعاد ياسين السؤال مرتبكًا:

- ماذا تريد مني؟

استمر في التقدم؛ فعاد ياسين للوراء فوجد نفسه ملاصقًا للنافذة؛ فراح يتحرك بظهره نحو أحد زوايا الغرفة، فأسرع أحمد سعيد في خطواته، فتعثر ياسين في خطواته وسقط على الأرض، انتشله من الأرض ومن ثم كور قبضة يده ولكمه في وجنته اليسرى فارتطم ياسين بالحائط، باغته سعيد بضربة أخرى، ومن ثم ركله بقوة في معدته؛ فصرخ ياسين من الألم، فصفعه سعيد بكل ما أوتي من قوة؛ فارتطم رأسه بزاوية الغرفة وسقط من جديد.

- كفى!!!

راح يبكي كالطفل مترجيًا!

- أرجوك.. كفى!

راح يركله ركلة تلو الأخرى، واحدة في معدته، وأخرى في فخذه، بقبضة يده يُرطم رأسه بالحائط ويعقبها بركلة أخرى في أسفل ظهره، توقف لثانيتين ليلتقط أنفاسه وصوت زفيره كزفير ديناصور حارق، أخذ أنفاسه ومن ثم ركله بقوة أكبر في ذات المكان؛ فصرخ ياسين من الألم؛ فوصل صدى صراخه إلى الخارج، ليتفاجأ أحمد سعيد بطرقات عنيفة علي باب الغرفة ومحاولات لكسر الباب. انسحب للخلف وراحت عيناه تراقب الباب في امتعاض قاتل ووجهه ما زال يحمل من الكراهية جبال؛ فاتجه نحو صينية الفطور وحملها بعنف ومن ثم ألقاها بما فيها على رأس ياسين؛ فتهشمت كل الأطباق بما فيها وتحطم كوب العصير على رأسه، فاختلط الدماء ببقايا الطعام الساخن وتلوثت الأرض بالزجاج وحطام الاطباق.

فتح أحمد سعيد الباب، فوجد سرب من الناس مقابله؛ فدفعهم بحركة واحدة وخرج من بينهم قبل أن ينقض عليه ثلاثة ممرضين ويعطونه حقنة مهدئة وما هي إلا لحظات حتى خارت قواه وسقط على الأرض، بينما انشغل ياسين الساقط الآخر في التكوم حول نفسه والبكاء كالأطفال ليصبح الشخص الأكثر إثارة للشفقة والضحك في صباح الأحد.

***

الواحدة والنصف ظهرًا وفاطمة تشعر بالسقيع يسري في جسدها وجليد يكاد يخرج من المسام إلا رأسها؛ دماء يغلي يكاد يحرق عينيها من الداخل، يكاد يزيح أمواج الشعر ويحولها لرأس جرداء، تكاد الأفكار تنخر في وجهها

من الداخل فينفجر وينتهي كل شيء.

أحدهم يجلس أمامها، شاب عشريني صغير يرتدي أفرول التجنيد ويحدث أحدهم بحماس:

- نعم يا أمي دقائق ونصل طنطا، أخبري أبي أننا سنذهب اليوم في السابعة.. نعم نعم اتفقنا على كل شي.

وضعت يدها علي فمها وشعرت أن هناك انهيار قادم في الطريق؛ فارتدت نظارتها سريعًا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، راحت تنظر من النافذة وتتأمل محال ومبان بعينها وكأنها تعلم كم بقى على الوصول؛ فزادت موجة البرد القارس وراح الدخان يخرج من حجابها ورعشة تتخلل أصابعها بينما تحمل هاتفها.

هدأت حركة القطار وبدأ المسافرين في جلب حقائبهم من الأعلى والتوجه لبوابات الخروج وفاطمة لم تتسمر من مقعدها. تسارعت أنفاسها فأخذت نفسًا عميقًا فانسحب صدرها إلى الداخل، ومن ثم أطلقت زفيرًا أخيرًا طردت معه كل الهلع. نهضت وبحركات بطيئة توجهت إلى الباب القريب وما هي إلّا لحظات حتى دخل القطار رصيف محطة طنطا، أو كما أسمتها «المحطة صفر». توقف القطار وغادر المسافرين القطار فوجدت الشاب يهبط إلى الرصيف ويحتضن أمه ومجموعة من الأصدقاء، فظلت في موضعها على باب العربة تشاهدهم، بينما يهبط الآخرون من مساحة صغيرة بجانبها فنكذتها سيدة مسنة من الخلف «هيا تحركي». هبطت فاطمة وعيناها لا تغادر هذا العناق، وعندما غادرت عيناها المشهد أيقنت أنها في أرض الوطن الذي هربت منه ركضًا منذ أيام قليلة فجلست على أريكة مقابلة لقضيب القطار لتستريح وتلملم شتات نفسها، بينما استمر الناس في السفر

واستمرت القطارات في مجاراة القدر، أخذت تتفكر فيما ستقوله وتفعله بعدما فشلت مخططاتها ومات أبيها قبل الخطوة الثانية وأصبحت بمفردها في النهاية، أخذت تضرب بقدمها في الأرض وهي تردد غاضبة «لماذا فعلتي ذلك يا ساقطة؟» وكلما مر قطار من أمامها وتغير لون السماء قليلًا ارتبكت ولا تعرف بأي وجه ستواجه أمها، بأي وجه ستقابل أهل القرية، ثلاثة أيام من التمرد سيكلفانها ثلاثة عقود من التبرير وستظل طيلة عمرها حديث نساء القرية في جلسات المصاطب «بنت الشيخ حسني التي ذهبت لمصر»، ستظل مثل سيء تنقل قصته الأجيال وسيتعرض أبنائها للتنمر فيما بعد.

نظرت إلى الساعة فوجدتها الثالثة عصرًا؛ فحملت حقيبتها وتحركت نحو بوابات الخروج على مضض لتجد نفسها خارج المحطة تقف بمفردها في منتصف ميدان عريق ومن خلفها بناء المحطة كبير وقديم، نظرت إلى ساعة علوية تنتصف البناء في الأعلى راحت تتساءل في قرارة نفسها «هل تأخرت على شيء لا أعرفه؟» لَمِ العجلة بينما أنا العائدة للخلف؟! راحت تحرك أصابعها بعنف لتطرد الارتباك وحاولت تثبيت قدميها في الأرض مجاهدة السقوط، إنها العودة التي تحمل الموت بين طياتها ورغم ذلك عادت، بيت نعرفه حتى وإن ساء فيه مصيرنا خير من مجهول يحمل الخير مرة والعبث ألف مرة.

طلبت سيارة (أوبر) للمرة الأولى في عمرها الصغير، أرادت أن تختبر التجربة بعيدًا عن عربات الأجرة، بعيدًا عن حياة الكادحين ولو لدقائق قليلة، استقلت السيارة وانطلقت في رحلة قصيرة مقدر لها أن تكون عشرون دقيقة حتى البيت. غفت قليلًا بجانب نافذة المقعد الخلفي، أو ربما تتحاشى

النظر للطريق التي عرفته منذ طفولتها، طريق شاركها فيه الأب مرات ومرات والأمل في مرات أكثر. رن الهاتف فجأة والاسم ياسين، ياسين؟.. أجابت على الفور فبادرها بصوت مريض باكٍ «أين أنت؟.. أريد أن أراك؟» فأجابت في قلق صاخب «ما بك ؟.. أنا هنا.. أنا قادمة».

التفتت للسائق على الفور وهي تردد بهلع:

- عد بي.. عد بي إلى المحطة بسرعة من فضلك.

( ١١ )

يناير ٢٠٠٨

ياسين الصغير، رن جرس انتهاء الفسحة فهرع الطلبة إلى فصولهم عدا هذا المراهق؛ ظل جالسًا على الأرض مستندًا على حائط جيري متآكل، يبكي بحرقة زوجة فقدت زوجها بعد زيجة خمسون عام من الحب، بكاء يبدو كثيرًا على مراهق في هذا العمر. يجلس وحيدًا في زاوية غير مرئية لكن حتى وإن اختبأ تحت الأرض كانت هناك من تراه، من تشعر به، من تجعل لمراهقته رحيقها، أبلة حنان، معلمة الرسم. لا يعرف كيف رأته ولكنه شعر بقدومها من رائحة عطرها الخشبي الهادئ، التفت يمينًا فتفاجأ بها تجذبه إلى صدرها فامتلأت أنفاسه برائحة الباتشولي والعنبر والمسك؛ فهدأت ثورة دموعه قليلًا وخمدت مخاوفه وعاد الحزن لثكناته، وعند إعلان الهدنة سألته بصوتها الأكثر دفئًا من حرارة ديسمبر، وكان سؤالها القصير هو من أنهى السقيع:

- ما بك؟.. ماذا حدث؟

أجابها بصوت متقطع:

- أمي ما زالت تقول لي أنني أذكرها بأبي.

راحت تداعب راحت يده:

- وهل هذا شيء سيء؟

- نعم.. أبي رجل جبان.. وسيء.. سيء جدًا.

ربتت على شعره :

- هل تعلم؟ لو كان أبي على قيد الحياة لوددت أن تكون شقيقي لنتحدث سويًا كل يوم.

مبتسمًا:

- كنت سأصبح جميلًا مثلك ومثله.

عانقته:

- أنت جميل بالفعل يا ياسين.

سألها بصوت خافت:

- لماذا أبيك ليس على قيد الحياة؟ أليس من المفتروض أن يموت عندما يكون عجوزًا؟

- إنها إرادة الله ، لقد مات أبي عندما كنت صغيرة، ولا أعرف ماذا يقدم الآباء لأبنائهم.

بذات الصوت الهادئ المتقطع:

- الحب.. ولكن أبي لم يحبني أبدًا.

أخذته من يده وهي تردد في حماس لتنهي سلسلة الحنين بقيودها العاتية:

- ما رأيك أن نخرج في نزهة قصيرة؟ لننسى كل هذا الحزن ونستمتع بوقتنا قليلًا.. ما رأيك ان نذهب للملاهي؟

أجابها بحماس أكبر :

– لا.. أنا أريد أن أرى عائلتك، أمك.. بالتأكيد هي أجمل من أمي، بالتأكيد ستحبني مثلما تحبيني .

انسحبت حنان للوراء وولت وجهها للناحية الأخرى لثوان وراحت تمسح شيئًا ما من على وجهها لم يستطع ياسين أن يميزه، ومن ثم عادت له وهي تقول بصوت يحاول أن يتمالك نفسه:

– أنا يتيمة يا ياسين، أمي لحقت بأبي بعد شهور قليلة حزنًا عليه.. كانت تحبه.

لم يفهم الأمر، كيف للمرأ أن يحيا بدون والديه؟ كيف يحيا دون أن يطمئن عليه أحدهم قبل النوم ويعانقه متمنيًا له أحلام هادئة، أو أن يهاديه بالحلوي في أيام النجاح وملابس العيد والعيدية وهدايا أعياد الميلاد؟ من يهدئ من روعه في لحظات خوفه ومن يخفف عليه الحزن ومن يسرق بكاءه ويحوله لرقص من الفرحة؟.. مرت لحظات من الصمت وهو يتساءل بلا إجابة، وعندما تمكنت منه الحيرة شعر أنه يتيم هو الآخر؛ لأنه لم يختبر هذه المشاعر من قبل، فقاطعت صمته بصوت يدفع كلماته بالكاد:

– لا تأسف من أجلي.

طريقتها في الرد أشعرته أن هناك جنازة حارة تمر بجانبهم؛ فتقدم نحوها وأخذ بيدها مبادرًا بذات الصوت الهادئ :

– هيا بنا نذهب إلى الملاهي.

***

لا أحد يعرف لذة أن يستنجد بك من تحب وهو على شفا حفرة من الموت، أن يرتخي جسده، يحتضر، وأنت، أنت فقط، من يستطيع إعادته للحياة، أنت فقط من يريد أن يتشبث به قبل السقوط في الحزن، إنها الفرحة الأكثر حزنًا في الحياة أن يبكي معك من تحب لأنك فقط من تُسري في روحه السلام.

دبت في فاطمة الحياة عندما استنجد بها المستقبل مجهول المعالم، جسدها الهزيل بعد موت العزيز الغالي لا تفهم كيف أصبح ممشوقًا كافٍ لتمزيق سجادة أسبوع الموضة في باريس، عاد صوتها رقيقًا كعصفور يحوم حول حقول الورد في إحدى صباحات مارس، بريق غريب في عينيها محى كل الهالات السوداء من أسفلها، جرفها من موضعها وبدت عيناها كالقمر في ليلة اكتماله. كانت فاطمة في القطار كواحة خضراء في منتصف صحراء قاحلة لا أمل فيها ولا حياة وهي وحدها من يحيطها النخيل وتتوسطها بحيرات الماء العذب وأرضها قطعة من جنات الله في الأرض. لا تفارقها العيون فتبتسم خجلًا وهي تتخيل ياسين، يعانقها، يقبلها، يتغزل بها، يخبرها بكل كلمات الحب، يهمس لها في أذنها «أحبك». القطار يفترس القضبان من أجلها ويستعرض قوته، والشمس بدأت في جمع شعاعها استعدادًا للرحيل ووصل القمر وألقى التحية على الجميع واختص فاطمة بالسلام ومن ثم استقر في السماء، يراقبها في الصمت مبتسمًا ويختبئ خلف السحب عند الخجل، وهي الجميلة لا ترى سواه ولا تنوي أن ترى سواه.

وصل القطار لمحطة رمسيس فخرجت من القطار بلهفة طفلة في السابعة تشتاق لعناق أمها. أخذت المترو نحو المعادي ولا تدري كم من الأعين لاحقتها وكم من نفوس اشتهتها، ولا تدري هل فاطمة أصبحت أسرع من

سرعة الصوت لتجدها في ثوان أمام مركز د. إسماعيل محفوظ أم الحب هو من وضع في قدمها محرك فضائي ليأخذها من كفر نعيم إلى هنا في ساعات قليلة!

***

وصلت فاطمة إلى البناء المخصص للنزلاء فتوقفت عند بوابة الدخول لبرهة ظنًا منها أنها وصلت للبناء الخاطئ. كيف لهذا الجمال أن يكون مركز لعلاج واحتواء عليلي النفس؟.. لسان حالها يردد في اندهاش «ياسين هنا وأنا هناك في شقته الحقيرة؟» ضعوني في سرير المرض مقابل عشاء فاخر ولو لليلة واحدة. ظلت شريدة في وقفتها فأتاها أحد الممرضين:

- هل تحتاجين لمساعدة؟

انتبهت لصوته فانتفضت في خفة:

- نعم.. جئت من أجل ياسين، يمكث هنا.

أخذها في ممر تزين جنباته قصاري من نبات الصبار ورائحة عطرة تغطي المكان لا تعرف مصدرها، وسرب من اللوحات الفنية يحتل حوائطه، لوهلة شعرت أنها أقل من أن تخطو قدمها الأرض ولكن ما المانع؟ ياسين والحب يمكثان هنا في مكان ما. تمنت لو تهرب من مرافقها وتختبئ بداخل أي غرفة وتغلق الباب للأبد، فراحت تقلد نبرة دكتور منى أبو زيد من شخصت حالتها في المركز قبل أيام «خوفك ليس متوارث، خوفك مكتسب» فالتفت لها الممرض فخجلت من نفسها وابتسمت في حرج. طرق إحدى الأبواب الخشبية؛ فسمعت صوت تعرفه جيدًا من الداخل :

- تفضل.

دفع الباب فوجدته جالسًا على فراشه في غرفة فندقية فاخرة، وبرأسه بعض الكدمات، يتأمل صورة ما؛ فسقطت حقيبتها وأطلقت قدماها للريح وهي تصيح في اشتياق وقلق ولهفة:

- ياسيييين!!!

ارتمت عليه واقتحمته وعانقته فاهتز السرير وسقطت الصورة على الأرض من قوة العناق، فانصرف الممرض دون أن يغلق الباب.

- هل أنت بخير يا حبيبي؟ ماذا حدث لك؟ من فعل هذا بك أخبرني؟

أجابها بصوت متعب ولكنه لا يحمل من الاشتياق شيئًا حاول ادعاءه ولكن باءت محاولته بالفشل:

- أنا بخير.

لحظات واستطرد بذات الصوت المتعب:

- لماذا تأخرتِ؟

ارتبكت من السؤال:

- كنت أعمل.

اعتدل في جلسته:

- حصلتِ على عمل؟

- نعم.. معلمة.

قطب جبينه مهتماً:

- جيد.

وضعت راحة يدها على وجنته اليسرى، وقالت بنبرة حانية :

- أخبرني ماذا حدث يا حبيبي؟.. أنا بجانبك.

كان قد تراجع بداخله عن احتياجه لها، التأخر في القدوم أفقد الاحتياج هويته، والحكي أصبح مجرد فعل مائع، وترجمة ما بداخله الآن أصبح أصعب من إعلاء كلمة الحق في بلاد المسلمين.

- لا شيء.. مجرد مشاجرة، ولكنني بخير.. أردت فقط أن أراك.

بذات اللهفة:

- أنا هنا يا حبيبي.

قرر التصرف وملئ الحديث بأي حديث:

- انهم يعاملوننا هنا معاملة المجانين بحق.

قطبت جبينها قلقًا، وراحت تداعب شعره؛ فتعجب من الأمر واستمر:

- بداية من الغد سيعطوننا مهدئات حسب حالة كل شخص لتهذيب عقولنا قبل العملية، لا يريدون أن ندخل غرفة العمليات بعقول غير هادئة تخرب لهم أجهزتهم.

- أنت جميل يا ياسين وستعود للدنيا كما أردت، وستعود لأمك وليسرا وتحضر زفافها ويجتمع شملكم من جديد.

عقب بلا مبالاة:

- إن شاء الله.

مال برأسه نحو الأرض بجانب السرير ليبحث عن الصورة، كان يقف فيها بجانب أبلة حنان بملابس شتوية ومن خلفهم الهرم الأكبر وابتسامة تكتسي شفاهما سويًا.

- هل يمكنك أن تناوليني الصورة؟

التفتت نحوها فلاحظت وجود شابة عشرينية جميلة بجانبه، تساءلت في فضول:

- من تلك؟

أجابها بنبرة سريعة بلا مبالاة:

- معلمتي.

تأملتها ثانيةً ولم تهبط لتلتقطها، وتساءلت ثانيةً:

- لماذا تحتفظ بها؟

- أحب الصورة.

- لم تخبرني بأمر معلمتك تلك من قبل.

- لم تأتي الفرصة.

ابتسمت بيأس وحررت نفسها من عناقه، والتقطتها وناولته الصورة، فتأملها سريعًا ووضعها على سطح كوميدنو صغير على يساره. نهضت

فاطمة واتجهت نحو النافذة الكبيرة وجرت المزلاج نحو اليسار فراح نسيم الهواء يداعب وجنتيها. ابتسمت بأمل ولكنه ما زال أمل يائس، وراحت تراقب الحديقة الخضراء المقابلة للغرفة تحت ضوء القمر وأعمدة الإنارة الصفراء الخافتة التي أعطت للحديقة صورة سينمائية، فبدأت تطرق على سور النافذة قبل أن ينمو على سمعها وقع خطوات أقدام؛ فالتفتت للوراء لتجدها، «رقية»، صاحبة العود الفرنسي والشعر الحريري الطويل والوجه الهادئ الجميل. نظرت لها بارتياب والتفتت لياسين لتراقب حركة وجهه؛ فوجدت في ملامحه نحوها ما لم تحصل عليه من قبل، ووجدت في جمال رقية ما لم تحصل أيضًا عليه، وجدته يرحب بها في لهفة غير معتادة على هذا الياسين الحزين متناسيًا وجودها من خلفه:

- رقية.. كيف حالك؟

رمتها رقية بنظرة سريعة ومن ثم أجابته :

- أنا بخير.. لقد جئت عندما علمت ما حدث معك.

أجابها ضاحكًا بخفة:

- أحمد سعيد.. أبرحني ضربًا وأخذ بثأره، لم أهنأ حتى بالفطور قبل أن يلقيه على رأسي.

بقلق بالغ:

- يا الله! حمدًا لله على سلامتك.. ولكن هل أنت بخير الآن؟

- أنا بخير.. طالما أنت بخير.

وضعت يدها على فمها:

- أوه.. شكرًا لك.

تحركت فاطمة نحو رقية وصافحتها عنوة :

- فاطمة.. وأنت؟.. رقية؟

ارتعدت رقية قليلًا، وعندما التقطت أنفاسها أجابتها بذات النبرة الهادئة:

- نعم.. نزيلة هنا .

نزيلة هنا؟.. شعرت فاطمة بأنها دخيلة على هذا العالم الصغير، نزيل ونزيلة يتحدثان عن نزيل ثالث وهي هنا تشاهد ولا تفقه شيء، وياسين؟ ليس ياسين الذي عرفته طويلًا؛ لم يهتم حتى أن يعرفهما ببعضهما البعض، فحررت يدها وهي تقول بلا اكتراث:

- وأنا صديقة ياسين .. أهلا بك.

استمر ياسين في حديثه وكأنه لم يراها، وكأن النافذة انفتحت من تلقاء نفسها، وكأن العدم هو من صافح رقية وعرفها بنفسه، وكأن العدم هو من قدم له الحب وكل الحب منذ قليل!

- شعرك جميل اليوم يا رقية.. بني ولامع، هل هبطتي من السماء إلى غرفتي أم ماذا؟

قالها ضاحكًا؛ فضحكت رقية بدورها:

- تحتاج للتدرب على المجاملات قليلًا.. ولكن سأمررها.

- أنا رجل رأسي محطمة كما ترين ولكن فمي لا ينطق إلا بالحقيقة

والمنطق.. لنترك المجاملة لمن يحتاجها.

تحركت فاطمة في هدوء نحو الباب فلم يشعر بها.

- ياسين ..

قالتها بصوت قد ترك رغبته في الحياة على بلاط الغرفة. التفت ناحيتها بعد أن تناسى وجودها فرفعت يدها وحيته فرفع يده قليلاً وعيناه في طريقها لرقية مرة أخرى، بينما توجهت لها رقية وصافحتها وهي تردد في حب:

- تشرفت بلقائك.

- أنا من تشرفت يا صديقتي .

- أنتظر فرصة أخرى للقائك قريبًا.

أفلتت يدها وابتسمت بجفاء:

- سيحدث .

***

خرجت فاطمة من الغرفة وعلى وجهها إمارات الخيبة الممزوجة بالغضب، لا تشعر بثقل حقيبتها وانتقل كل الثقل للروح، قطعت الممر بظهر غير منتصب، منتكسة الرأس، وتأبى عيناها البكاء أو حتى الموافقة على خروج بعض الدموع، عادت الهالات السوداء أكثر عتمة والشفاه تشعر وأنها قد بهتت وتشققت، عروق في جبينها انتصبت ووقع قدماها على البلاط يكاد يحول البناء لجبل من التراب والركام، شاء قدرها في هذه اللحظة أن يمر إبراهيم عزام من أمامها. كان يسير بهيبة رئيس جمهورية تجد نفسك تفسح

له الطريق رغمًا عنك، رائحة عطره الفواحة الممزوجة بخليط من الليمون والبرتقال والنعناع تشعرك وكأنك ستعيش وتموت حقيرًا، على الرغم من أن الرجل جُرد من سلاحه ومنصبه ولكنه ما زال يمتلك اسمه وهيبته.

انتبه لقدومها فتوقف في مكانه وتخلى عن هيبته وباع عزة نفسه في سوق العبيد وأخرج عينيه للحاق بمفاتنها فاخترقتها، فقال بنبرة صعلوك سكير ابتلع عشر زجاجات من الفودكا في جولة واحدة وناداها بذات النبرة بعدما تخطته:

- يا مدام.. لقد سقط شيء منك.

التفتت للخلف، فقرص بأسنانه على شفاه السفلى وهو يستطرد بشهوة لا تكفي لجذب شمطاء من شارع جامعة الدول:

- قلبي..

خلعت حقيبتها في هدوء واستسلام ووضعتها على الأرض بجانب نبتة صبار، وابتسمت له وهي تضغط على شفتها السفلى، ومن ثم فكت ثلاثة أزرار من قميصها الأسود بذات الهدوء؛ فظهر من تحته قميص داخلي آخر أسود من قماش رخيص بعض الشيء مغلق حد الرقبة؛ فقال لها بنبرة عداء قد قطع خمسمائة كيلو ركضًا، نبرة لاهثة وشلال من العرق يروي وجهه:

- غرفتي قريبة من هنا.. سنقضي الليلة سويًا.

عقبت بذات الابتسامة الغير مفهومة:

- انتظر.. أنت لم ترى شيء بعد.

وضعت يدها على جرار سروالها من الأعلى، وقبل أن تحركه للأسفل مالت نحو حذائها وهي تردد بخفة:

- لنتخلص من السروال في الغرفة.

بلهفة طفل:

- نعم نعم يا حلوتي.

- ولكن.. أريد التخلص من هذا الحذاء اللعين أولًا.

- افعلي ما تريدين يا فتاتي.

خلعت حذائها الأيمن وتقدمت خطوة ناحيته وهي تغازله بعينيها في الممر لا تكترث إن رآها أحدهم، أحاطت رقبته براحة يدها اليسرى وداعبتها بأناملها فبلع ريقه ارتباكًا، ورفعت الحذاء بيمينها وانهالت على وجهه ضربًا.

صرخ من الألم واختل توازنه وكاد أن يسقط أرضًا؛ فذهبت خلفه صائحةً:

- خذ يا ابن الساقطة.

مرة أخرى في وجهه، بمقدمة الحذاء أسفل فمه، بقاعدة الحذاء في أذنه اليسرى، رقبته، صدره.. استمر في الصراخ بوابل من الشتائم الغير واجب ذكرها؛ فخرج الجميع من غرفهم وأولهم ياسين ورقية تختبئ خلف ظهره. ارتفع صوت الصراخ فقابله على بعد أمتار قليلة ضحك هيستيري من فم ياسين، ضحكة مجنونة لم تُسمع في مسرحيات عادل إمام ولا في أفلام سمير غانم رحمه الله. مال إبراهيم برأسه للوراء من الوضع ساقطًا فرأى ياسين

ورقية في الخلف بهيئة مقلوبة وعيناه تكاد تحترق من الشرار، فالتفتت فاطمة لياسين ورمته بنظرة متوعدة وركلت إبراهيم على فخذه صارخة:

- انظر لي يا ابن العاهرة.

نهض على الفور متناسيًا ألمه، فباغتته بالحذاء في منطقته الحساسة؛ فصرخ ثانيةً ليصفعها بقوة زلزال ١٠ ريختر؛ فطاحت وارتطمت بالحائط وسقطت على الأرض.

امتلأ الممر برجال الأمن والممرضين لتدارك الموقف قبل وقوع مصيبة، حملوا فاطمة التي سقطت مغشيًا عليها وذهبوا بها بعيدًا بينما نهض إبراهيم على الفور متناسيًا الألم ولم يهتم للانتقام من فاطمة، مجرد ساقطة في نظره، لم يكترث لرجال الأمن الذين راحوا يجذبونه للخلف، فقط وجه عينيه الحارة صوب ياسين ورقية في صمت جنائزي اكتسى الأجواء، نظرة كانت كافية لدهس ياسين وتحويله لجثة عجينية مخلوطة بالدماء. ارتعدت رقية فعادت بخطوة بطيئة للوراء لتنزوي في غرفته فبقى ياسين في مرمى بصره ليستقبل ما بقى في نظرته من غضب، لم يتحرك للاطمئنان على فاطمة ولم ينوي ذلك ولم ينطق بكلمة للتهدئة من روع رقية، حاول بلع ريقه فوجده جاف، أرض جرداء قاحلة لا ماء فيها ولا حياة فسقط على الأرض.. مغشيًا عليه! وظل إبراهيم يرمقه بذات النظرة دون رحمة أو تعاطف حتى خرج مع رجال الأمن من الممر واختفى من مرمى البصر ليتبقى فقط ياسين ورقية، أحدهم ساقط على الأرض وأحدهم الآخر يبكي كالاطفال، أما الحذاء.. فقد ظل وحيدًا بعيدًا عن صاحبته.. في منتصف الممر.

( ١٢ )

في لحظةٍ ما نقف أمام المرآة لنتأمل أنفسنا؛ فنجدنا شاردين وقد أمعننا النظر في أعيننا نحن ونتساءل «ماذا بعد؟».. هذا السؤال العام الذي يبدو وأنه لا يشمل شيء، ولكننا نعلم جيدًا أنه يشمل كل شيء. في السؤال للمرة الأولى نستدعي عدم الفهم، في المرة الثانية سنسخر من السؤال، في الثالثة سنصمت وسنود الكف عن النظر لأنفسنا، في الرابعة سنبكي، سنترك المرآة بمفردها ونصطحب انعكاسنا في رحلة قصيرة نحو الحنين.

بينما انهمكت فاطمة في النظر لانعكاسها في مرآة السيارة الجانبية غير مبالية بجرح رأسها، باغتها السائق بالسؤال:

- أنتِ فاطمة التي أتت مع ياسين الخميس الماضي؟

كانت الساعة تشير السابعة والنصف مساءً بتوقيت كورنيش المعادي عندما التفتت فاطمة ناحيته في ارتياب، وردت على السؤال بسؤال آخر:

- هل تعرفني؟

أنار ضوء السيارة الداخلي وألقى نظرة سريعة على غرباء يسيرون على الرصيف ويطلقون وابل من الضحكات، ومن ثم أطلق بوق السيارة بلا هدف يذكر، كان الطريق فارغًا ولا شيء يدعو العجلة، فأعادت عليه السؤال في ضيق خافت:

- هل تعرفني؟

أوقف السيارة بجانب أحد الأرصفة، وعدل من جلسته وأجاب بثقة:

- وهل سأعرض عليك توصيلك للمنزل دون سابق معرفة؟!

أجابت بتردد وبنبرة غير واثقة:

- لا أعرف، كثيرون يفعلون ذلك في هذه الأيام.

التفت لليسار ونظر في الفراغ:

- لست أنا.

ظلت تتبعه بعينها:

- إذن من أنت؟

عاد بعينيه ونظر للأمام وأجاب بنبرة تقريرية:

- أنا دكتور أحمد مكرم، الطبيب المعالج لياسين، صديقك.. أو حبيبك.

لم تجيب.

- لقد أخطأتِ بقدومك إلى هنا.

- أخطأت ؟.. هو من طلب مني القدوم.

أدار رأسه ونظر في عينيها بنظرة شفقة على حالها أو حاله، كانت النظرة كئيبة ومقلقة:

- ياسين إنسان مشوش يا أستاذة فاطمة.. في لحظات الخوف والارتباك سيبحث دومًا عن الإجابة السهلة، الإجابة التي لن يبذل فيها أي مجهود

ويسهل تذكرها، ولكن كما ترين ياسين يريد أن يتخطى علاقات المستوى الأول، يبحث عن الإجابات الصعبة المختبئة أسفل أبعد الأبار المهجورة وتحت أعمق بحار الأرض.

طرقت بسبابة يدها اليمنى على التابلوه وهي تتبع بعينيها سيارات تقطع الطريق نحو امتداد بعيد، ومن ثم نظرت لنفسها في الانعكاس بنفاذ صبر، وقالت:

– ماذا تريد أن تقول؟

لم يجيب.

– أنا لا أحب الرسائل الخفية، قل ما عندك ولا تضيع وقتي في كلام خائب.

أدار محرك السيارة وقال بصيغة مباشرة دون أن ينظر إليها منهمكًا في تدوير السيارة:

– عندما فحصت ياسين للمرة الأولى أخبرني أنه يريد أن ينساكِ وأنكِ تمثلين له عائق يقف أمام مستقبله، لم يخبرني عن أحلامه أو ما يحتاجه.. فقط افتتح الحديث بذكر اسمك.. أرجوكِ يا أستاذة فاطمة.. اتركي ياسين وشأنه، لقد رأيتي ما يسعده بنفسك.

ابتسمت ساخرةً ونظرت لانعكاسها ثانيةً، وقالت:

– وغدًا سأرى في عينيه الندم.

دارت السيارة :

- لم أفهم ماذا تعنين؟

فتحت الباب بجانبها وخرجت وأغلقته بعنفر ثم انحنت برأسها كالراكع ووجهت كلامها من خلف النافذة مبتسمة بذات السخرية:

- فرصة سعيدة يا دكتور أحمد مكرم.

ذهبت فاختفت وتلاشت؛ فركل مكابح السيارة بيمناه:

- اللعنة.

***

استفاق ياسين من اغماءته وجلس على الأرض في وضع القرفصاء منتكس الرأس ناظرًا لمربعات البلاط مستندًا على باب الغرفة المفتوح، وبدورها جلست رقية على الأرض هي الأخرى بقدم ممددة مستندة على الحائط وياسين على يسارها.

لمحت رقية صورة ياسين مع حنان على يمينها فأشارت ناحيتها وهي تتسائل في رقة وبصوت أشعر ياسين بقشعريرة منعشة، هو السؤال الذي انتظره طيلة حياته من قلب يمثل له كل الأجوبة، هي فتاة لم يرها إلا مرة ولا يعرف عنها أو عن قصتها أي شيء، ولكن للوجوه سحر يعري حقيقة صاحبها دون أن يتفوه بشيء، هناك وجوه مثل وجه رقية تعرف أن الجنة معها في أول الطريق وفي منتصفه وفي نهايته. سألته بذات الخفة :

- من تلك الفتاة؟ شقيقتك الكبري؟

اه، إنها تسأل عن أبلة حنان، أصبحت في عمر معلمتك يا ياسين وما

زلت تنطق لقبها، ولا أدري يا رقية ما بينك وبين قلبي حتى أسقط أمامك مستسلمًا بكل الرضا؛ فتُخرجين مني كل الحكايات رغمًا عني ودون أن يصدر منك أمر واحد.

ابتسم بشفاه وبكلتا عيناه وبقلبه، وقال بصوت سعيد:

- تلك الفتاة هي الذكرى الأجمل في حياتي.

التقطت الصورة وراحت تتأمل ملامح حنان في فضول لم يتحول لاهتمام بعد، الفتاة ما زالت تتعرف على ياسين ولكنها أحبت قصته، من في هذا الزمن يقف أمام الناس وبكل شجاعة يخبرهم بأنه جبان، ما جبان إلا من أشعرك بذلك يا صديقي.

التفتت ناحيته وما زالت الصورة في يدها:

- لماذا؟ من تلك؟

نهض من مجلسه وراح يتمشى في الغرفة وأعطى ظهره للنافذة؛ فنهضت بدورها وجلست على مقعد جلدي، ومن ثم أعادت شعرها للخلف فابتسم وقال:

- شعرك جميل.

قطبت جبينها وابتسمت خجلًا، وقالت لتخفي خجلها:

- شكرًا يا ياسين.. ولكن إذا كنت لا تريد الإجابة سأتفهم ذلك.

ضاحكًا:

- أنتِ الوحيدة التي لديها حق السؤال عن أي شيء.

ضحكت بخفة:

- أنا؟.. لماذا؟

- بينما تتحدثين هناك إجابات لأسئلة كثيرة تملأ رأسي.

- أنا لم أفعل شيء.

- وهذا أجمل شيء.

لم تعقب.

- وأنتِ الوحيدة التي أريد إخبارها بكل شيء ومعرفة كل ما فاتني من حياتها.

ضاحكةً:

- ما فات قد فات والحمد لله أني مررت به وحدي.

بقلق:

- لماذا؟

رفعت الصورة في الهواء وتساءلت في حماس:

- لا تغير الموضوع.. من تلك الفتاة؟

جلس على النافذة وأجاب بنبرة هادئة:

- في زمن هذه الصورة كانت هذه الفتاة تدعى أبلة حنان، كانت معلمتي، ولا تتعجبي من كلمة أبلة، على الرغم أن الزمن تغير والثقافة تغيرت إلا أنها ستظل مسجلة في قلبي وعقلي بهذا الاسم.

- ولماذا معلمتك مميزة لهذا الحد؟ للحد الذي يجعلك تصطحب صورتها معك هنا؟ ماذا فعلت لكل هذا وأين هي الآن؟

- لو كنت أعلم أين هي لما انتهى بي الحال هنا.

نظرت لها ثانية.

- بعدما انفصل أبي وأمي لم أجد الحب الكافي من كليهما، وكان الحب دومًا نظير مقابل ليس عندي. أبي لم يراني ولم يريدني حتى يحبني، وأمي انتظرت دومًا أن أكون نقيض أبي في كل شيء. مطالب كثيرة على طفل صغير وجد نفسه محل اتهام قبل أن يطرق باب الدنيا. حتى شقيقتي الصغيرة التي جئت هنا من أجلها كنت دومًا أشعر بالمسئولية تجاهها؛ شقيقها الأكبر ولا أستطيع حمايتها.

التقط أنفاسه، وتوجه ناحية رقية والتقط الصورة، ونظر لمعلمته، ثم جلس على حافة السرير، وتأمل الصورة لثوان:

- أبلة حنان لم تفعل المعجزة، هي فقط تواجدت في وقت النكبة؛ فأصبح وجودها هو المعجزة، والمعجزة عندي كانت تكمن في العوض، وستظل تكمن في العوض، هي فقط أحبتني دون مقابل، آمنت بي وسمعت لي وأشعرتني أن لوجودي قيمة، أن لحزني قيمة، وأن لغيابي قيمة، أن فرحتها من فرحي وأن حزنها من حزني، أما عن قلقي فكانت تتكفل به وتدفنه حيًا، وتحول دموعي لبحار من ماء الورد.

ابتسمت:

- كل ذلك؟

– هل تعرفين هذا الشعور عندما ترين أمك وشقيقتك وحبيبتك متمثلين في شخص واحد؟ عناقه يمتص منك كل الألم، الأم التي تشبعك بالأمان وفي حضرتها تكونين كالرضيع المنتشي برؤيتها، هي أمي التي رحلت ولن تعود مرة أخرى، ولم تبقَ إلا أمي التي حملتني وحمّلتني كل مساوئ العالم.

مسحت دمعة من عينيها، وقالت في هدوء يائس، وقالت بصوت يائس:

– على الأقل على قيد الحياة.

جحظت عيناه ووضع الصورة جانبًا، وتساءل في قلق:

– ماذا حدث؟

لم تجبه، ووضعت يدها اليمنى على فمها، وحاولت أن تتحاشى النظر في عينيه.

– أنتِ بخير؟

نهضت وخرجت من الغرفة بخطوات سريعة، واختفت في لمح البصر، ولم يبقَ منها إلا رائحة عطرها وأسئلة مكدسة في رأس ياسين.

***

«يا فاطمة.. لين القلب هبة ومحبة من الله، لا يشغلك قسوة عباده ولا تشغلك أفعالهم، أنتِ لله ومن الله، وما نحن هنا إلا ضيوف في حضرته، ضيوف حتى تحين ساعتنا. تعبّدي في انتظارك، وتأدبي، واجعلي الصلاة ملاذك ولا تشاركي أولاد آدم شكوتك؛ جميعم راحلون بإرادتهم قبل رحيلهم بمشيئته».

كانت كلمات أبيها ترن في رأسها بينما تجلس على الأرض في شقة ياسين.

«لا ترحل مثلهم يا أبي، أنت رزقي في الدنيا.. يا ابنتي لا تحبي عبد أكثر من خالقه حتى لو كان أبوك؛ فتزيل نعمته عليكِ ويترك لك ما يجبرك على الإخلاص في عبادته.. ولكنك أبي!.. أبيكِ ولكن محبتي لك ما هي إلا قطرة في بحار حب الله لعباده المخلصين، غدًا أنا راحل ويظل الله بمحبته خالدًا.. ونعم بالله يا أبي، أنا فقط أخشى أن ترحل فلا أجد من يشبهك، لا أحد يشبهك.. اتركي أمركِ لله يعطيكِ الدنيا وما فيها».

أخرجت هاتفها وطلبت رقم أبيها الراحل فاصطدمت برسالة مسجلة «الهاتف الذي طلبته قد يكون مغلقًا أو خارج نطاق الخدمة»، طلبت الرقم ثانية واستمعت لذات الرسالة وبداخلها يقين أنه سيستجيب في مرة من المرات، بالطبع سيستجيب، لن يتركني هكذا، هيا يا أبي أجبني، أنا أعلم أنك لم تُمت، أنت فقط تمزح معي ولن تتركني أواجه كل هذا الحزن وحدي، طلبت رقمه أكثر من عشر مرات على أمل سماع صوت مختلف، ولكنها لم تقابل إلا ذات الرسالة؛ فوضعت الهاتف على الأرض باستسلام وراحت تبكي! «يا أبي.. يا أبي.. أين أنت.. أنا في حاجة لك.. والله سأعود للمنزل ولن أتخلى عنك ثانية، ولكن أرجوك.. عد!» ارتفع صوت النشيج واحمرت وجنتيها من هول البكاء.

نهضت بهشاشة عجوز في التسعين، وعندما جلست على السرير بكت ثانية، تنظر للجدران العارية من أي شيء وشعور بالخنقة يغرقها، وإضاءة الغرفة الضعيفة تشعرها بالتوتر، وحتى صوت السيارات في الشارع بدى وكأنه صوت لقطار ثائر في طريقه لتحطيم الحائط وهدم الغرفة على رأسها؛

فسقطت على الأرض مغشيًا عليها.

***

«مساء الخير يا أصدقاء.. نرجو أن تكونوا في أفضل حال.. نود إعلامكم أننا سنبدأ أولى جلسات البرنامج العلاجي في الغد، مدة الجلسة ساعة ونصف، ساعة مع الطبيب المختص ونصف ساعة لتسجيل الأشياء التي لا تريدون نسيانها بسبب العملية، المركز غير مسؤول عن نسيان أي ذكريات ما لم تذكروها في الغد، لمزيد من المعلومات ولمراجعة مواعيد الجلسات يرجى زيارتنا في مكتب الاستقبال، شكرا لكم»... «مساء الخير يا أصدقاء.. نرجو...».

انتبه ياسين لصوت المذيع الداخلي ولم يفهم شيئًا، أي ذكريات علينا تسجيلها؟ وأي جلسات؟ لم يجلس مع طبيب نفسي من قبل، بماذا يخبرون الطبيب النفسي ومن أين يبدأون وهل يعرف الطبيب علتهم بالفعل من مجرد قصص قصيرة؟ اللعنة، ما كل هذا القلق؟ بماذا ستخبرهم رقية عن نفسها؟ ماذا يدور في رأسها الآن؟ ماذا حدث لها في الماضي؟ هل فعلت لها شيء أغضبها لحد البكاء؟ ولكني لم أفعل شيء.. أنا فقط تحدثت عن أبلة حنان، هل شعرت بالغيرة؟ أي غيرة يا ياسين أنت معتوه أم ماذا؟.. ولكن.. ولكن هل تحبني؟ عفوًا!.. أنت بالفعل معتوه.. من أنت حتى تحبك فتاة في أربع وعشرين ساعة؟ حتى لو كنت عمر الشريف لن تحبك فتاة في هذا الوقت، لحظة، هل عمر الشريف هو الأجمل بالفعل أم هناك شخص آخر لا أعرفه ولم أشاهده؟ حسنًا.. أنت الآن معتوه ومغفل.. ولكن.. يبدو لي أنها تحب الحديث معي.. وما الغريب في ذلك؟ ربما قلبها الجميل يجعلها ترى الجميع

سواء، لحظة.. ولكنها ليست مثل الجميع في نظري.. لماذا؟ لا أعرف.. أنا فقط أحب الحديث معها وأريد رؤيتها ثانية، انتظر.. انتظر يا غبي.. أنت هنا من أجل التخلص من الجبن والعودة للمنزل وليسرا، تذكر ذلك جيدًا.. يسرا يا غبي، هذا هو هدفك الآن.. ولكن فرضًا أحببتها وفشلت العملية وذهبت ذكرى رقية من رأسك ما الحل إذن؟.. يا إلهي.. لا أريد أن أنسى رقية أو أن تنساني.. لا أفهم لماذا أشغل رأسي بما لا ينفعني.. اخرس، هل رأيت جمالها قبل أن تنطق بهذا السفه؟ هناك أجمل منها.. حسنًا.. هل هناك من يحمل السلام في قلبه مثلها؟ ياسين.. أنت لم تضع احتمال أن الفتاة معلقة بشخص آخر، هل تظن أن فتاة بهذا الجمال ستظل وحيدة؟ فتاة بهذا القلب لن يصعب على أحد اختراقه.. دعك منها.. حسنًا سأتغاضى عنها، ربما الفتاة لطيفة فقط و في قلبها لشخص آخر.. ربما.

أغلق باب الغرفة، وأطفأ النور، وأغلق النافذة، وأسدل الستائر، وارتمى على السرير ونظر لسقف الغرفة، ثم تكوم حول نفسه بعدما اطمأن لسيطرة الظلام وأغلق عينيه ونام.. مرت ثوان.. انتفض من نومه معنفًا نفسه:

- اتبعها يا غبي.. رقية تبكي.. رقية حزيييينة.. يا غبي!!!!

نهض من فراشه على الفور وفتح الغرفة، وراح يصول ويجول في الممرات بحثًا عنها دون أن يفكر في طرق غرفتها هي أولًا.. لقد تناسى أن للفتاة غرفة، مثله.

كان مكتب الاستقبال والمطعم والصالة الرياضية وصالة مجموعات الدعم والعيادات الصغيرة تقع في الطابق الأول، بينما غرف النزلاء كانت تقع بالطابق الثاني، أما عن الطابق الثالث فاستقرت به المكتبة وغرفة العمليات

وغرفة النقاهة وغرف للحالات الخطرة. يسمون هذا الطابق بالمقابر لانتشار الظلام في كل جنباته أكثر أيام الأسبوع. كل المسميات في الأعلى مؤرقة، عمليات، نقاهة، خطرة، مكتبة، مؤرقة ومزعجة ولكن من أجل رقية، أو من أجل الفوز بالحب صعد ياسين إلى الأعلى ليبحث عنها. راح يسير في الظلام مهتدي بشعاع نور يأتي من داخل المكتبة التي استقرت في إحدى جنبات الممر، ذهب خلف الضوء، ذهب خلف رائحتها فوجدها في الداخل، تبكي بين تلال من الكتب. شعرت به فلم تذهب في هذه المرة، وكأنها لا تريد أن تبكي بمفردها، تريد البكاء بصحبة أحدهم كما كانت تبكي على صدر أمها. سحب مقعد مقابل لها وقبل أن يجلس بادر مرتبكًا:

- أنا آسف.. ولكني لا أعرف ماذا فعلت.

قالت بصوت مملوء بالنشيج المتقطع:

- كانت أمي الصديقة والأخت وكل ما لي في الدنيا.

جلس على المقعد :

- كانت؟

- نعم.

أراد أن يربت على يدها وتراجع قبل أن يفعلها، أراد أن يضمها إلى صدره وتراجع، أراد أن يخبرها بأشياء ليست بعد في قلبه وتراجع، أراد أن يفعل أي شيء يسكت بكاءها على الرغم من محبته لطريقتها في البكاء، تمنى أن تستمر في البكاء وتمنى أن يفعل شيء لتكف عنه! يا إلهي لماذا أبدو أبله أمامها ولا أستطيع كسب نقطة لصالحي؟!

بادر الأبله بالحديث ثانيةً:

- المذيع الداخلي قال أننا سنسجل الأشياء التي لا نريد نسيانها في الغد، تحدثي عنها يا رقية.

مطت شفتيها:

- وكأن الحديث سيعيدها!

جففت دموعها ورفعت رأسها تجاهه، وتساءلت لتغيير المسار:

- وأنت.. ستتحدث عن من.. معلمتك؟

- سأتحدث عن أمي ويسرا ومعلمتي بالطبع .

- لن تتحدث عن صديقتك التي زارتك؟

اللعنة، لماذا تسالني عن أشياء تشعرني بأنها تهتم لأمري؟ اللعنة!!!

- فاطمة؟.. لا أنوي الحديث عنها، لم تضف لحياتي الكثير، أفرغت فيها طاقة الحب التي تمنيت لو أخرجتها لشخص أحبه، ولكن أيقنت أخيرًا أن إطلاق الحب في غير مساره لا يصح.

عقبت بسخرية:

- الحب؟.. لم أرى الحب إلا بين أبي وأمي وكل ما هو غير ذلك حب فاسد.

أسند رأسه على راحة يده:

- على الأقل كبرت بين زوجين يحبان بعضهما، بين أب وأم.. معًا.

***

الواحدة صباحًا، فاطمة كما هي على الأرض ولا يمكن للمرأ أن يدرك أن ما زالت مغشيًا عليها أم نائمة في ثبات عميق أو ميتة وذهبت لأبيها كما تمنت. رن جرس الباب بطريقة غير مألوفة، رنة عنيفة كأن من يقف في الخارج يضغط على الجرس بقدمه. انتفضت من نومها ومسحت عينيها بعصبي، وبينما تنهض اختل توازنها؛ فكادت أن تسقط فتداركت نفسها، وقالت بصوت نائم :

- من الطارق؟

ذهبت نحو الباب في خطوات غير منتظمة ونظرت من العين السحرية؛ فلم تجد أحدًا!

- من الطارق؟

قالتها بارتباك أكثر فلم تجد إجابة. فتحت الباب عن آخره وكأنها تريد الخلاص والانتهاء من كل هذا العبث. أين القاتل؟ لماذا لا يوجد قاتل؟ أي أحد.. أي أحد. قبل أن تعود أدراجها واليأس أكثر من النوم في وجهها لاحظت ورقة صغيرة على الأرض أمام الباب. انحنت فانسدل شعرها ليلامس الأرض ويغطي وجهها، أعادت شعرها للوراء وفتحت الورقة فلم تجد إلا كلمة واحدة ..

«اهربي.»!

( ١٣ )

يونيو ٢٠٠٩

« تبقى الأسود أسود والكلاب كلاب».. نبح الكلب الچيرمان شيبرد وتدلى لسانه متعطشًا للانقضاض على وجه أحدهم في الثالثة عصرًا. كان يقف منتشيًا بوبره الكثيف يعترض طريق المارة في هذا الشارع الغير مستوي الذي لم يتعدى عرضه الأربع أمتار ولا تعلم إن كان هذا العرق على وجوه المارة من حرارة الشمس أم من هول نباحه. تقدم الكلب خطوة وسحب شفتيه وبرزت أسنانه وبدأ في الزمجرة، ثم تدلت أذناه وارتخت وزاد صدى نباحه في الشارع الترابي الصغير.

كان ياسين يقف ملتصقًا بحائط إحدى البيوت القديمة مرتعشًا، ويسرا على يمينه تقف وظهرها بعيد عن الحائط تنظر لصاحب الكلب في تحدٍ «حسان»، بينما انشغل ياسين في النظر للكلب؛ فتقدم الكلب ثانيةً وأصبح على بعد مترين ومن خلفه حسان يضحك ليسرا مفتخرًا. مراهق نحيف، اكتسب سمرته وسواد شفاهه واصفرار أسنانه وهالاته السوداء تحت عينيه من عبادة الكيف؛ فبرزت معالم إيمانه على وجهه فحولته لجمجمة مكسوة بكيس بلاستيكي هش إن لكمته خرجت قبضتك من مؤخرة رأسه.

شعر متوسط ومجعد تميزه الحلقات السمراء المائلة إلى اللون البني وكأن أحدهم قد سرق قرش حشيش وأفرغه فوق رأسه، ولا يصح أن تختصر

وصف شعره بكلمة (كيرلي) فيساء فهمك. وعلى كل حال فمن على شاكلة حسان يسعون دائمًا أن يساء فهمهم حتى ينقضون على فرائسهم التي تهرب إلى السكوت والرضا خوفًا على حياتها. أما ياسين، فلا يحتاج أسباب للخوف، عقله تكفل بذلك في كل يوم ويصنع له ما يخافه وما يهابه بكل الاشكال والأحجام.

يعرف جيدًا أنه من سلالة الفئران؛ ففشلت محاولته في وضع نفسه في مقارنة مع الأسود؛ فلجأ إلى بيوت من الشعر تحفظ ماء وجهه أمام نفسه.

«وذو جهل قد ينام على حرير، وذو علم مفارشه التراب».

- لا تخف !

قطعت حبل أفكاره فانتفض وظن كلمتها بداية الهجوم. ضغطت على يد شقيقها الأكبر أكثر فأكثر:

- قلت لك لا تخف !

فضحك حسان مرة أخرى وحدثها واثقًا مشيرًا لكلبه:

- لا يوجد في هذا الشارع من لا يخاف «بحر».

ثانيتان واستطرد حديثه:

- أنتِ أيضًا عليك أن تخافِ.

أجابته بتحدٍ:

- ومن أنت يا «حشّاش» حتى أخافك؟

أفلت حبل الكلب فقفز الكلب بقدميه الأماميتين نحو ياسين؛ فصرخ

كفتاة عشرينية رأت صرصور يتسكع على راحة يدها، فأفلت يده من راحة أخته وركض؛ فسقطت يسرا من قوة السحبة لتتسخ ملابسها من التراب وتقع وسط موجة من الغبار.

- أنا من سيعلمك الخوف، يا مومس.

كورت كتلة من التراب وألقتها على وجهه ووقفت على يمناها استعدادًا للهروب؛ فقبض على يدها اليسرى بيسراه وصفعها باليمنى:

- إلى أين؟

جذبها من رأسها وحررها من غطاء الرأس، وقد أصبح وجهه جامدًا يعرف ما يفعله، وألصقها للحائط واعتدى عليها، وقبل أن تصرخ أغلق فمها بيسراه؛ فخرج صراخها مكتومًا:

- ابتعد عني!!!

خرجت امرأة أربعينية من إحدى الشرفات ورأت ما حدث؛ فصاحت فيه:

- ابتعد عن هنا أنت وعاهرتك وإلا طلبت لك الشرطة.

دون أن ينظر للأعلى:

- ادخلي شقتك يا امرأة.

ملأت الشارع بالصراخ فامتلأت الشرفات عن آخرها وكأنهم يشاهدون مباراة الصعود لكأس العالم في الدعارة، فخرجت إحداهن بدلو من الماء الساخن وأسقطته على حسان ويسرا؛ فصرخت ألمًا فوق الألم وسقطت على

الأرض وهي تتلوى وتفرك في جلدها باكيةً، بينما أخرج حسان سلاح ناري مصنوع يدويًا كان قد أخبأه تحت بنطاله، وأطلق طلقات عشوائية في الهواء؛ فانهارت يسرا بجانبه وسدت أذنيها ولم تحاول النهوض ثانية. فرغ الشارع من المارة في لحظات، وفرغت الشرفات، وفرض حظر التجول بثلاث طلقات من سيدهم حسان.

التفت للخلف فوجدها تتلوى وتترنح محاولة النهوض من جديد كطائر يحتضر؛ فتقدم نحوها مترنحًا بدوره مدركًا لألمه وصاح:

- أنا لم أنتهي بعد.

***

ظل ياسين يقطع الشوارع ركضًا بين وابل من الضحكات من أطفال الشوارع، ولم يجرؤ أن ينظر للخلف ولو لمرة حتى انتبه أن الكلب لم يعد خلفه، أن الكلب لم يعد يكترث له، وجد نفسه وحيدًا فانحنى محاولًا التقاط أنفاسه بين ضحكات من أهل المنطقة. بصق في الأرض من التعب واضعًا يده على صدره، بينما ينظر للناس من حوله فانصرف في خجل محاولًا تحاشي نظراتهم، وصل لمنزله فجلس على درجات السلم ولم يجرؤ على الصعود، ظل جالسًا بمفرده ورأسه يغلي من الخوف والقلق ويرتعب من فكرة العودة من أجل يسرا، في قرارة نفسه اقتنع أنها ستأتي في النهاية مهما طال الوقت ومهما كانت النتيجة.. ستأتي، مهما حدث لن تموت. أن تأتي مهشمة النفس خيرًا من أن تموت ويتحمل المسؤولية كاملة.

***

عاد الكلب لصاحبه فوجده يحاول مص رقبتها النائمة على جانبها في الشارع وكأن التراب هو سريره الحريري الكبير. جلس الكلب على قدميه الخلفيتين وراح يراقب نزوة سيده في سكون واستسلام، صفعته على وجهه وركلته بين قدميه بركبتها فصرخ من الألم، وقبل أن ينقض الكلب عليها من أجل سيده سرقت السلاح وأطلقته على الكلب في رقبته فسقط على الأرض صريعًا ليفترش دماء الكلب بحر أراضي وموانئ حسان.

جحظت عينيه غضبًا، يرمي بحره الميت بنظرة حزن تارة ويرمي يسرا بنظرة توعد تارة. ألقت السلاح على الأرض وراحت تركض في الشارع باكية حتى اختفت من مستوى نظره. وصلت للمنزل فوجدت ياسين في انتظارها، توقفت عن الركض وهدأت خطواتها ليغتالها الألم ثانية والحريق الذي افترش جسدها. دخلت مدخل المنزل وأغلقت الباب ثم نظرت لياسين في يأس لثوان ثم صفعته بكل قوتها . بكى من الخجل؛ فجلست جانبه في يأسٍ واحتضنته، فقال في توسل:

- لا تخبري أمي!!

- إن لم أخبرها.. سيخبرها الناس.

هدأ نشيجه شيئًا فشيء:

- ماذا سنفعل الآن؟

التفتت ناحيته :

- أنت أخي الأكبر وتسألني ماذا سنفعل!

لم يجيب .

- إن لم نغادر اليوم سنموت في الغد.

- وأمي؟

- سأتدبر أمرها.

صمت لخمس ثوان:

- أنا آسف يا يسرا.. لقد خذلتك.

ابتسمت في شفقة:

- وما نفع الأسف؟

***

الاثنين

٢ يوليو،٢٠١٨

زقزقة عصافير ونسيم صيفي لطيف يليق بالسابعة صباحًا، ووجه شارد وعقل مشوش ما زالا قابعين في أفكار منتصف الليل، سيجارة تمر على فم ياسين بين كل حين وحين، ولا أحد يقطع الصمت بسؤال عن الحال وكيف حال الخوف والأحزان. جلس بمفرده على أريكة خشبية على حدود حديقة المركز الخلفية، يتأمل المبان خارج الأسوار وصوت أبواق سيارات تتلكأ في الطرقات من المدى البعيد، ينفث دخان سيجارته بين حين وآخر، يحب التدخين بمفرده ويخجل أن يراه الناس والسيجارة بين أصابعه على الرغم أن قيمة سيجارته لا تتعدى ثلاثة جنيهات، جلس بمفرده كطفل تائه في محطة

قطار في ليلة عيد ولا يدري متى الخلاص، وأي خلاص؟

راح يتمتم بصوت غير مسموع:

- أبي، حسان، إبراهيم عزام، أحمد سعيد، يا لها من قائمة طويلة حقيرة بدايتها لعينة ونهايتها وضيعة، وقائمة أطول من كلمات الأسف والاعتذار لمن خذلتهم وحطمتهم.

سحب نفس آخر من سيجارته وأكمل حديثه مع نفسه بصوت أكثر وضوحًا وعيناه تنظر في الفراغ:

- غدًا تنسى وكأن شيئًا لم يكن، لا انغماس في الأحزان ولا حاجة للغفران ولا شيء سيمنعك عن ما تريده. لن تخشى أحد بعد الغد يا ياسين، يا إلهي أنا مشتاق لتجربة هذا الشعور! أن لا تخاف.

شعر بأحد يجلس بجانبه؛ فالتفت يساره فوجده فتحي، الأربعيني، صاحب كرش ينافس معالم الدنيا السبع الباقي منها والمندثر.

- هل تحدث نفسك؟

بادره بالسؤال ضاحكًا.

ألقى سيجارته وأخفى شعوره بالخجل وبابتسامة يشوبها الارتباك:

- نصف من هنا يحدثون أنفسهم.

- وكأن العالم ينقصه مجانين!

- أنت في قاع المجانين.

فرد ظهره على الأريكة:

- والبخيل مجنون؟ مع اعتراضي على كلمة بخيل بالطبع.

- اسأل أبنائك، لا تسألني.

عقب متعجبًا:

- أنت في عمر أبنائي.. لِمَ لا أسألك؟

- لست أنا من وقع عليه الضرر حتى أصارحك.

باغتهم كريم شوقي من الخلف:

- صباح الخير يا رفاق.. كيف حالكم؟

دار حول الأريكة واستقر أمامهم بينما يدخن سيجارته، ورغم ذلك رائحة عطره المنعش تطغو على رائحة التبغ المحترق.

- هل أنتم مستعدون لجلسة اليوم؟.. لم أجلس مع طبيب نفسي من قبل.

أجاب فتحي:

- ولا أنا.. ولا أعرف الحاجة لذلك حقيقة.

بادره ياسين بالسؤال:

- هل لي بسؤال يا كريم؟ وأرجو أن تدرك مقصدي.

- تفضل بالطبع.

- لماذا شعرت بالندم بعد ما اغتصبت تلك الفتاة؟

ابتسم كريم:

- ألا تدرك أننا في السابعة صباحًا يا ياسين؟ هل تريد حقًا إفساد الأجواء بمثل هذه الأسئلة؟

ارتبك:

- أنا فقط أبحث عن إجابة لهذا السؤال منذ زمن.

- الشعور بالندم لن يشفي غليلك يا صديقي، وحتى كلمات الأسف لن تصلح النفوس العليلة.

- لم أفهم.

- ابحث عن حقك ولا تبحث عن ندم عدوك، ما حدث قد حدث.

عقب فتحي بملامح جادة:

- وعندما يمحون الشهوة من نفسك هل هذا سيعيد حق الفتاة التي اغتصبتها؟ أنت فقط تخشى أن تخون فتاتك.

- بالطبع لا.

- إذن حق الفتاة لم يأت.

عقب ياسين بدوره:

- الندم كان سيشفي غليلي .

- لأنك أجبن من أن تنتقم.. صحيح؟

قالها كريم:

- نعم يا صديقي.. أجبن من أن أنتقم.

– وبعدما يخلصونك غدًا من الجبن ماذا ستفعل؟.. ستنتقم؟

– القائمة طويلة.

– ثم؟

– لا أعرف.. حقيقةً لم أفكر في ذلك، لقد عشت عمري في الاختباء، وكلما أخرجني أحدهم للعالم رُغماً عني وجدت نفسي خاسرًا في الصفوف الأخيرة.. أنا فقط أريد التخلص من لعنتي يا كريم ولنرى كيف ستبدو الحياة أولًا بعد ذلك.

ابتسم كريم :

– ستظل الجروح كما هي.

نظر فتحي في ساعته وهم بالرحيل

– أعذروني يا أصدقاء .. أريد اللحاق بالفطور وكوب الشاي الصباحي الساخن.

ضحك كريم

– خذني معك، ياسين لن يتركني الا وعقلي محطم علي الأرض.

ضحك ياسين وظل جالسًا بمفرده، وما إن رحل الاثنان حتى عاد وجهه شاردًا غارقًا في زمن بعيد.

***

صفعته على وجهه وصرخت فيه:

- إلى متى ستظل مثله؟

لم يجب، ولم يختبئ في البكاء هذه المرة. نظر في الأرض ومط شفتيه خجلًا فوقفت يسرا بينهما وعارضت أمها بحدة:

- ما حدث قد حدث، يجب علينا الرحيل الآن، لا يمكننا تأجيل الأمر للغد يا أمي.

لم تنتبه وظلت تحدق بامتعاض في وجه ياسين:

- ماذا فعلت يا ربي حتى أرزق بهذا الفأر؟ حتى الفأر له أنياب.

- أمي !!

يسرا بذات النبرة الحازمة؛ فخرجت الأم عن شعورها:

- اخرج من منزلي، أنت عار علينا.

نكزتها يسرا بقوة :

- إذا رحل سأرحل معه.. ياسين أخي وسيظل أخي.. ألم تنالي كفايتك من الخسائر؟

لم تجبها.

- أبي وقد ذهب، احترق، مات، لا أهتم.. ماذا تريدين أكثر من ذلك؟

أجابت بامتعاض:

- أن يكون هذا الجبان رجل ولو لمرة !

تنهدت بعصبية وقالت لأمها بصيغة آمرة:

- أمي.. اجمعي أشيائك.. لا بد أن نغادر الآن.

ظل ياسين متسمرًا في مكانه محاط بسحابة من الخوف ولا يدري هل يرحل معهم أم يخرج من عالمهم ليكون عبأ على نفسه فقط، وعندما أيقن أنه لا يوجد مفر آمن ولا وطن بديل تخلى عن صمته وراح يحضر حقيبته للمرة الثانية في حياته بعد أن ظهر حسان وخرب كل شيء.. ثانيةً.

تحرك نحو غرفته فجاءه صوت أمه من الخلف:

- الرجال هي من تحمي البيوت وتعيد الحق لأصحابه.. ليس النساء. إن لم تصبح كما الرجال فلا عيش لك معنا.. مفهوم؟

أجاب بيأس :

- مفهوم.

***

- ياسين.. ياسين!

لم ينتبه لوجودها فارتبك، فارتبكت على ارتباكه:

- هل أنت بخير؟

- نعم.. نعم.. كل شيء بخير.

- هل ستأتي للفطور؟

- بالطبع.. كيف حالك اليوم يا رقية؟

- كحالي كل يوم.

أفسح لها مجالًا للجلوس بجانبه:

- بماذا ستخبرين الطبيب اليوم؟

جلست وأرجعت بعض خصلات شعرها للخلف أثر النسيم الخفيف:

- عن ما أشعر به.. الحديث عن الميت لن يعيده للحياة، ولكن الحديث عن الشعور يشفي .

- لقد مللت الشعور بالخطر وبأنني مهدد طوال الوقت.

- هل تقصد أحمد سعيد وإبراهيم عزام؟

- هذا جزء من كل.

- لا تقلق.. غدًا سنتحول جميعًا لعصافير منزل رُغمًا عنا.

مبتسمًا:

- هل محوهم للصفات سيمحي الذكريات؟

- التخلص من المرض لا يمحي أثره وأعتقد أن العملية غرضها في الأساس تقبل ما أنت عليه وليس محو سبب ما أنت عليه.. أنا كمثال لست هنا لحذف صفة كالجبن أو البخل أو الشهوة.. أنا هنا لحذف صدمة.. بعد العملية سأظل على إدراك أن أمي قد رحلت للأبد، ولكن على الأقل لن أسير في الدنيا بخطوات سلحفاة مرة ثانية.

حك رأسه قائلًا:

- إذا محوت سبب ما أنا عليه فقد اقتلعت المرض من جذوره .

- ولكنك ما زلت مريضًا.

- نعم، أعلم، ولكن على الأقل لن أخشى شيء بعد الآن.

- وستتقبل ما أنت عليه.. عدم الخوف يجعلك تتقبل الأشياء بنفس راضية.

تنهد قليلًا، وتساءل كأنه يحدث نفسه :

- كيف تبدو الحياة عند الشجعان؟

- هي نفس الحياة يا صديقي.. ولكن من طابق أعلى فقط.

نهض من مكانه:

- على كل حال.. غدًا ينتهي الخوف.

نهضت بدورها:

- غدًا ينتهي الحزن.

# ( ١٤ )

أكتوبر ٢٠٠٩

«بلادي بلادي بلادي، لكِ حبي وفؤادي.. مصر يا أم البلاد أنتِ غايتي والمراد، وعلى كل العباد كم لنيلك من أيادي».

«أين هي؟.. لماذا لم تأتِ اليوم؟».

انصرف التلاميذ من حوله نحو فصولهم، وظل في مكانه لم يتحرك كتمثال حجري بلا إرادة، يلقي نظرة هنا وهناك باحثًا عنها والألم يسري في معدته حتى صاح فيه أحد المدرسين لينصرف محذرًا إياه بعصا من الغاب:

- أنت!.. ماذا تفعل هنا؟.. هيا اذهب إلى فصلك.

تحرك بخطوات متلكئة وعقله ما زال معبأً بالخوف والقلق ومعدته ما زالت تحاول صد ثورة الأعصاب. مرت الساعات والحصص والولد يجلس في سكون. ما من سبيل ليطمئن وما من طريقة ليفهم، شعر وأنه قد تعرى من حائط الستر فما إن رن جرس الفسحة حتى ركض نحو الفناء متسلقًا السور في رعب غريب، يخشى أن يكشفه أحد وكأن الولد يتسلق سور سجن العقرب. قفز من أعلى السور ليجد نفسه على الرصيف محاطًا بالأتربة. كان من المفترض أن يكون على مقعده الآن يستمع لشرح معلم اللغة العربية، وبدلًا من ذلك وجد نفسه يستمع لسائق ميكروباص يصيح «رمسيس عتبة رمسيس»، وخمسيني يرتدي جلباب رمادي يقف بعربة موز، وفتى يرافق

فتاة يبدو وأنها حبيبته التي تغيبت عن مدرستها اليوم.

كان يعرف أين يقع منزلها، وجهته التي أصبحت مقدسة كمعابد مصر القديمة في عيون أهلها. ظل يركض بين الشوارع ويصعد على الأرصفة ويتوغل بين السيارات ويمر بين الأزقة حتى وجد نفسه في ساحة منزلها وعلى وجهه سيول من العرق الحار. لم تكن ساحة بالوصف الأدق، كان مجرد شارع متواضع لا يتعدى عرضه ستة أمتار في منطقة شعبية هي الموطن الأصيل للدخان والكيف وهي موطن الحنان الصغير. صعد للطابق الثالث في بناء من عشرة طوابق وطرق الباب وانتظر، لم يأتِه الرد فطرق الباب ثانية، انفتح الباب فوجدها أمامه، مريضة، لا تقوى على الكلام لترحب به، لا تقوى حتى على الابتسام، أو حتى لإخفاء خصلات شعرها الأمامية التي أخفتها تحت حجاب لم تربطه جيدًا قبل فتح الباب وفضلت أن تمسكه بأصابعها من عند الرقبة.

- ياسين؟

شعر بالخجل وفكر أن يرحل:

- لم تأتِ اليوم فقلقت عليك، أعتذر لو أزعجتك.

فتحت له الباب عن آخره وأشارت له بالدخول؛ فدخل وعيناه تنظر للأرض خجلًا، وما إن أصبح في الصالون حتى أغلقت الباب ولكن ليس عن آخره.

- هل أحضر لك شيء؟

- لا.. شكرًا.

جلست على المقعد المقابل في إعياء تام؛ فشعر بالعجز لأنه لم يعرف ما المفترض عليه فعله في هذه اللحظة، وسألها السؤال الأغبى على الإطلاق؛ لأنها لم تبدو بخيرٍ أبدًا:

- هل أنتِ بخير؟

أعادت رأسها للوراء وأغمضت عينيها على مهل، ثم تنهدت قليلًا ومالت برأسها للأمام ثانية وعيناها ما زالت مغلقة وتشعر وكأن أحد يحاول جذب جفنها للأعلى ولا يستطيع:

- لماذا تحبني يا ياسين؟ أنت لم تهرب من المدرسة من قبل.

قالتها بصوت منخفض باهت مريض.

- أشعر بالأمان في وجودك.

- وأين أمك؟

ابتسم بيأس ساخر:

- لا تحبني.

مسحت وجهها بكلتا يديها، وتنهدت مرة أخرى ولكن بنفاذ صبر:

- عدم الحب لا يعني الكراهية، والأم لا تكره أبنائها، والحب ليس بالشيء المقدس أو الدائم حتى يستمر معك حتى القبر، حب الأم فقط هو من يدوم، وإذا رزقك الله بزوجة صالحة في يوم ما ستظل هي أيضًا تحبك حتى القبر.

بنبرة يعتريها الضيق:

- ماذا تعنين؟

- حب الأم أجمل وأبقى.. أما أنا يا ياسين غدًا سيأتي اليوم الذي سأترك فيه هذا المنزل وأذهب لمنزل جديد، سأتزوج وتصبح عندي عائلة، سأترك المدرسة وأبلة حنان ستصبح ماما حنان لطفل أو طفلين سيأخذون كل الحب والاهتمام، لا تتعلق بي لأنك لن تجدني حينها.

- ولكن.. ولكن أمي أنا لم تعطني الحب والاهتمام.

- إذن اترك أمرك لله..

حاول تمالك نفسه؛ فقال بصوتٍ باكٍ دون بكاء:

- لماذا تقولين ذلك لي؟ لقد جئت فقط لأطمئن عليك.. لماذا تبدين قاسية اليوم؟

نهضت وراحت تربت على رأسه:

- أنا آسفة لم أقصد ذلك أبدًا.. أنا فقط أهتم لأمرك ياسين، ولا أريدك أن تتعلق بأحد؛ لأن الفراق سيؤلمك.

جلست بجانبه:

- أنا بخير.. لا تقلق.

التفت ناحيتها:

- متى ستعودين للمدرسة؟

بابتسامة تخفي شيء بداخلها:

- الله كريم.

***

خرج ياسين من ذاكرته بعقل غير مستقر، واستمر في التجول في حديقة المركز قبل أن تسلط الشمس حرارتها وقبل أن يغادر النسيم. يتجول بينما تحلق الذكريات حول رأسه وتهاجمه من كل اتجاه ولا يدري هل ستغادره مع الجبن أم ستظل حبيسة رأسه! فانسحب سريعًا للداخل ليتناول فطوره مع الجميع ويسكتها ولو قليلًا. عند الواحدة ظهرًا بدأت الجلسات، وبدأ النزلاء في زيارة غرفة دكتور أحمد مكرم بالترتيب. يدخلها المرأ قويًا ويخرج منها ضعيف وهش عدا متحجري القلوب. سارة كانت الأولى، وتبعها كريم شوقي، ثم فتحي، ثم أحمد سعيد الذي لم يقضي وقت كبير بالداخل، ومن بعده إبراهيم. كل شخص جلس مع دكتور أحمد حامل نكسته وبعد ذلك دخلوا لغرفة أصغر تشبه استديوهات التسجيل، يقفون أمام ميكرفون ليسجلوا كل مايريدون تذكره في حالة فشل العملية وتعرضوا لفقدان ذاكرة، منهم من حمل ورقة في يده وبدأ يقرأ منها، منهم من رفض التسجيل لأنه لا يريد تذكر أي شيء حدث في حياته، ومنهم من أطال بالداخل خوفًا على ذكرياته وأجمل لحظات عمره.

كانت الثامنة مساءً عندما نطق المذيع الداخلي باسم ياسين ليحل دوره، انفصال مفاجيء عن العالم ليتحول حاضره إلى ظلام وصدى صوت لأناس يتحدثون على المدى البعيد، فخرج اسمه ثانية فانتفض من غفوته واتجه للغرفة مسرعًا بخطوات عصبية بداخلها من الاتزان ما يكفي لسقوط مدينة على أهلها.

جلس ياسين في توتر وهو يتأمل غرفة دكتور أحمد مكرم، فأشار د. أحمد نحو محيط الغرفة وهو يتساءل مبتسمًا:

- ما رأيك؟

اعتدل ياسين في جلسته:

- جميلة.

الحقيقة أن ياسين لم يجلس مع طبيب نفسي من قبل رغم كل ما عاشه، ولم يستطع التغلب على التوتر لأنه كان يعلم أن وقت المزاح قد انتهى وحتى أشرس أعداءه سيتحولون لمجموعة من العصافير كما قالت رقية. ورغم حماسه نحو التجربة فإنه لم يطمئن بعد، لم يسمع من قبل عن عملية لتجميل الصفات، وآخر ما سمع عنه كان عمليات تجميل الأنف والمؤخرة والأثداء.

نظر د. أحمد لساعته ثم وضع قدمًا فوق قدمٍ وباغت ياسين بالأسئلة واحدًا تلو الآخر:

- أخبرني عن ما تشعر به يا ياسين.

بلع ريقه بصعوبة:

- لا أدري.

- صف شعورك الآن بالطريقة التي تحبها.

- لا أدري حقيقةً، الأمر غريب وغير مألوف.

- لماذا؟

- لم أسمع من قبل عن شخص أصبح شجاعًا بعد عملية صغيرة، لم أرها

إلا في الأفلام.

ضاحكًا:

– هذا الأمر يشعرك بالارتباك؟

– بالطبع، في الأمراض العضوية أنت تعرف كيف سيبدو المريض بعد شفائه، لكن هنا لا أستطيع تخيل ماذا سيحدث لي حتى أتحمس له.

– دعنا نفترض أنك شُفيت وأصبحت لا تخاف شيء، ولنفترض أنك تخلصت من عقدة أبيك وأصبح لا يؤثر فيك، ماذا ستفعل؟

راح يفكر قليلًا، ثم ابتسم:

– سأعوض شقيقتي يسرا عن خذلاني لها في أكثر من مرة، أعتقد ما زال في العمر ما يكفي لتعويض كل ما فات. سأثبت لأمي أنني لا أشبه أبي ولا أشبه إلا نفسي. سأذهب لرقية وأخبرها أنها تعجبني، وبعيدًا عن الأشخاص أشعر أنني سأرى الحياة بعين أخرى، بعين لا يختبئ صاحبها في الظلام ولا يغلق جفونه طيلة حياته. أعتقد سأبدي رأيي في كل شيء ولن أحتفظ برأيي لنفسي بعد الآن.. أعرف أن الحياة لن تصبح وردية وستظل كما هي، ولكن على الأقل.. على الأقل.. سأجاريها حتى الممات.

نهض دكتور أحمد من مقعده، وذهب لزاوية بها مبرد صغير وأخرج زجاجتين من الماء، وضع واحدة على مكتبه والأخرى على طاولة خشبية صغيرة أمام ياسين، ثم سأل بينما هو عائد لمكتبه:

– هل تدرك ما أنت مقدم عليه غدًا؟

نظر لزجاجة المياه ولم يقترب منها:

– نعم.. وأعلم جيدًا أن إبراهيم عزام وأحمد سعيد وكل ما هو شرير في هذا المكان سيتحول لكائن هادئ لطيف.. مثلي.

جلس دكتور أحمد وعاد بظهره للوراء:

– قبل أعوام قليلة يا ياسين كانوا يظنون هذا الأمر شيء من الجنون.. ضعيف النظر كان يرتدي نظارة طيلة عمره، يعاني من عدم الثقة في أمور كثيرة، لا يدخل مشاجرة، لا يلعب الكرة، لا يغوص في البحر. حتى انتهت معضلته بعملية صغيرة لا تحتاج أكثر من خمس دقائق.. خمس دقائق فقط كانت هي كل ما يحتاجه حتى يشعر بأنه على قيد الحياة. والآن.. أصبح الألم النفسي له علاج لا يستغرق أكثر من نصف ساعة.

ابتسم ساخرًا:

– خمسة وعشرون عامًا أتألم في هذه الدنيا والعلاج نصف ساعة من النوم على مقعد جلدي!

باسمًا بحب:

– اليوم هو آخر يوم لك بشخصيتك القديمة، لا تنغمس كثيرًا في الذكريات وفكر فيما ستفعله بعد الخروج من هنا، أمامك عمر جديد.

– أتذكر يوم خرجت من باب الجامعة بعدما حصلت على شهادة التخرج، وكانت الواحدة ظهرًا وأنا أسأل نفسي، ماذا بعد؟.. كل الخطط والأفكار هربت من رأسي، وأخذت شهور حتى تذكرت ما الذي أردته لنفسي، لا أدري غدًا بعد خروجي من العملية ماذا سأفعل في حياتي.

- دعني أخبرك بشيء.. أنت ستخرج للعالم وقد تخلصت من جبنك ولكن عليك الاختلاط بالمجتمع والناس.. شفاؤك من مرضك النفسي لا تأتي معه مناعة، أنت معرض في أي لحظة للإصابة بعقدة نفسية جديدة.

- أي عقدة مصدرها من خارج العائلة لا قيمة لها.

- مخطئ.. العائلة جزء من كل فقط.. أمامك عمر جديد ستخالط فيه هذا الكل فاستعد جيدًا.

تنهد:

- البشر مخلوق مرهق.

نهض دكتور أحمد من مقعده، واتجه لياسين، وربت على كتفه الأيسر قائلًا باهتمام:

- أنت في حاجة للشعور بالأمان.. ابحث عنه.

***

في ساحة الانتظار كانت تجلس رقية بمفردها في انتظار جلستها، لم يبدو عليها التوتر أو الترقب. كانت تجلس بثقة وفي يدها مصحف صغير وتقرأ بإمعان. على بعد خمسة مقاعد جلس إبراهيم في سكون يتأمل صورة ابنته، كانت فتاة مراهقة ذات شعر ذهبي لا تشبه أبيها في أي شيء. كان يبدو وكأنه يحدث نفسه بحديث غير مسموع. كان إبراهيم قد أنهى جلسته قبل ساعات وسجل الأشياء التي لا يريد نسيانها ويرغب في تذكرها للأبد. كيف لجلاد العبيد أن ينتهي به الأمر أمام طبيب نفسي ليحدثه عن مشاعره؟.. أحمد سعيد جلس على الجهة المقابلة بمفرده لا يحمل أي شيء، يتأمل الجالسين ممتعضًا،

جميعهم مشغول بالحنين لنقط ضعفه أما هو الذي لا يعرف أحد قصته جلس يراقب غاضبًا. فتحي كان يجلس مرتبكًا في زاوية غير مرئية وبدأ يشعر أن الأمر غريب عليه. مركز وأطباء وممرضين وعمليات وفحوصات وللمرة الأولى يخرج قطار الجوع عن مساره ويدخل قطار آخر محمل بالهواجس ليربك معدته فنهض وغادر مسرعًا، كريم شوقي كان يدخن سيجارته بجانب باب غرفة دكتور أحمد، أما سارة فلم تحضر. جميعهم كانوا قد أنهوا جلساتهم وانتهوا من تسجيل كلماتهم وقرروا ما يريدون تذكره وما يرجون نسيانه.

«صدق الله العظيم».. قالتها رقية فور فتح باب الغرفة وخروج ياسين منها بخطوات متعثرة، فنهضت بدورها واتجهت نحوه مسرعة، كان في عينيه أثر دموع؛ فأطفا كريم سيجارته وتقدم نحوه على الفور وعانقه وراح يربت على ظهره بكلمات مشجعة ورقية بجانبه، التف الأصدقاء من حوله عدا إبراهيم وأحمد سعيد وفتحي الذي قرر قضاء سهرته في الحمام.

– غدًا سنصبح حمقى مثلهم.

قالها أحمد سعيد مشيرًا نحو الجمع؛ فانتبه إبراهيم لحديثه وقابله بنبرة مستنكرة:

– ماذا تريد؟

– ألا تريد أن تودع خطيئتك؟

وضع الصورة جانبًا ورمقه في تحدٍ:

– كيف؟

- نتقاسم الحلوة.

التقط الصورة ووضعها في جيب بنطاله؛

- إبراهيم عزام لا يشارك أحد غنيمته.

ضاحكًا:

- من قال أنها غنيمتك؟

قاطبًا جبينه بنظرة محذرة:

- هل تشك في كلمتي؟

مبتسمًا بسخرية:

- أنت لا تعرفني، ولن تعرفني، ولكن بدوني أنت مجرد قطعة في رقعة شطرنج.

- هات ما عندك ولا تختبر صبري.

نهض أحمد سعيد من مقعده وذهب ليجلس على بعد مقعدين من إبراهيم، بينما انشغل باقي الأصدقاء في الحديث مع ياسين وانتظار رقية لجلستها.

- عند خروج الفتاة سيكون هذا الأبله في انتظارها.. اترك أمره لي وأنت اصطحب الفتاة وأنا سأذهب بعدك بدقائق.

مبتسمًا بسخرية:

- أخبرتك.. لا أشارك أحد غنائمي.

حك رقبته متحدثًا بثقة:

- أحدهم وضع جائزة لمن يجدك ويقتلع (مشيرًا لرقبته) تلك الرقبة الجميلة.

- صحيح؟.. وكم تبلغ الجائزة على رأسي؟

- أرنب.

ضاحكًا:

- وأنت ستتخلى عن الأرنب مقابل فتاة لا تعرف صدرها من قفاها؟

- أنت لا تعرف قيمة الزيتون ولا طعم الزيتون.

«رقية نبيل»..

قالها أحدهم في الإذاعة الداخلية؛ فدخلت رقية الغرفة وأغلقت الباب من خلفها.

- ها، ما رأيك؟.. الأرنب أم الزيتون؟

وضع قدم على قدم:

- الاسم؟

- ماذا ستفعل بالاسم وأنت غدًا ستصبح رقيق القلب؟

بصق على الأرض:

- اللعنة على هذا الأمر، لولا سرطانها اللعين ما أقدمت على هذه الخطوة النجسة.

ربت على قدمه بقوة:

- انتهى زمن إبراهيم باشا.. يا باشا.

صمت لثوان:

- ولِمَ لا تنفرد بها بعيدًا عني؟

- كسر عين الباشا أقرب لقلبي من أكل الزيتون بمفردي.

أطلق زفيرًا غاضبًا:

- سنفعلها بشرط، أن لا أرى وجهك مرة أخرى.

مبتسمًا بخبث:

- لا تقلق.. كل ما حدث في المعادي سيبقى في المعادي.

***

جلست رقية واثقة ووضعت المصحف على الطاولة وأمامها زجاجة المياة كما هي.

- كيف حالك يا رقية؟

- بخير.

- نحن التقينا بالطبع في عيادتي قبل أن أرشح لك هذا المركز وأعلم جيدًا أنك أكثر شخص لا يخشى الأمر، صحيح؟

أجابته بنبرة عادية وكأنه حديث بين صديقتين في سهرة صيفية على شاطئ البحر الأحمر:

- أي حزن يأتي بعد حزن موت الأم مرارته لا تتعدى ساعة بكاء

وساعتين من الصمت وثلاث من الجلوس بمفردك.

مبتسماً:

- أرى أنكِ وضعتِ للحزن قواعد وشروط.

بضحكة لم تتعدَ نصف ثانية:

- لا أدري إن كانت هذه العقلية ستستمر بعد العملية أم لا.

- العملية ستضع حزنك في حقيبة كبيرة وتلقيها في العدم.

قالت ساخرة:

- وعندما تأتي الذكري السنوية لموت أمي أقيم حفلة في منزلي وأرحب بالضيوف وأنا أقول بكل حماس «يا أصدقاء، في مثل هذا اليوم ماتت أمي ورحلت عني لتتركني بمفردي لا حول لي ولا قوة، هيا بنا لنحتفل، من يريد بعض الكولا؟».. ونلتقط السيلفي أمام صورتها الكبيرة في الصالون ونحن نردد في صوت واحد تشييييز.

- أعلم أن موتها أغضبك بقدر ما أحزنك، ولأنها مشيئة الله ولأن علينا أن نستمر أنتِ هنا يا رقية، أعتقد يكفي عامان من الحزن. أنتِ أصبحتِ شابة الآن ولنَ تعيشي هذا العمر مرة أخرى.

- بدون أمي يا دكتور.

- ماذا حدث بدونها؟

تنهدت بابتسامة:

- أذكر سؤالك هذا قبل عام، غلبني الصمت حينها لدقائق وعندما

تحدثت أغرقت العيادة بالبكاء.

- والآن؟

- لن أصمت ولن أبكي، ولكن أعلم أنها تتألم من أجلي، وأنا أريد أن أعوض ما حدث بدونها؛ حتى تنعم في الجنة هادئة مطمئنة.

رفع حاجبيه اندهاشًا:

- لقد تغيرتِ كثيرًا يا رقية، تخوفتُ بعد توقفك عن الأدوية أن تعودي لنوباتك ولكن لا أخفي أنكِ صرت شخص آخر، ينقصك فقط هذه العملية لنقضي على هذا الألم لتبدأي حياتك من جديد.

فتحت الزجاجة وتجرعت منها القليل:

- أنا أختار الحياة.. وأنت ماذا ستختار يا دكتور؟

عدل نظارته، واعتدل في جلسته على المقعد، وتساءل مندهشًا:

- أنا؟

- نعم أنت، أنت تستمع لعشرات القصص يوميًا، قصص ليست كقصص سندريلا وسنو وايت بأغانيها الراقصة، قصصك مكتوبة على صفحات سوداء قرأتها وأنت محاط بهالة من ضباب رمادي، أغانيها إيقاعات جنائزية، وأبطالها جثث ضاحكة.

نهض من مقعده ليتمشى في الغرفة واضعًا يديه في جيوب بنطاله:

- أنا اخترت التكفل بدرجات الأسود والأزرق وتركت للدنيا بقية الألوان، وأرجو صنع تحفة إنسانية من مجرد لونان.

- وطبيب ؟

قطب جبينه مندهشًا:

- أي طبيب؟

- لا تقنعني أن الطبيب النفسي لا يحتاج لطبيب نفسي آخر يلملم ما سقط منه مع مرضاه.

ضاحكًا بخفة:

- كلنا بشر في النهاية يا أستاذة رقية.. والآن قد حان دورك لتسجيل ما تريدين تذكره.

نهضت ضاحكةً، وقبل أن تدخل لغرفة أخرى أصغر بداخل الغرفة التفتت وسألته:

- ما رأيك في ياسين؟

- يليق بك.

- وهل حدثك عني؟

مبتسمًا:

- حديث المرضى لا يجوز مشاركته.

ضاحكةً برقة:

- أنا أعلم أنه معجب بي.. مسكين.

- لماذا؟

- يعجبني شخص آخر في هذه الغرفة.

ثم دخلت الغرفة واختفت بالداخل بعد أن ألقت قنبلتها في الأجواء.

***

ظل ياسين جالسًا أمام الغرفة ينتظر خروجها، فرصة أخرى ليضرب ضربته ويكسب قلبها. كان قد عاد البقية إلى غرفهم عدا أحمد سعيد الذي ظل جالسًا يراقب المشهد من بعيد وينتظر لحظته المناسبة هو الآخر، بينما استقر إبراهيم عند زاوية بعيدة يدخن سيجارته في عنف ويكاد يفتك بالتبغ. تفحص أحمد سعيد ساعته بدوره في قلق وترقب، ثم اقترب لياسين الذي ما إن شعر بوجوده حتى أصابه الارتباك ثانيةً وفي قرارة نفسه أيقن أن الجحيم لن ينتهي أبدًا في هذه الليلة. نكزه برقة على غير العادة:

- أريد أن أتحدث معك في موضوعٍ ما.

نظر ياسين للأرض، ثم رفعها وأدار وجهه ناحيته وقال في تردد:

- لقد أخذت بثأرك بالفعل، ماذا تريد أكثر من ذلك؟

ضاحكًا بحبٍ مزيف:

- يا رجل لقد انتهى هذا الأمر، أريد أن أتحدث معك في موضوع هام.

رمى نظرة نحو باب الغرفة، وتساءل في قلق:

- هل يمكن لهذا الأمر أن ينتظر قليلًا؟

مط شفتيه:

- للأسف يا صديقي، الأمر لا يمكنه الانتظار.

نهض من مقعده على مضض فأخذه أحمد سعيد تحت ذراعه وخرجا لحديقة المركز الخلفية، ظلا يسيران في الحديقة على غيرِ هدًى لعشر دقائق تقريبًا، وياسين لا يفهم ما هو الأمر ولماذا يسيران كلَ هذه المسافة، حتى ابتعدا ووصلا إلى سور المركز. على الناحية الأخرى خرجت رقية من الغرفة بعين دامعة وتفاجأت بخلو ساحة الانتظار من أي مخلوق، عدا إبراهيم الذي وقف على مقربة من الباب وفي يده صورة ابنته. تعجبت للأمر؛ خاصة من اختفاء ياسين الذي يرافقها كضلها ويجعل لإقامتها مذاق آخر! فذهبت نحو ممر داخلي عازمة العودة لغرفتها، فقابلها إبراهيم ولوح بصورة ابنته في وجهها؛ فتوقفت:

- ما الأمر؟

- أنتِ تذكريني بابنتي.

تأملت وجه ابنته، وعقبت في ارتياب:

- جميلة، ما اسمها؟

- زينب.

- أها.. اسم جميـ...

قاطعها:

- هل يمكنك مساعدتي؟

قطبت حاجبيها متعجبة:

- أنا؟

- نعم أنت.. أنا في حاجة لإخراج ما في داخلي لشخص يسمع جيدًا.

مسحت عينيها في عجالة:

- كما ترى يا أستاذ إبراهيم أنا لست في أفضل حال للكلام أو الاستماع لأحد الآن.. أعدك سنتحدث غدًا، أو ربما يمكنك الحديث مع د. أحمد.. هو أفضل مني في هذا الأمر.

- العملية غدًا.. أنا لست بخير وأريد التحدث لأحدهم الآن.

شعرت بالتورط، وقررت تأجيل نوبة بكائها اليوم قليلًا حتى تنتهي من أمره وتعود لغرفتها، فأخذها وبدأ يسيران بين الممرات دون أن يتفوه بكلمة واحدة؛ فبدأت تشعر بالضيق:

- تكلم.

- سأتكلم.. ولكن أريد أن أريكِ شيئًا أولًا.

ظل يسير بها بين الممرات حتى توقف أمام غرفة في نهاية ممر مظلم بطابق تحت الأرض؛ فارتبكت:

- يا أستاذ إبراهيم ماذا تريد؟.. أنا من لست بخير وأنت لا تريد أن تتحدث، ألا يمكننا تأجيل هذا الأمر لغدٍ أرجوك؟

- أعدك سننتهي من هذا الأمر سريعًا.

رمت نظرة على الظلام الدامس الذي يحل بداية من منتصف الممر:

- ماذا نفعل هنا؟

- سأخبرك.

أدار مفتاح في أحد الأبواب المغلقة وما إن انفتح حتى أشار نحو الداخل، وقال في حزن مزيف:

- أنا أبكي في هذه الغرفة دومًا بعيدًا عن الأعين التي لا تصدق أنني إنسان مثلها.

تفحصته من الأعلى للأسفل لتحاول استيعاب أن إبراهيم عزام هو من يقول ذلك؛ فقاطع أفكارها مبتسماً:

- هل تحبين ان تلقين نظرة؟

عادت خطوة للوراء عازمةً الرحيل:

- لا.

قبل أن تعود خطوة أخرى للوراء لكمها في وجهها بكل ما أوتي من قوة؛ فسقطت على الأرض مغشيًا عليها، فحملها وألقاها داخل الغرفة الفارغة من أي أثاث إلا من بعض المقاعد الخشبية المكسورة، ثم أغلق الباب من خلفه. وضع لاصق بلاستيكي على فمها «بلاستر» وبدأ في تجريدها من ملابسها.

***

توقف أحمد سعيد عند منطقة لا يصلها ضوء كافٍ بجانب السور، وقال ناظرًا لبناء المركز:

- لقد جئت بك إلى هنا حتى لا يسمعنا أحد.. الحقيقة.. أنا أفكر في الانتحار.

لم يعقب؛ فعاد متسائلًا في تعجب:

- ماذا؟.. أخبرتك أني أفكر في الانتحار ولا تعقب؟

راح يمسح فمه بسبابته وسأل مستنكرًا:

- ألن تكف عن هذا الهراء؟

- أي هراء؟.. أنا بالفعل أود أن أنهي حياتي.

- ما دخلي بذلك؟

- ألن تخفف عني ولو بكلمة؟

- أنت أضعت وقتي، ويبدو أنك لن تتوب عن أفعالك أبدًا.

نظر للسماء، ثم قال بنفاذ صبر:

- أنا سأنهي حياتي لأنني لا أريد أن أتحول لنسخة لا تشبهني.. هذا الوجه (وأشار لوجهه) لن يليق به اللطف.

ركل النجيلة من تحته ركلات متتابعة بخفة لقتل الوقت.

- من الجيد أنك تدرك ذلك.

- إذن.. أنت لا تتعاطف معي، صحيح؟

- أنت كاذب يا أستاذ أحمد.. هذا هو كل الأمر.. أنت جئت بي هنا حتى تسخر مني وأنت تعلم جيدًا أنني كنت أنتظر رقية حتى أطمئن عليها.. أنت فقط تحب إفساد الأشياء.

- هل تتهمني بالكذب؟

- أنا لا أتهمك بالكذب، أنت كاذب بالفعل.. وليس من عادتك حتى أن تهتم لاتهامات الناس.. إذن لنختصر الوقت ولتخبرني ماذا تريد حقًا؟

ابتسم ساخرًا:

- أصبت يا أبله.. أنا فقط أحب إفساد الأشياء.

أطلق زفيرًا غاضبًا:

- حسنًا.. مبارك لك.. لقد أفسدت يومي بالفعل، وداعًا.

ضحك أحمد سعيد وصاح من الخلف:

- أنا لم أفسد يومك.. أنا أفسدت حياتك.

***

صفعها على وجهها بينما تقاومه:

- ماذا يعجبك في هذا الأبله؟.. لا يوجد من هو أفضل مني يا عاهرة.

نزع قميصها من المنتصف ليكشف عن صديرية سوداء من أسفله؛ فخرج منها صراخ مكتوم، فضحك وفي عينيه الشماتة:

- اصرخي كما تشائي.. لن يسمعنا أحد.

اعتدى عليها بوحشيةٍ وعنف، فتشنج جسدها ثم سكنت ولكن لم تمر ثوان حتى حاولت مقاومته؛ فلكمها على وجهها لكمةً أسكنتها تمامًا؛ فباتت كالأموات!

بدأ في هز رأسها فلم يصدر عنها أي رد فعل، فنظر لها بقرفٍ وامتعاض،

فوجد أحدهم يطرق على الباب بخفة، فتركها وفتح الباب؛ فدخل أحمد سعيد ليقول متحمسًا:

- أوه.. ماذا فعلت يا رجل؟

التفت للوراء ناحيتها ليجيب ممتعضًا:

- مضاجعة المجانين مملة ومقرفة.. خذها.

- هل انتهيت؟

- لا تتحدث كثيرًا.. افعل معها ما شئت، أنا لا أهتم للجثث.. ما هذا الهيكل العظمي الذي أتيت به ؟.. هل هكذا ينتهي بي الأمر؟

ضاحكًا:

- سارة تلك لا تخرج من غرفتها كثيرًا، لنرضى بقليلنا مع هذه الفتاة، قطف الزيتون في هذه الليلة لن يضر.

ثم أزاح إبراهيم من طريقه وعيناه لا تفارقها.

***

وصل ياسين لغرفة رقية وبدأ في طرق الباب فلم تجب، طرق الباب ثانية فلم تأته أي استجابة. ظنها نائمة بالداخل فقرر العودة لغرفته بقلب يائس، بقلب كان يتمنى أن يكون في انتظارها ليخفف عنها، يجفف لها الدموع، يطمئنها، يشعرها أنها ليست بمفردها، ولكنها في النهاية ذهبت للنوم ولن يراها إلا قبل العملية. دخل غرفته واستلقى على السرير بينما الستائر تتراقص من فعل نسيم الهواء. التقط صورته مع أبلة حنان في عتمة الغرفة، وتأملها

لثوان، ثم أعادها ليسقط رأسه على الوسادة محاولًا النوم في هدوء قبل اليوم الكبير.

***

دخل أحمد سعيد الغرفة ليعتدي عليها بدوره بعد أن تركه إبراهيم، فتشنج جسدها مرة أخرى فارتعب وظنها تحتضر؛ فنهض وانتفض وركض بعيدًا دون أن يغلق الباب، تاركًا رقية ملقاة على الأرض، عارية، محاطة بملابسها بين مقاعد بالية وحشرات نائمة.

***

عند الواحدة صباحًا كانت سارة تجلس عند نافورة المركز الأمامية عندما وجدت سيارة إسعاف تدخل من بوابة المركز الأمامية دون أن تطلق إنذارها. سارت السيارة في مدخل المركز والسماء بين أحمر وأزرق، متراقصان متتابعان دون صراخ ودون موسيقى ودون ثورة تقلق النيام. توقفت السيارة أمام بوابة بناء النزلاء، ليخرج من الداخل ممرضان يحملان رقية على نقالة ومغطاة بغطاء أبيض حتى الرقبة. هرعت سارة نحوهم وهي تردد في رعب:

- ماذا حدث لها ؟.. ماذا حدث لها أخبروني؟

أزاحها أحد ممرضين المركز من طريقه ووضع رقية بداخل السيارة، أغلقوا الباب الخلفي وتحركت السيارة؛ فدخلت سارة في نوبة من البكاء، وقبل أن تطاردهم على قدميها حتى المستشفى جذبتها يد من الخلف.. دكتور أحمد:

- لا تخبري أحدًا يا سارة عن ما رأيتيه حتى نعرف ما حدث.

التفتت نحوه باكيةً:

- أنا أعلم ما حدث.

# (١٥)

تقلبت فاطمة على الفراش قبل أن يفزعها طرق عنيف على باب الشقة، أحدهم يحاول كسر الباب بأداة ثقيلة زلزلت الجدران. انتفضت من نومها مرتعبة تحاول التقاط أنفاسها ولا تستطيع، زادت شدة الطرق على الباب وأحدهم يصيح محتدًا من الخارج «افتحي الباب، افتحي البااب»، نهضت ووضعت يدها على فمها من الرعب ودموعها تنهمر وتسقط على الأرض فحولتها لنهر من الخوف. أحدهم أطلق رصاصة على الكالون من الخارج ودفع الباب بقدمه فانفتح وارتطم بالحائط من قوة دفعته، ظهرت أمٍ فاطمة بعباءتها السوداء وفي يدها سكين مطبخ وبجانبها ابن شقيقتها حاملًا لعصا «شومة» وشاب آخر عريض الجثة يحمل سلاح ناري، اندفعوا للداخل؛ فحاولت الهروب خارج الشقة حتى جذبتها أمها من خصلات شعرها لتسقطها أرضًا؛ فانهارت فاطمة من البكاء فرفع النحيف عصاه للأعلى وضربها على عينها الباكية، ثم راح يركلها في موضع كليتها ركلات متتابعة. أزاحته الأم آمرة في امتعاض:

- اتركها لي.

رفعت يديها مستسلمة دون قدرة على النطق، بينما تسيل الدماء من جفنيها.

- هل ظننت أننا لن نجدك؟

جذبتها للأعلى حتى وقفت على قدميها رغماً عنها خائرة القوى، فحدقت في عينيها الملطخة بالدماء بحدة وتشفي، ثم طعنتها بقوة بين ساقيها، ثم أخرجت السكين وطعنتها أسفل معدتها، وقبل أن تسقط الفتاة أرضًا جذبها النحيف من رقبتها؛ فطعنتها في صدرها مرتين وأخرى في رقبتها وتوالت الطعنات في كل موضع حي؛ فغرقت فاطمة في دمائها، ألقتها على الأرض فضربها النحيف بالعصا مرة أخرى على رأسها. لم تقوَ على الحركة، لم تقوَ على الكلام، لم تقوَ على النظر في أعينهم، حاولت النطق بالشهادة ولم تفلح، انحنت الأم نحوها وهي تتمتم في أذنها:

- لن نعطيكِ شرف دخول القبر.. لن يُصلى عليكِ، ولن تُقام لك جنازة، ولن يقرأ عليكِ القرآن.. ستموتين بنار الدنيا قبل أَن تلتهمك نار جهنم يا ابنة حسني.

ثم نهضت وتوقفت في منتصف الصالون الصغير لتشاهد احتضارها في صمت بصحبة أبناء شقيقتها، أغمضت فاطمة عينيها في طريقها للموت، فانحنت الأم ثانيةً لتصفعها على وجهها الدامي، وتفتح جفنيها بالقوة ليخرج منها أنين يتألم، وصاحت في امتعاض:

- نحن لم ننتهي بعد.

ثم عادت للوقوف لتنتظر صاحب الكلمة الأخيرة، دخل الشيخ حسني من الباب بجلباب أسود حاملًا عبوة بلاستيكة من الجاز وعلبة كبريت، وبدأ في سكب الجاز على الجسد الدامي حتى اختلطت خيوط الجاز بسيول الدم، وأصبحت فاطمة كائن لونه أحمر دامي رائحته كرائحة نسيم ما قبل العاصفة. أخرج أحد أعواد الكبريت وأشعله ثم ألقاه على وجهها، وهو

يردد بحزن وخيبة أمل:

- لعنة الله عليك.. لعنة الله عليـ...

انتفضت فاطمة من السرير وصراخها كاد أن يقتلع حنجرتها، كاد أن يحطمها.

- اااااااااااه.. اااااااااااااااه!

مرة واثنان وثلاث والصراخ لا ينقطع، راحت تطرق على الحائط برأسها وكأنها تحاول تحطيمه ثم تصرخ ثانية، راحت تتحسس جسدها بأصابعها، راحت تتحسس عينيها في الظلام، وجهها، رقبتها، معدتها، أنا بخير، أنا حية، لا زلت هنا، وأبي لا زال ساكنًا في قبره، وأمي ما زالت في منزلها تطلق اللعنات. طرق باب الشقة ثانية، طرقات عنيفة، انتفضت ثانية، سرى الرعب في جسدها من جديد، هذه ليلتي. أحدهم يطرق بقوة، أحدهم ينادي، صوت غير مألوف لا ينذر بالخطر، صوت قلق، جند من جنود الرحمة؟.. قاطع أفكارها منفعلًا:

- من بالداخل؟

حاول كسر الباب بالقوة ولم يفلح؛ فهرعت نحو الباب وفتحته، فوجدها تبكي كالأطفال.

- لقد سمعناك تصرخين، هل أصابك مكروه؟.. هل أنت بخير؟

قالت بنبرة ضعيفة «كابوس» ثم سقطت على الأرض مغشيًا عليها.

***

جلست سارة على حافة النافورة وبجانبها د. أحمد ينظر لها في ترقب. كانت قليلة الكلام كعادتها وبين الكلمة والأخرى أميال وساعات، لسانها أصبح فقيرًا في المصائب لا يتعاطف ولا يكترث ولا يقوى على الكلام إن اكترث، لم تسقط دمعتها ولو لمرة واحدة منذ دخلت المركز ولكنها سقطت هنا والآن؛ بعدما شعرت أن هناك فتاة أخرى ستلقى الموت بفضلها، التفتت ناحيته وصوت النافورة وتراطم المياه يقطع الارتباك من الخلف:

- بالأمس جائني أحمد سعيد، عرض عليّ النوم معًا بما أنها ليلتنا الأخيرة مع ضميرنا الميت مثلما قال، أخبرني أنه يريد النوم معي لأنني صاحبة ماض حافل بالخيانات والعهر، وعندما رفضت قال لي أنه سيضطر الذهاب لرقيّةٍ ليعرض عليها الأمر، وسيفعلها حتى وإن قاومته الفتاة.

تنهد في ضيق:

- ولماذا لم تخبريني بالأمر؟

- لأنه ليس من شأنك.. أنت طبيب نفسي ولست ولي أمرنا.

سادت سحابة من الصمت شعر فيها بالخجل، فأكملت حديثها دون اكتراث:

- توقعت أن ترفض هي الأخرى بدورها، ولكن يبدو أنه أجبرها على النوم معه في النهاية.

قال بنبرة تقريرية:

- أحد العمال وجدها ملقاة على الأرض عارية، كنا نعلم أنها حادثة اغتصاب، ولكننا لم نكن نعلم الفاعل بالطبع.

- والآن تعلم.. ماذا ستفعل؟

خلع نظارته وراح يمسحها بمنديل ورقي، ثم ارتداها مرة أخرى، وقال بنبرة عادية:

- سننظر في الأمر.

قالت في ضيق:

- هذا رد مائع.. ماذا ستفعل؟.. نزيلة واغتصبت في عهدتك.

- ليست هكذا تسير الأمور يا سارة.. لو علم العامة بالأمر ستضيع سمعة المركز ولن يأتي أحد لهذا المكان مرة أخرى، بعد أول شهر لنا في مصر يعرفنا العالم بفضيحة اغتصاب؟ ونحن من نساعد الفتيات على تخطي صدمة الاغتصاب؟

- إذن لن تفعل شيء.. صحيح؟

- يا ليت الأمر بيدي.. كنت سأفعل كل شيء من أجلها.

نهضت من مقعدها وبصقت على الأرض أمامه، وقالت حانقة:

- وستتركونه طليقًا في المركز يغتصب فتاة تلو الأخرى؟ يجب عليك الخجل من نفسك.. إن كنت تخشى أن تساعدها فأنا من سيساعدها.

عادت لبناء النزلاء عازمة الذهاب للداخل؛ فناداها:

- سارة، إن علم أي أحد بالأمر لن يرى وجهك النور مرة أخرى.

التفتت ناحيته وبصقت في الأرض، ثم استقرت في الداخل.

***

جلس الرجل الخمسيني على الأرض يمسح وجه فاطمة بالماء محاولًا إفاقتها، ومن خلفه سيدة سمينة بعض الشيء في الأربعينات من عمرها يبدو وأنها زوجته، أعطته زجاجة عطر صغيرة كانت مستقرة على كوميدينو بالصالون، وضع العطر تحت أنفها فاستفاقت رويدًا رويدا، راحت تتأمل الصالون من حولها بخوف طفلة صغيرة تائهة في أرض جرداء في ليلة اكتمال القمر، فأعاد عليها السؤال:

- هل أنتِ بخير يا ابنتي؟

حاولت النهوض فأخذ بيدها وساعدها على النهوض، لتجلس على إحدى المقاعد وهي تمسح وجهها وتعدل من حجابها بيد مرتعشة لا تقوى على الحركة. أجابته بوجه شاحب وممتقع وصوت متقطع مبحوح:

- أنا بخير.. شكرًا لك.

اقتربت منها السيدة وربتت على كتفها:

- نحن جيرانك في الطابق الثاني، نحن معك إن احتجت أي شيء.. أنت زوجة أستاذ ياسين، صحيح؟

أومأت بالإيجاب في تعب دون أن تعلق.

غادر الزوجان بعدما شكرتهما، فوجدت الباب يطرق ثانية بخفة مألوفة في هذا الوقت من الليل، نظرت للساعة فوجدتها الواحدة والنصف صباحًا، فنهضت وفتحت الباب مرة أخرى، فلم تجد إلا ورقة جديدة على الأرض، التقطتها وهي تلعن الدنيا وما فيها ودخلت وأغلقت الباب.

فتحت الورقة بعصبية غاضبة لتقرأ ما فيها:

«اهربي يا فاطمة.. قبل أن يحين وقتك».

كورتها وألقتها بعصبية في القمامة، ثم أسندت راحة يديها على فخذيها وهي تردد في عصبية:

- اهرب أنت يا ياسين قبل أن يحين وقتك ووقت من تحب.

***

نوفمبر ٢٠٠٩

«أبلة حنان لن تأتِ اليوم أيضًا».

قالتها معلمة أربعينة جاءت لتغطي مكان حنان في حصتها لليوم؛ فانمحت من وجهه أثار الحياة فاستكان في مقعده في يأس. كانت المعلمة البديلة مشغولة في القراءة من مصحف صغير، وانشغل بقية التلاميذ في الأكل والحديث، ولكن كل ذلك لم يشغل ياسين في شيء، عندما يأس من الانتظار وحاول النوم في الحصة سمع همس يأتي من مقعد ليس بالبعيد «يا خسارة . لن نرى مؤخرتها اليوم.. لا تقل ذلك وأنت معي.. لماذا ؟.. هناك أكثر من خمسون صورة لها من الخلف في الهاتف ولكن المشاهدة ليست بالمجان.. خذ كل ما معي أريد رؤية كل الصور».. عرف ياسين مصدر الهمس فراقبهم من بعيد، تلميذان يشاهدان بعض الصور لأبلة حنان على هاتف نوكيا الدمعة يخص أحدهم. صور التقطها لها وهي مشغولة في الرسم على الحائط، أو في الحديث مع أحد التلاميذ، حتى أنه لاحظ صورة له وهو

يتحدث معها. توجه لمقدمة الفصل وأخذ العصا من أمام المعلمة فتركت المصحف وسألته حانقة:

- ماذا تفعل يا زفت؟

استمر في طريقه حاملًا العصا في يده، ثم فجأة انهال بها ضربًا على وجوه الاثنين فصرخا من الألم وسقط الهاتف على الأرض، استمر في ضربهم علي الوجه وفي الظهر وفي الرقبة؛ فهرعت المعلمة صائحة وخطفت منه العصا، وقبل أن تجذبه من ياقته الخلفية دفعها ليلتقط الهاتف من الأرض، وصاح فيها «ابتعدي عني.. أريد رؤية المديرة».. دخل الاثنان في نوبة من البكاء الهستيري لا تليق بمراهقين ما هي إلا شهور قليلة حتى يلتحقا بالجامعة. خيوط من الدماء احتلت وجهيهما لتختلط بالدمع، أما هو فكان ينظر لهم في احتقار كان كافيًا لتحويلهم إلى رماد عفن. «هاتفي!» قالها أحدهم بصوت باكٍ متألم، فتجاهله ياسين وذهب للمديرة بصحبة المعلمة التي لم تفهم أي شيء من ما حدث.

وصل لمكتب المديرة وفور دخوله رفع الهاتف في وجهها صائحًا بنبرة لا تناسب عمره ولا تناسب قيمة من يحدثها:

- تلميذ يصور معلمته من الخلف.. ما رأيك يا مديرة المدرسة؟

نظرت للمعلمة دون أن تفهم شيء هي الأخرى فلم تجبه، أشارت له بأن يعطيها الهاتف فاقترب منها والغضب لا يفارق وجهه، وراقبها وهي تتفحص الصور في هدوء تام دون أي معالم للصدمة، ثم سألت بذات الهدوء:

- من فعل ذلك؟

- تلميذ يدعى خالد.

- فصل نهائي من المدرسة.

خرجت المعلمة عن صمتها وعقبت بدورها:

- هذا الطالب الذي أمامك ضرب خالد وتلميذ آخر بالعصا في حضوري.

رمقها باستحقار:

- يستحقا ذلك.. أم لديك رأي آخر؟

انفعلت المديرة وهي تضع الهاتف جانبًا:

- ولد.. احفظ لسانك .. أنت لست في الشارع ، أنت تقف في مكتب المديرة.

تمالك نفسه وحبس كلامه، فأعادت المديرة السؤال بدورها:

- هل ضربت زملائك في الفصل بالعصا؟

أجابها في تحدٍ:

- نعم فعلتها.. وسأفعلها ثانيةً إن اضطررت لذلك.

قاطعته منفعلة:

- اخرس.. استدعاء ولي أمر وفصل أسبوعين من المدرسة، هذا ما كان ينقصنا!

لم يهتم للعقاب واكتفى بنصره الصغير، وقبل أن يغادر الغرفة أيقن أنه لن

يرى أبلة حنان لمدة اسبوعين آخرين، ثم زاد قلقه لأنه لا يعلم متى ستعود ومتى ستشفى من مرضها. أراد الذهاب لمنزلها لمرة أخرى، ولكن تراجع عن قراره في اللحظة الأخيرة حتى لا يسمع موعظة جديدة عن فوائد وجود الأم، التفت للوراء وسأل المديرة بنبرة مستضعف:

- هل ستعود أبلة حنان قريبًا؟

نظرت له من تحت نظارتها:

- ليس من شأنك.. مفهوم؟

غادر المدرسة وسار في الشوارع بغير هُدًى، لن تصدقه أمه إذا أخبرها بما فعله، لن يصدقه أحد، هو حتى لا يصدق نفسه، لقد فعلها وانتقم لشخص يحبه لأول مرة في حياته. سار وهو يحمل في يده ورقة استدعاء ولي الأمر كحامل ميدالية ذهبية في الأولمبياد، كانت المرة الأولى له في حياته التي يطلبون فيها رؤية ولي أمره؛ فشعر بنصر آخر وكأنها الورقة التي ستثبت للعالم أنه فعل شيء سيء في يوم ما، هذا مستند رسمي وشهادة موثقة تثبت انني لست جبان أيها العالم القاسيً الوضيع. سعادة الدنيا عندما تعلم أنك أغضبت أحد فيقرر معاقبتك، العقاب الأجمل في العالم عندما يعلم الجميع أنك فتًى شقي ومزعج، ليست ورقة استدعاء ولي أمر بل تأشيرة الدخول لعالم الصعاليك الجميل. عاد للمنزل أخيرًا وأعطى الورقة لأمه وعلى وجهه ابتسامة بلهاء وفخر كبير. راحت تتفحص الورقة ثم ترمقه بنظرات استفهام، ثم تعيد النظر للورقة مرة أخرى فصاح في الشقة متحمسًا:

- يسرا.. يسرا.. لقد ضربت أحدهم.. بل اثنين، ضربتهم بالعصا ونزفا دمًا.. جعلتهم ينزفون بسببي.

أجابته من داخل غرفتها بنبرة مرتفعة:

- هنيئًا لك يا بطل.

- غدًا سيأتي دور حسان.. أعدك بذلك.

أعادت له الورقة بقوة إلى صدره ساخرة:

- سنرى يا نذير الشؤم.

***

فجر الثلاثاء

٣ يوليو، ٢٠١٨

«الصلاة خير من النوم.. الصلاة خير من النوم»

أذن الفجر على ياسين المستيقظ حتى الرابعة فجرًا محاولًا جمع شتات رأسه قبل اليوم الكبير، نهض من السرير وتوقف عند الشباك يتأمل أبنية المعادي البعيدة تحت سماء الفجر، ثم ارتدى بعض الملابس وخرج للصلاة لأول مرة منذ مدة ليست بالقليلة، لم يكن من المترددين على الصلاة إلا في ساعات الحيرة والقلق والخوف، أما غير ذلك فكان يكتفي بالدعاء الصامت. كانت الإضاءة خافتة في ممر الطابق الثاني فهبط للطابق الأرضي ولم يجد أي أحد، مجرد ساحة من الفراغ لا يسكنها نور ولا بشر. راح يتمشى بين الأروقة فوجد باب مدون عليه «المسجد» أدار المقبض في حرص شديد حتى لا يُصدر أي صوت فانفتح الباب، فوجد ثلاثة من العاملين بالمركز

يصطفون للصلاة، ألقى عليهم السلام ثم اصطف خلف الإمام وما هي إلا دقيقتان حتى انتهت صلاتهم؛ فانسحب للخلف وجلس عند ركن في أقصى زوايا المسجد وفي يده مصحف صغير. لم يُنهي القرآن في أي مرة من قبل حتى في أيام رمضان الثلاثون لم يفعلها، ولكن كان في قرارة نفسه احتياج لأن يسلم نفسه لله طمعًا في توفيقه. ظل في المسجد بمفرده يقرأ في أدب وخشوع، عيناه لا تفارق أوراق المصحف وقلبه لا يفارق معانِ الكلمات، وبين السورة والثانية يحدث الله قليلًا ويخبره بما يؤرق روحه وقلبه بدموع لا تشبه سابقتها.

عند الخامسة صباحًا كان قد بدأ يشعر بالنعاس؛ فوضع المصحف جانبًا وتحرك للخارج في هدوء، صعد درجات السلم فوجد صوت أنثوي يناديه من الخلف:

- ياسين!

التفت للخلف فوجدها سارة، فحياها في كسل:

- صباح الخير يا سارة.

مبتسمةً:

- صباح النور.. ماذا تفعل في هذا الوقت؟

- لا شيء.. كنت أصلي.

تقدمت خطوة للأمام وسألت في قلق:

- هل أنت بخير؟

أومأ بالإيجاب، وقبل أن يكمل صعوده باغتته في عفوية مندفعة:

- أنت تحب رقية.. صحيح؟

نظر في ساعته وأجابها بكسل حانق:

- حقًا؟ .. هل هذا هو الوقت الأمثل في اعتقادك؟

اقتحمت زقزقة العصافير حديثهم فجأة لتعلي من سطوة الكسل والنوم، فراحت تطبق شفاهها بعصبية محاولة منع لسانها من ارتكاب مصيبة، لسانها الذي لا ينطق ثلاث مرات في الشهر الآن يشعر بحاجته في تفريغ كل ما بداخله في أقرب أذن صالحة للسمع؛ فارتبك من حركة شفاهها:

- أنتِ بخير؟

أومأت بالإيجاب وشفاهها لا تهدأ، فأعطاها ظهره وأكمل صعود الدرجة، فركض لسانها بعد ثانيتين لتقول بنبرةٍ عالية:

- لا تتعلق كثيرًا.

# (١٦)

«على مجموعة دكتور أحمد مكرم التواجد في الصيدلية بالطابق الأرضي للضرورة».

كانت الثانية عشر ظهرًا عندما اصطف ياسين مع البقية أمام نافذة زجاجية بالطابق الأرضي، تجلس من خلفها سيدة أربعينية بوجه حديدي جامد، وتستقر أمامها مجموعة من الكبسولات والبراشيم وأكواب بلاستيكية فارغة. لاحظ ياسين عدم وجود رقية ولم يجد من يسأله عنها، ربما ما زالت نائمة في غرفتها على غير العادة. كانت سارة هي الأولى في الصف فناولتها الطبيبة برشامة صغيرة وبعض الماء؛ فنظرت للبرشامة ثم رمقتها ممتعضة:

- ما هذا؟

- ارجعي لطبيبك.

كانت أجابتها قصيرة ومقتضبة، ولم تهتم لتوضيح أي شيء؛ فخرجت سارة من الصف لتبحث عن دكتور أحمد، بينما أخذ فتحي جرعته في صمت، ثم كريم شوقي، ثم أحمد سعيد، وياسين، بينما رفض إبراهيم تناول جرعته أو حتى الوقوف في الصف كالبقية. وصل دكتور أحمد وفي يده فنجان بلاستيكي من القهوة، ثم نظر لسارة وإبراهيم في نظرة استفهام:

- ما الأمر؟

- نحن لسنا بمصحة حتى تجبرونا على تناول البراشيم ونصطف في طابور كما الخراف.

- نحن لم نقول أنها مصحة.

- إذن ما الأمر؟

أخذ رشفة من القهوة، ثم وضع الكوب جانبًا:

- من أجل نجاح العميلة يجب استقرار نسبة الجابا والسيروتونين في الجسم، نحن لن نجازف مع عقل غير هادئ.

تقدم إبراهيم خطوة للأمام عازمًا الفتك بالطبيب محذرًا:

- هل ستخبرنا بالسبب بلغة نفهمها أم تحب أن نحشر هذا الكوب في حلقك؟

ابتلع ريقه:

- نحن نعطيكم مهدئات يا إبراهيم حتى نستطيع العمل على عقولكم دون مفاجآت، هذا الأمر لمصلحتك.

عادت سارة أمام النافذة والتقطت الحبة، ثم لوحت بها للدكتور في الهواء غاضبة:

- زانكس؟.. هل تمزح معي؟ أنت تعلم جيدًا أنني أقلعت عن إدمانه بالكاد.

- من فضلك يا سارة، تناولي جرعتك.

لم يخرج منها رد فعل؛ فخطف إبراهيم الحبة من يدها وابتلعها ثم انصرف؛

فأشار دكتور أحمد للممرضة خلف النافذة لتعطيها حبة أخرى، وفي أثناء تناولها للحبة خرج ياسين عن صمته:

- أين رقية يا دكتور؟.. أنا لم أرها اليوم.

ابتسمت سارة ساخرة بينما ابتلع أحمد سعيد ريقه دون أن يراه أحد. ظل دكتور أحمد هادئًا ثم أجابه بنبرة عادية:

- رقية قررت الانسحاب من البرنامج العلاجي، وقررت استكمال رحلتها بالأدوية مع طبيب نفسي.

سارة ساخرة:

- حقًا؟

أومأ واثقًا بالإيجاب؛ فعاد ياسين خطوة للوراء منسحبًا ليجلس على إحدى مقاعد الانتظار برأس منتكس. أنا من تركتها بالأمس، لم أنتظرها ولم أكن بجانبها بعد الجلسة. رقية حساسة وبالطبع رحلت بسبب ذلك لأنها تكره الوحدة، لن أعود لفاطمة تلك في النهاية، لا لن أعود. راح يحدث نفسه ملقيًا اللوم على غيابه، بينما يرمق أحمد الواقف بعيدًا بصحبة سارة في احتقار.

- سأخبر ياسين بما حدث!

حذرته سارة، فأجابها أحمد سعيد بلا مبالاة:

- وماذا سيفعل بي هذا الصرصور؟ أنا وأنت بعد العملية سننسى كل ما حدث في الأمس، جميعنا سننسى.. حتى رقية ستنسى.

- لن يحدث.

وضع يده على رقبتها في خفة:

- أنتِ تسببتِ في انتحار فتاة وحطمتِ عائلة بأكملها، الآن تكترثين لمؤخرة فتاة نحيفة؟

أزاحت يده متنهدة:

- يا ليتني أعلم ماذا فعلت أنت في حياتك حتى يستوي مصيري بمصيرك!

ربت على كتفها الأيسر:

- انسى الأمر يا صديقتي واهتمي بنفسك فقط.

- إذا تحدثت الفتاة سيكون مصيرك السجن يا سعيد، حتى وإن نجحت عمليتك وتخلصت من هراء عقلك.

ضاحكًا:

- هل سمعت عن فتاة في هذا البلد تحدثت من قبل؟

لم تجبه.

- فعلتها من قبل مع سبعة.. أو ثمانية .. صحيح، رقية هي الثامنة.. هل حدث لي أي شيء؟ هل كريم شوقي الذي قال أنه اغتصب فتاة قاصر هل حدث له أي شيء؟.. هل دكتور أحمد حامي الضعفاء الذي أخبرتيه بالأمس فعل أي شيء؟

- هل أخبرك؟

حك أنفه:

- جاء ليحذرني إذا فعلت ذلك مرة أخرى لن يحدث لي خير، عندما سألته عن ما سيحدث لي بالظبط إذا كررتها لم يخبرني وانصرف.. انصرف يا سارة يا رقيقة القلب.

ضغطت على شفاهها السفلى بأسنانها، ثم انسحبت في هدوء عائدة لغرفتها بخيبة أمل، فخرج صوت المذيع الداخلي من جديد:

«على الأستاذ أحمد سعيد من مجموعة دكتور أحمد مكرم الصعود للطابق الثالثة لإجراء فحوصات ما قبل العملية.. على الأستاذ أحمد سعـ...».

استمع سعيد لاسمه فابتسم ابتسامة بلهاء، متمتماً بحماس وفخر:

- ها وقد حان دوري في النسيان.

***

رمى ياسين نظرة على شاشة عرض مستقرة بجانب مكتب الاستقبال مدون عليها جدول العمليات، ووجد اسمه مجدول عند الساعة الرابعة مساء؛ فصعد لغرفته مرة أخرى، وجلس على سريره متناولًا صورته مع أبلة حنان وهو يحدث نفسه، أو يحدثها على أمل أن تسمع له! ثم وضعها على سطح الكوميدونو مرة أخرى، تنهد غاضبًا ثم أطاحها بيده؛ فسقطت على الأرض ليتحطم زجاج البرواز كاملًا لتخرج الصورة من بروازها عارية، وتنعكس الإضاءة على سطح الصورة فتغطي على وجه حنان بالكامل. استلقى على السرير محاولًا جمع شتات نفسه، فاستمع لطرقات خفيفة على الباب. لقد أتت رقية مرة أخرى، بالتأكيد هي رقية، لن تتخلى عني، ولن تتركني وحيدًا بالطبع، سنرحل معًا من هنا ونكمل العمر سويًا في حب وسلام، لقد أتت

أجمل ما حدث في حياتي. نهض مسرعًا وفتح الباب؛ فوجدها سارة بوجه ممتقع شاحب فقطب جبينه مندهشًا، كانت تحمل في يدها ورقة بيضاء مطوية بعناية.

- كيف حالك يا ياسين؟

- ما الأمر ثانية؟

أعطته الورقة:

- أريدك أن تفتح هذه الورقة بعد العملية.

تناول الورقة ونظر لها في ريبة:

- ماذا تحوي هذه الورقة؟

- أريدك أن تقرأها ولكن بعد العملية.. ليس الآن يا ياسين.. هل فهمت؟

- ولماذا لا أقرأها الآن؟

- لا يوجد ضمان أنك ستتذكر ما قرأته بعد العملية.

وضعها في جيب بنطاله:

- دكتور أحمد أخبرنا أن احتمالات فقدان الذاكرة ليست كبيرة.

تنهدت:

- لا تجادلني يا ياسين من فضلك.. وحظ سعيد في عمليتك.

- وأنتِ أيضًا يا سارة.

رحلت فأغلق الباب مرة أخرى وعاد للاستلقاء على فراشه، وما إن

لامست رأسه الوسادة حتى سقط في النوم.

***

عند الواحدة مساء كان قد خرج أحمد سعيد من غرفة العمليات متوجها لغرفة النقاهة، غرفة يجلس بها المريض لنصف ساعة أخرى بعد العملية بعيدًا عن أي مصادر للضوء أو لصوت حتى يهدأ المخ بعد حفلة الشواء بالليزر التي حدثت في العمليات. كانت رائحة رأسه في رائحة طور مسلوخ في المذبح، ورغم ذلك كان يمشي هادئًا في الممر مع الممرض المصاحب. خلى الممر من أي زملاء؛ لأنهم جميعهم راحوا في النوم بعد المهدئ ولم يتبقَ أحد ليسأل. استلقى أحمد سعيد على الفراش، جميع ستائر الغرفة مغلقة وجدرانها مبطنة، تمنع دخول أي صوت حتى الممرض المصاحب لم يتفوه بكلمة واحدة. انفتح الباب فدخل دكتور أحمد ليطمئن على أحمد سعيد، ونظر في عينيه طويلًا، استمر السكون لثوان، العين في العين ولا حديث يذكر. تركه دكتور أحمد وخرج للممر، استند على الحائط في يأس من أضاع فرصته الأخيرة في الانتقام. رفع الهاتف واتصل بأحدهم ليجيب الطرف الآخر بعد رنة واحدة:

- كيف حالها الآن؟

- ليست بخير.

- ما هو التشخيص؟

- تمزق في الشرج، وبعض الكدمات بمنطقة الصدر والرقبة.

- هل هناك شيء آخر؟

- نعم.. ستقوم بإجراء بعض الفحوصات الخاصة بـ HIV

- هل لمحت أنها ستقوم بأي إجراءات قانونية ضدنا؟

- دكتور أحمد.. الفتاة تعاني من اضطراب ما بعد الصدمة، وهناك بوادر صمت انتقائي، ولا أعتقد أنها ستنطق بأي كلمة قريبًا.

أنهى المكالمة وجلس على الأرض لدقائق واضعًا رأسه بين ركبتيه، ولم يدرك مرور الوقت إلا عندما خرج أحمد سعيد من غرفة النقاهة بوجه جديد . اقترب من دكتور أحمد فرفع الآخر رأسه ونظر في عينيه مرة أخرى لثوانٍ، فبادره سعيد بالحديث:

- شكرًا لك يا دكتور.. أشعر بداخلي أنني أصبحت إنسان آخر.

بخيبة أمل:

- على الرحب.

نهض دكتور أحمد وراقب أحمد سعيد بينما يرحل ويختفي عن الأنظار، فتصفح ملف كان بيده ووجد اسم سارة مدون؛ فعاد لغرفة العمليات ليستقبلها على الباب وتبدأ عملية تعديل جينات أخرى.

***

كان إبراهيم عزام يسبح في حوض سباحة يستقر في ساحة البناء الخلفية مرتديًا ساعته الرولكس تحت الماء. اقترب من حافة الحوض وأخرج سيجارة كانت مستقرة بعلبته وشرع في تدخينها بينما يستجم في الماء. لاحظ مرور أحمد سعيد بجانبه؛ فناداه؛ فأتاه سعيد بملامح عادية، فسأله إبراهيم وكأنه

يقوم بتجربة شيء ما:

- هل تعرفني؟

ضحك سعيد:

- ما هذا يا إبراهيم، ما زلت تمارس ألاعيبك؟

نفث دخان سيجارته:

- هل تذكر ما فعلناه بالأمس يا سعيد؟

ابتسم ملوحًا بعدم الفهم:

- ماذا فعلنا بالأمس؟

انتظرإبراهيم لثوان، ثم ابتسم بخبث:

- لا شيء يا صديقي.. هزمتك في لعبة صغيرة.

- لا أتذكر.. ولكن هناك لعبة كبيرة لم نلعبها بعد.

- وما هي؟

- هناك جائزة على رأسك، أرنب.

دخل إبراهيم في نوبة سعال مفاجأة، ثم ألقى السيجارة بعيدًا وصاح منفعلًا:

- ما هذا الهراء.. نسيت كل شيء ولم تنسَ هذا الأمر؟

ضاحكًا بسخرية:

- وكيف أنسى؟

خرج إبراهيم من الماء وجفف نفسه بينما يحدث سعيد:

- أنت لم تخبرنا بعد لماذا أتيت إلى هنا في المقام الأول.

ربت على كتفه:

- من يعرفني لا يراني مرة أخرى.

لم يعقب فحياه سعيد وانصرف، فقال إبراهيم بنبرة عالية:

- أنت حقًا لا تتذكر لعبتنا الصغيرة بالأمس يا سعيد.. صحيح؟

التفت له:

- ذكرني أنت.

- كان الاتفاق أنك لن تخبر أحد بمكاني.

تقدم سعيد خطوات نحوه مرة أخرى، وتحدث بنبرة عادية:

- أنت قتلت ثلاثة شباب في عمر الزهور، بالطبع سأخبرهم بمكانك.

دفعه صائحًا:

- يا ابن الكلب، سأخبر الجميع أنك اغتصبت فتاة بالأمس.

- إذن.. الفتاة هي اللعبة الصغيرة التي هزمتني فيها.. امم.. يبدو أننا اغتصبناها سويًا.

جذبه من قميصه مهددًا:

- أنت لا تعرف من هو إبراهيم عزام، لا تنسى نفسك.

أزاح يده، ثم عدل من وضع قميصه، وقال في هدوء تام:

- أنا أحمد سعيد.. العقرب، وأنت إبراهيم عزام.. ظابط.. مفصول.. وصعلوك، قتل ثلاثة شباب بعدما رأوه يقايض شيخ أسواني في شحنة مساخيط.. أليس كذلك؟

أزاح يد إبراهيم مستطردًا:

- قتلتهم من أجل هدايا مقبرة؟.. مثير للشفقة يا صديقي.

ابتلع ريقه مرتين متمتمًا بنبرة مسموعة كمن يؤكد المعلومة:

- العقرب!

قبض على رقبته بقوة وظل قابضًا عليها لما يقرب من ثلاثين ثانية فانكتم صوت إبراهيم، ثم ألقى به في حوض السباحة، وعندما طفا إبراهيم على سطح الماء راح يسعل بقوة ويبصق في الماء، أما سعيد فرحل واختفى عن الأنظار، ثانيةً.

***

كانت سارة نائمة تحت الجهاز الذي يشبه السونار في غرفة العمليات، وراحت تتبع تحركات دكتور أحمد بعينيها، ثلاثة أطباء يجلسون على حواسب يدونون بعض الأشياء ويسجلون بعض التقارير، بينما عاد دكتور أحمد ومال نحو سارة التي بدت خائفة ومتوترة؛ فقبضت على يده ورعشة طفيفة تسري في أعصاب يدها، وقالت بنبرة منكسرة:

- أنا لا أريد أن أنسى ما حدث لرقية.. أرجوك لا تدعني أنسى.

جذب مقعد وجلس قبالة رأسها، وقال بحزن يغطي وجهه:

- لن يفيدك التذكر يا سارة؛ ضميرك سيظل يطاردك حتى نهاية العمر.. أنا آسف.

شرعت في البكاء وبدأت دموعها تغطي وجنتيها؛ فقبضت على يده بقوة أكبر:

- أرجوك.

نهض من المقعد وأزاحه بعيدًا، وقال بضمير يقتل صاحبه:

- سلمي أمرك لله!

ثم بدأ في تعبئة حقنة صغيرة وغرزها في عروق يدها وعيناه المعتذرة لا تفارق عينيها الباكية. لحظات وتوقفت الدموع، توقف صوت البكاء، سكنت عيناها، ظلام.

***

عند بوابة المركز الرئيسية انفتح الباب على مصرعيه ودخلت سيارة ليموزين سوداء بزجاج أسود لا يكشف عن من بالداخل. قطعت السيارة الممر ودارت حول النافورة وتوقفت أمام مبنى النزلاء، خرج السائق من السيارة وفتح باب السيارة الخلفي ليخرج الدكتور إسماعيل محفوظ بوقاره وهيبته. عدل من وضع أكمام بذلته ورابطة عنقه ثم صعد درجات البناء الثلاث ودلف إلى صالة الاستقبال. تسمر المرضون في أماكنهم وعلى

وجوههم ابتسامات بشوشة فلوح للجميع ثم استقل الدرج للطابق الثالث، دفع بوابة غرفة العمليات فوجد سارة مخدرة بينما يقوم الأطباء بعملهم. خلع بذلته وعلقها على أحد المقاعد فقابله دكتور أحمد وصافحه ودعاه للجلوس، أخرج دكتور إسماعيل هاتفه وراح يتصفح شيء ما، ثم أدخل الهاتف في بنطاله مرة أخرى، وبادر بنبرة قلقة:

- ما أمر حادثة الاغتصاب تلك؟

بلع ريقه وأجاب مرتبكًا:

- أحد النزلاء قام باغتصاب نزيلة لدينا تدعى رقية نبيل.

قطب جبينه وكأنه يحاول تذكر شيئًا ما:

- اغتصاب؟

- نعم.

- هل وصل الخبر لأي أحد؟

- لا يا دكتور.. وهي تحت العناية الآن بإحدى مستشفياتها.

- حسنًا.. لا توجد مشكلة، سنتدبر أمر هذا النزيل.

تنهد يائسًا:

- أخشى أن أخبرك أن هذا النزيل لا يمكن المساس به.

مندهشًا:

- العقرب؟

- أخبرتك يا دكتور أن لا تجعلها تتدخل في عملنا، لقد أدخلتنا في ورطة عندما ضمت هذا المجرم للمركز والآن ها هي النتيجة، اغتصاب.

جلس دكتور إسماعيل وراح يفكر في شيء ما، وبدى وكأنه يحدث نفسه بينما يلقي نظرات سريعة على جسد سارة النائم:

- إن لم نجد حل لهذه المشكلة اليوم سينتهي عملنا في مصر قبل أن يبدأ.. لا أحد يعرف أنها تشاركني في أسهم المركز.

جلس دكتور أحمد بجانبه بوجه مرتبك يائس، والثلاثة أطباء يمارسون عملهم في صمت تام، وسارة ما زالت نائمة تحت أثر المخدر، ثم تحدث دكتور إسماعيل فجأة بصوت لا يسمعه إلا د. أحمد مكرم:

- إبراهيم عزام هذا ما زال لدينا صحيح؟

- نعم.. ما هي خطتك؟

- هذا الفتي الذي يدعى ياسين.. أفكر في استخدامه لقتل إبراهيم، ألم تخبرني في التقرير السابق أنه يميل نحو تلك الفتاة؟ وإبراهيم هذا أظن أن هناك جائزة على رأسه.

أشار له بعلامات الرفض:

- لا.. لن أفعل ذلك، ابقيه خارج مخططاتك.. هذا الفتى هو مشروعنا، لا توجد حالة في العالم مقياس شجاعتها ٢ EC وإذا عالجناه سيرتفع اسم المركز عاليًا.. لا تنسى يا دكتور أنك جئت للمركز الآن حتى تشرف على عمليته.. أنت طبيب عالمي كبير وهذه ليست أخلاقك ولا مبادئك.

قاطعه مستنكرًا:

- هل لديك حل آخر يا أحمد؟.. هل كنا سننجح في مصر دون تدخلها؟.. إما أنّا نتبع الفضيلة ونلاقي الشارع غدًا أو أن نحافظ على مشروعنا.. يا سيدي الفاضل، مصر مليئة بالمرضى والمجانين، لن نتعب في العثور على فأر تجارب آخر.

قاطعه:

- يادكتور.. هذا الفتى ينتمي لعائلة مفككة لا تحبه ولا تريده.. أهكذا تكون نهايته؟ قاتل؟.. وفي قضية لا تخصه؟

نهض د. إسماعيل غاضبًا:

- افعل ما أمرتك به يا أحمد.. وإن لم تفعله فلا تسألني عن مصيرك في المستقبل، لا تنسى أنك أصبحت الآن تعلم كل شيء.

- هل هذا تهديد يا دكتور؟

- ليس تهديد.. يمكنك أن تدعوه توضيح للصورة.

ثم نظر في ساعته فوجدها الثالثة؛ فارتدى جاكت بذلته مرة أخرى:

- سأذهب لعمل جولة في المركز وسأعود في الرابعة.. أريد لهذا الأمر أن ينتهي اليوم.

ثم فتح الباب وانصرف.

***

استيقظ ياسين وجلس على السرير لثوان في حضرة ضوء الغرفة الذهبي

الخافت أثر انعكاس الشمس على الستائر، وجد الصورة ما زالت ملقاة على الأرض، ومن ناحية أخرى أيقن أنه لا يمتلك صورة ليسرا منذ غادر المنزل قبل سبعة أعوام، ولا يعرف كيف تبدو الآن، ولا أي شيء عن شكل حياتها. الأمر الوحيد الذي يعرفه كان رقم هاتفها الذي لم يجرؤ على استغلاله إلا في مرات قليلة آخرها محاولة في السادسة صباحًا بينما الشعب نيام. تحسر على حاله، ووحدته، ورقية التي لا يعرف أين هي مثل حنان التي رحلت دون وداع، ويسرا التي رحل عنها دون أن يعانقها. قصص لم يشهد نهايتها وكل ما خرج به من الدنيا كان مجرد بدايات خالدة.

ارتدى ملابسه وتوجه لغرفة العمليات فصافحه د. أحمد في تعب، دعاه للجلوس قليلًا لإجراء بعض الفحوصات قبل بداية العملية. لم يتمكن د. أحمد من التركيز؛ فجعل أحد الأطباء المصاحبين يستكمل الفحوصات بدلًا منه، وخرج من الغرفة ليغسل وجهه ونظارته، ثم نظر في المرآة طويلًا بوجه شارد. مرت ثوانٍ ويأبى التخلي عن انعكاسه في المرآة، حتى رن الهاتف فأدرك أن الساعة أصبحت الرابعة، عاد للغرفة بخطوات سريعة فوجد د. إسماعيل يصافح ياسين ويتودد له، أخذ ياسين لينام تحت الجهاز وجلس بجانبه ليُملي عليه بعض التعليمات.

- اليوم سنحاول رفع معدل شجاعتك ل VEC ، سيأخذ هذا الأمر عشرة دقائق ستكون نائم فيها لا تحلم بشيء، بعدها سينتهي عملنا وستجد نفسك في منتصف الحلم، ردود فعلك داخل الحلم هي نتيجة العملية. بعد خروجك من الحلم سنصطحبك لغرفة النقاهة، ستستريح في الداخل لمدة لا تقل عن نصف ساعة حتى يهدأ عقلك بعد كمية الليزر التي ستسلط على

رأسك، وإن شاء الله تعود لحياتك وتتحقق أحلامك بعد ذلك يا ياسين.

ألقى نظرات سريعة على الجهاز وهو يتمم بصوت يسمعه د. أحمد فقط:

- في المرة السابقة كاد الحلم يقتلع قلبي من مكانه.

- اطمئن، أنت من سيقتلع القلوب في هذه المرة.

ضاحكًا بدبلوماسية:

- أتمنى ذلك.

ناوله أحد الأطباء الحقنة وقبل أن يغرزها في عروق ياسين سمى الله وتمتم ببعض الآيات القرآنية ثم غرزها، فالتقت عيناه بعين ياسين مشفقًا على حاله؛ فقابله ياسين بابتسامة خلاص قبل أن يغادر الغرفة وينطفأ النور رويدًا رويدًا حتى أصبح حاضره ظلام.

## ( ١٧ )

تحت قبة قلعة صلاح الدين الأيوبي جلس الوالي على العرش بين حاشيته في انتظار وصول المدعوين احتفالًا بتنصيبه حاكم جديد لمصر، كانت ملابسه غريبة لا تناسب المنصب ولا تناسب العصر، كان يبدو أنه لا يعرف عن تاريخ هذا الوطن الكثير؛ فارتدى بذلة عسكرية سوداء حديثة يمر من كتفها الأيسر لخصرها الأيمن شريط أحمر لامع، ويحمل في يده سوط من الجلد يصل طوله لمترين، وعلى رأسه طربوش أحمر قصير، وجه في ريعان شبابه ولحية في كثافة لحية الخديوي توفيق.

نهض الوالي من العرش؛ فنهض جميع المدعوين احترامًا، وقال بصوت أجش آمرًا:

- افرغوا الساحة!!

فرغت ساحة القلعة من أهلها واصطف الضيوف على الجانبين انتظارًا لكلمته القادمة، ثم جلس على عرشه ثانيةً وأشار نحو فتاة في عمر المراهقة ترتدي فستان أبيض من القماش مكشوف الكتفين ومطرز بالزهور. تحركت الفتاة نحو الوالي، قبلت يده ثم أشار لها للجلوس على يمينه، ثم أشار لامرأة خمسينية تصطف مع الحضور للقدوم هي الأخرى، وما إن أصبحت أمامه حتى نهض وانحنى لها ليقبل يدها، ثم أشار لها للجلوس على يساره.

دخل الساحة جندي بملامح جادة متأهبة لأمر ما، انحنى لحاكم مصر

المحروسة، ثم قال بصوت يهز الصخر:

- ياسين باشا والي مصر.. لقد وصل المدعوُّون.

نهض ياسين باشا ودنو إلى الساحة وصاح آمرًا:

- اغلقوا الأبواب.

ثم التفت للفتاة وقال بصوتٍ حانٍ:

- يسرا.

ثم التفت للسيدة الخمسينية وقال بذات النبرة:

- أمي.. اليوم سيعود الحق لأصحابه.

دخل أربعة جنود يحملون غرفة حديدية بطول مترين تشبه الكبسولة ثم وضعاها على قاعدتها، اقترب ياسين وفتح بابها فكشف عن ثورة من مسامير حادة طول المسمار الواحد عشرة سنتيمترات، ثم دخل جندي حاملًا قطعة خشبية ممتدة من الجانبين تكفي لاحتواء يد بشرية، ثم دخل جندي ثالث يحمل صليب في نهايات أطرافه حلقات جلدية مهيأة لتكبيل أطراف ساكنيها. صاح في الحراس:

- ادخلوااا عمي.

دخل رجل وجهه مشوش بملامح لا يمكنك تبين تفاصيلها وكأنها لوحة غير مكتملة، جذبه ياسين من رقبته وهمس في أذنه متشفيًا:

- الأمس كان يومك و اليوم هو يومي، أمامك ثلاثة خيارات للموت، اختر واحدًا.

لم يتفوه الرجل بأي كلمة، حتى عيناه لم تتحرك وظلت ثابته، وكأنه مجسم بشري صامت رديء التصميم فصاح ياسين في حراسه:

- بساط الريح.

أخذوه ووضعوه على القطعة الخشبية من الوضع نائمًا، ثم ثبتوا نهايات أطرافه، ومن ثم قاموا بثني القطعة حتى أصبحت قدماه في مقابل وجهه. رفع ياسين السوط في الهواء وهوى به على جسد الرجل ورأسه وقدمه، وظل يحطم ضلوعه ويمزق في الجلد حتى أصابه الملل، فصاح في الحراس ثانية:

- ادخلوا حساااان.

التفت حوله فوجد نظرات الرعب في المدعويين وعويل النساء الذي لم ينقطع من الخوف، فأمر جنوده بإطلاق النار على كل من يبكي؛ ففتحوا النار على كل من بكى لتتساقط الجثث واحدةً تلو الأخرى حتى امتلأت الأرض بالدماء، فصاح فيهم منفعلًا:

- لن يعيش فيكم أي كلب جبان حتى وإن استدعى الأمر مذبحة في القلعة.

ثم التفت لحسان وقال ساخرًا:

- وها قد جئت يا حسان، أنت اغتصبت يسرا وتسببت في طردي من المنزل لسبعة أعوام، ماذا أفعل معك؟

قال حسان بنبرة جافة وعيناه تتحدى ياسين:

- أنت جبان، وستظل جبان.. حتى وإن عدت بالزمن وحاربت مع

صلاح الدين ثم قفزت لزمن هتلر وأحرقت اليهود، حتى وإن نصبت نفسك حاكم في زمن محمد علي فأنت في نظري مجرد راقصة شمطاء في شارعه، أنت جبان حتى الموت.

ابتسم ياسين ساخرًا:

- أنا لم أعد جبان.

- وأنا سأظل سيدك سواء كنت جبانًا.. أو شجاعًا.

ثم أشار على يسرا وقال:

- لقد ضاجعت شقيقتك يا حاكم الناس وسيدهم.

صرخ ياسين في الحراس:

- اصلبوووه.

رفعوا حسان وعلقوه على الصليب فضربه ياسين أكثر من عشرين ضربة في اندفاع حتى أنهكه التعب وجلس على الأرض ليستريح، بينما لم يسقط من حسان أي قطرة دم واحدة، بل كان وجهه تدب فيه الروح ويبتسم لياسين الجالس في تشفيٍ. رفع ياسين رأسه وألقى نظرة معبأة بالكراهية تنقصها القدرة وقال في امتعاض:

- أنا لم أنتهي منك بعد.

عقب حسان مبتسمًا دون أن يلتفت، بل صوب عينيه نحو يسرا الجالسة في حرم العرش:

- وأنا أيضًا لم أنتهي منها بعد، هل تتذكر؟

نهض ياسين وألقى نظرة على شقيقته الساكنة دون رد فعل، كتمثال مثبت في متحف فرعوني، ثم نظر لأمه فوجد وجهها جامد لا فيه الحياة ولا الموت، وشعر أنه وحيد في القصر. أشار للحراس دون حديث ففتحوا بوابة الساحة ليدخل حارسين ومن بينهم أبيه مكبل من يديه وقدميه ولا يرفع عينيه عن الأرض. التفت ياسين لأمه فوجدها بذات الهيئة، جامدة بلا روح، وصامتة بلا حياة. وصل الحراس عند ياسين فحدق طويلًا في وجه أبيه وهو يتساءل بصوت مكتوم من الغيظ :

- ما هو حاصل ضرب ستة في سبعة يا أبي؟

لم يجبه؛ فاستطرد ياسين وعيناه تدور في ساحة القلعة:

- لم تسألني يومًا عن حالي، وطيلة كل هذه الأعوام ظللت حاضرًا فقط في مخيلتي وفي مخاوفي وكوابيس المنام المرعبة.. أما أنت! فظللت حيث كنت، وكما أنت، لم يتغير فيك أي شيء.

قال حسان من الوضع مصلوبًا ممتعضًا:

- ادخر حديثك هذا لأمر آخر.. متي سننتهي من هذا الحلم السخيف؟ هل تعاتب أبيك داخل رأسك؟ اسدل الستار على هذه المسرحية واخرجنا من رأسك الأبله هذا.

ترك ياسين أبيه بصحبة الحراس ووقف أمام حسان المصلوب وقال:

- كيف تجرؤ على مخاطبتي هكذا داخل عقلي؟!

ضحك حسان قائلًا:

- انتظر.. وسترى.

عاد ياسين لأبيه الذي لم يتفوه بكلمة واحدة، فصفعه ياسين بقوة صارخًا:

- هل انقطع لسانك؟

ثم جذبه من ياقته وألقاه داخل الكبسولة التي ما إن تنغلق تستقر كل مسامير الباب في جسد الساكن. لم تبدو على أبيه أي علامات للخوف عندما تأمل المسامير بوجهه العفن الشاحب. رفع ياسين السوط وهوى به على جسد أبيه، ثم تقدم خطوتين نحو الباب وركله بقدمه؛ فانغلق ودخلت جميع المسامير في جسد الأب دون أن يصدر صرخة ألم واحدة.

نظر للجموع التي صرخت من هول المنظر فأطلق الجنود الرصاص على من بقى على قيد الحياة، ولم يبقَ حي في هذه الساحة إلا ياسين وحسان وأمه ويسرا. فتح باب الكبسولة فسقط أبيه على الأرض، وفي جسده خمسون عينًا تروي البلاط بالدماء، فوضع قدمه على رأس أبيه في تشفي، ونظر لأمه مفتخرًا فوجدها كما هي؛ صامتة، جامدة، بلا روح، بلا حياة.

ضحك حسان فتحررت قيوده دون أي تدخل وسقط على الأرض، ثم نهض ونفض ملابسه؛ فركض جميع الحراس وقبضوا عليه، فقال حسان ساخرًا:

- هذا حلم يا رعاع.. لا هذا حاكم مصر ولا أنتم جنود.

ثم التفت لياسين وقال آمرًا:

- أنت يا ياسين الكلب، اخرجني من رأسك.

انفجر سقف القلعة وسقط على الجميع؛ فركض ياسين نحو باب الساحة الكبير ليجد نفسه داخل دوامة في منتصف البحر وفي منتصف الليل، جذبته معها في حلقات دائرية حتى وصل للقاع، فوجد نفسه جالسًا على مقعد خشبي في قاع البحر ورقية من أمامه تجلس بدورها وبكاءها لا ينقطع ولا يشارك البحر ملوحته. نهض ياسين وعانقها بقوة حتى تحطمت عظامها في يده وتحللت، ليتفاجأ بأبيه وحسان وإبراهيم عزام وأحمد سعيد وأشخاص آخرون مجهولي الهوية، وما إن رآهم حتى انسحب البحر ليتبدل المكان ببوابة العزب إحدى بوابات قلعة صلاح الدين الأيوبي. وجد أمامه وعاء كبير، قطره ثلاثة أمتار، وممتلئ عن آخره بزيت ساخن؛ فضربهم ياسين بالسوط حتى سقطوا في الوعاء كسقوط أصابع بطاطس مبتلة بالماء. أما حسان فظل في موضعه، لم يسقط، ولم يخشى الموت. ظلت الجثث تغلي داخل الوعاء، فجذبها ياسين بمقبض حديدي وألقى الجثث على الأرض؛ فهجمت عليها الكلاب. وولى ظهره لحسان وغادر من البوابة لخارج القلعة، فوجد نفسه في ساحة مدرسته القديمة وأبلة حنان تنظر له مبتسمة، فخلع رداء الحاكم ليصبح مكانه مريول مدرسته القديمة، واختفت لحيته، واختفى العبوس من وجهه، وركض نحوها في خطوات تملأها لهفة الرضيع لأمه، وقبل أن يعانقها وجد حسان أمامه بدلًا منها! فقفز عليه وقبض على رأسه ورقبته؛ فانفصلا واصبح رأس حسان في الأرض وعادت أبلة حنان من جديد بحلتها وجمالها ورونقها؛ فاقترب منها في خطوات بطيئة.

***

أشار أحد الأطباء الثلاثة لشيء ما يحتل شاشة الحاسوب:

– دكتور، انظر، المؤشر يرتفع أكثر من المطلوب، هناك شيء خاطئ يحدث.

عقب د. إسماعيل بقلق مزيف:

– ما الأمر؟

– المقياس تعدى EC ٧ بشكل غريب ووصل لـ ١٠، إما أن المريض في حالة معركة مصيرية بداخل الحلم، أو حدث خطأ في ضبط المعادلات من جانبنا.

نهض د. إسماعيل من مقعده ليراقب تحركات المؤشرات على الشاشة، فأشار للثلاثة أطباء نحو باب الغرفة، وقال بلهجة آمرة:

– اخرجوا من الغرفة الآن.. سأصلح ما أفسدتموه.

نظر الثلاثة لبعضهم البعض في استفهام ثم لـ د. أحمد و د. إسماعيل في عدم فهم وخرجوا من الغرفة على استحياء، وجلس د. إسماعيل أمام الحاسوب، فنظر د. أحمد نحو الباب ولياسين النائم ثم لـ د. إسماعيل مترجيًا:

– أرجوك يا دكتور.. ليست معركتنا.

أشار له بالجلوس:

– أريد وصول المقياس لدرجة ١٣؛ ١٠ ليست كافية لقتل إنسان.

ارتفعت نبرة د. أحمد:

– دكتور، أنت هكذا تخلق مختل عقلي وليس إنسان شجاع سوي وعاقل.

رمقه غاضبًا:

- افعل ما أمليه عليك.

بدأ في الضغط على الأزرار مرتجفًا وكأن سقيع ديسمبر قد ضرب القاهرة فجأة، سقيع تقشعر له الأبدان حتى وإن ارتدى المرأ غطاء من النار. انتهى من الضغط فارتفع المقياس لـ ١٣ بسرعة البرق؛ فانسحب وجلس بعيدًا رأسه منتكس بين راحة يديه، يحاول منع دموعه، يحاول الصمت. اهتز جسد ياسين لوهلة تحت الجهاز وارتعشت أصابع يده قبل أن يغلبها السكون وترتخي.

***

اختفت أبلة حنان من أمام ياسين واختفت المدرسة بكل ما فيها، وحلت مكانها منازل مشتعلة خرج من بينها أبيه مرتديًا عباءة سوداء وفي يده سيف أسود، ذات السيف الذي رآه في الكابوس الأول، فوجد ياسين نفسه يرتدي بذلته العسكرية مرة أخرى والطربوش فوق رأسه، وفي يده يحمل سيف من جرانيت مُطلى بالذهب لتبدأ المعركة.

تقدم أبيه ولوح بالسيف في الهواء محذرًا، فتحولت الأرض لكومة من جمر أسود رؤوسه في حمرة الحمم البركانية، وأبيه يسير من بينها حافي القدمين وبلا أي ألم. تقدم ياسين بدوره ولوح بالسيف هو الآخر، فلمع الذهب بين النيران، ثم بدأ في مبارزة أبيه دون حديث يذكر، وعند كل تصادم بين السيفان ينفجر أحد المنازل وتشتعل كومة من الجمر. أخذ ياسين يضرب الواحدة تلو الأخرى؛ فتقهقرت قوة أبيه وعاد للخلف في ثوان وركع، فانفجرت جميع المنازل وتطايرات أحجارها واشتغلت كومة الجمر بأكملها، وياسين من بينها لامع متوهج كمحارب قديم، فرفع سيفه وغرزه في حنجرة

أبيه الراكع؛ فتطايرت رأسه وسقطت بين الجمر المشتعل واشتعلت حتى احترقت وتحولت لرأس شيطانية سوداء. التفت ياسين حوله فوجد العالم ما زال مشتعلًا ولم تسكنه الخضرة ولا الزهور ولم يعود من أحب أو من يحب. خرج حسان من تحت الأرض ونفض الفحم المشتعل من ملابسه، ثم نظر لياسين في تحدٍ وقال :

- أنا اللعنة.. وليس أبيك.

تقدم خطوة وقال بذات النبرة:

- هل تستطيع هزيمتي؟

ثم غرس يده تحت الأرض فخرج بشعر فتاة ثم رأسها وإذا بها تخرج كاملة، وعندما تبين ياسين ملامحها وجدها هي، يسرا. منتكسة الرأس، ذليلة، ألقى ياسين نظرة على شقيقته ثم رفع رأسه ناظرًا لحسان، وقال مرتجفًا:

- لماذا تفعل ذلك؟.. لماذا لا تريد التوقف عن العبث برأسي؟

جر شقيقته من شعرها وانصرف ونيران الجمر تنشب فيها رويدًا رويدًا، وقال دون أن يدير وجهه للخلف:

- الشياطين تحب الضعفاء ضعيفي الإرادة، إن كنت مؤمنًا لما واجهت كل ذلك.

صاح فيه:

- انتظر.. إلى أين أنت ذاهب؟

- أنا لم ولن أذهب لأي مكان، أنا داخل رأسك، هل ستستطيع هزيمتي؟

لوح ياسين بالسيف محذرًا:

– عندما أستفيق من هذا الحلم سأذهب لك في الواقع وأخلِّص العالم من شرورك.

استدار حسان وترك شقيقته على جمر الأرض:

– أنا أقوى من حسان الحقيقي، لا تقارن السكير بصانع الخمر.

– أنا لم أعد جبان وأنت ما زلت نكرة.

– ما زلت ضعيف الإيمان وضعيف الإيمان نكرة.. سأسكن منازل رأسك حتى قيام الساعة يا ياسين يا ابن وحيد.

نظرت يسرا لشقيقها بعين دامعة، ثم تحول وجهها لدخان رمادي، ثم انسحق جسدها وتوارى في التراب.

ألقى ياسين سيفه وصرخ، صرخ حتى تزلزلت الأرض من تحته وخمدت الحرائق وتطاير الجمر في السماء، لتقابله أمطار من الدماء أغرقت رأس ياسين وجسده فصرخ ثانيةً؛ فضحك حسان وظل يضحك، ثم قال أخيرًا قبل أن يتلاشى وينتهي:

– أنت مثير للشفقة.. سجادة صلاة كانت ستخرجني من رأسك ولكن اخترت البكاء والنواح.. لنا لقاء آخر في عالمك الجديد يا ضعيف الإيمان يا جبان العقل والقلب.. إلى اللقاء يا أبله.

***

استيقظ ياسين منتفضًا محاولًا التقاط أنفاسه، ثم نظر حوله في ارتياب ولا

يدرك من ما حدث شيئًا، ألقى نظرة سريعة على وجه د. إسماعيل الذي قابله بابتسامة دبلوماسية، ثم د. أحمد الذي شعر وأنه يخفي شيئًا ما.

- ماذا حدث؟

تساءل في قلق فلم يجبه أحد؛ فحاول تحرير أطرافه عازمًا على النهوض؛ فاقترب د. أحمد وبدأ في تحرير قيوده، وعندما نهض ياسين ربت د. أحمد على رأسه قائلًا في ود مرتجف:

- حمدًا لله على سلامتك يا ياسين؟

رمقه ياسين وتساءل:

- هل أصبحت شجاعًا؟

لوح له د. إسماعيل بينما يقول في حماس:

- أصبحت هرقل زمانك ولست شجاعًا فقط، هنيئًا ا لك بما ستفعله.

استقر ياسين في غرفة النقاهة، وعندما انتهت النصف ساعة خرج ياسين من الغرفة ودون رفيق عازمًا العودة لغرفته دون أن يدري هل نجحت العملية أم لا. أراد أن يخرج ويذهب لأقرب منطقة شعبية ويفتعل شجار لا فائدة منه لاختبار شجاعته، حتي وإن انتهى الشجار بموته لا يهم. شعر وأنه بطل لديه قوى خارقة وحان الوقت للانتقام من كل ما سرق عمره. سيعود للمنزل وليسرا ولأمه ولكن أولًا يجب أن يسدد دين جبنه وخنوعه، ولكن أين الأعداء الآن؟ أنا أقل من أن يكون لي أعداء وأسفه من أن يكون لي أصدقاء. عن ماذا سأبحث الآن؟ عنوان منزلنا؟ سأخرج من المركز واستقل أول سيارة أجرة وأعود للمنزل. كيف سأبدو للعالم في حلتي الجديدة؟ ماذا

سيكون رد فعلهم عندما يجدون ياسين وقد أصبح شخص مسؤول يمكن أن يعتمد عليه الجميع؟

ظل لسان حاله يأكل عقله من التوقعات والتخيلات، بينما يستقل الدرج عائدًا لغرفته، ثم تحسس جيب بنطاله فشعر بورقة بالداخل، أخرجها وتأملها للحظات دون أن يدري مصدرها، فتح الورقة فوجد رسالة مدونة بخط اليد ويبدو أن المخطوطة كتبت على عجالة دون تنسيق.

«عزيزي ياسين، أرجو أن تقرأ هذه الرسالة بعد خروجك من العملية؛ لاحتوائها على معلومات ضاع الحق إن نسيتها وأهملتها.. أعلم أنك تتساءل أين ذهبت رقية؟...»

- حمدًا لله على سلامتك يا بطل.

قاطعه أحمد سعيد بينما يدنو على السلالم فارتبك وطوى الورقة ووضعها في جيب بنطاله مرة أخرى، بينما جلس قلبه منتظرًا على أهبة الاستعداد لاستكمال قراءة الورقة مرة أخرى.

- الله يُسلِّمك.

قالها بابتسامة صفراء فربت أحمد سعيد على كتف ياسين؛ فأنزلها ياسين بعصبية؛ فضحك أحمد سعيد:

- أرى أن مفعول العملية ظهر على الفور.

بحدة:

- ماذا تريد؟

مبتسمًا بثقة:

– لا أريد لك إلا الخير يا صديقي.. لقد وجدنا رقية.

قطب جبينه:

– ماذا تعني؟ وما شأنك بهذا الأمر؟

عاد أحمد سعيد أدراجه، بينما يقول في لا مبالاةٍ؛

– حسنًا.. سنذهب لها بمفردنا؛ يبدو أنك لا تهتم.

– انتظر!!

التفت أحمد سعيد للوراء مشيرًا له بالقدوم:

– أسرع.. سأقص عليك ما حدث في الطريق.

كانت السادسة مساءً والشمس في طريقها للمغيب عندما استقل ياسين سيارة رباعية الدفع بصحبة أحمد سعيد الذي جلس عند عجلة القيادة، فراح ياسين يتأمل السيارة من الداخل في ارتياب وزجاجها «الفيميه»، وعلى الرغم أن الموقف يحض على الخوف إلا أنه جلس في مقعده ساكنه دون أن يتحدث كثيرًا، لم يسأل حتى عن الأسئلة المنطقية التي يمكن أن يتفوه بها عاقل في هذه اللحظة، وكل ما شغل رأسه أن يرى رقية مرة أخرى ويفهم ماهية كلمة «وجدنا» رقية.. هل ماتت؟ هل أصابها سوء؟ ألم تخرج من المركز بإرادتها؟

أدار سعيد السيارة وبدأ في التحرك من حول النافورة متخذًا الممر في طريقه للخروج، فالتفت لياسين وتساءل في فضول:

– ألن تسألني عن أي شيء؟

فتح ياسين زجاج النافذة ثم أخذ يراقب الأشجار على ضفاف الرصيف في طريق الخروج وفضل السكوت على الكلام. خرجت السيارة على طريق الأوتوستراد، وبعد دقائق ليست بالكثيرة انعطفت السيارة لتدخل إلى منطقة مقابر الصدقة لتمر من شارع ترابي مهجور بين أعمدة إنارة برتقالية عانقت زرقة سماء ما قبل الغروب. بدأت الأفكار تتلاعب بعقله وبدأ يظن أن رقية قد ماتت بينما يمر بعينيه على عيون وشاهديها القبور. هل قتلها أحمد سعيد وأتى به كي يسخر منه؟.. فبادره ياسين بحدة:

- هل ستقوم بخداعي مرة أخرى؟

قطب جبينه متعجبًا:

- لا أتذكر أنني قمت بخداعك من قبل.

وضع ياسين يده على عجلة القيادة آمرًا:

- أوقف السيارة !!!

رمي يديه بنظرة سريعة ثم التفت ناحيته:

- لماذا؟

بذات الحدة:

- ماذا نفعل في المقابر؟ هل قتلتها؟ جئت بي كي تسخر مني؟ ماذا نفعل هنا؟

أوقف سعيد السيارة في الشارع الترابي، وألقى نظرة على صف القبور، ثم أشعل سيجارة:

- لا تتعجل الإجابة.. خمس دقائق وسترى كل شيء بعينيك، وستدرك أنني لست هنا إلا للمساعدة و. . .

قاطعه ياسين:

- كيف سمحوا لك بالخروج من المركز أصلًا؟ من أنت؟

فتح نافذة السيارة ونفث دخان سيجارته بالخارج، ونظر لياسين طويلًا ولم يجب، فانقض عليه الآخر وبدأ في خنقه من رقبته غير مبالٍ بالعواقب، راح يصرخ فيه:

- انطق! من أنت؟ ماذا فعلتم برقية؟

تفاجأ ياسين بانفجار قنبلة في معدته فانسحبت يداه وارتطم بزجاج نافذته، تحسس معدته متألمًا بينما عدل سعيد ياقته منفعلًا:

- عرفنا أنك أصبحت شجاعًا، أهلًا بك.. والآن اخرس قليلًا حتى نصل.

جلس ياسين صامتًا فتحرك سعيد بالسيارة مرة أخرى حتي توقف أمام فناء تظلله شجرة كافور عملاقة، دفع باب الفناء الحديدي، ومن خلفه ياسين الذي لم يفهم ماذا يحدث حتى الآن، لم يكن بصحبتهم إلا الليل وعمود إنارة برتقالي ونباح كلب على المدى البعيد ومجموعة من نبتات صبار مهملة. كان الفناء يتكون من ٤ عيون وأريكتين أسمنتيتين على الجانبين.

- والآن.. ماذا بعد؟

قالها ياسين بضيقٍ يغطي ملامح وجهه. وضع سعيد قدمًا فوق قدمٍ بعدما

جلس على إحدى الأرائك:

- في إحدى هذه القبور يرقد رجل اغتصب حبيبتك.

قاطعه منفعلًا:

- ماذا تقول أنت؟ أي هراء هذا؟

قاطعه سعيد بدوره:

- دكتور أحمد.. كذب.. رقية اغتصبت، وهي الآن في المستشفي تتلقى العلاج، ومن اغتصبها كان طليقًا؛ لم يهتم أحد لعقابه أو حتى تقديمه للشرطة.

ساد الصمت لثوان بينما استمر الكلب في نباحه دون ملل أو هوادة. جفف ياسين عينيه من ندى الدموع، وسأل بنبرة حزينة:

- ما مصلحتك من كل هذا؟

نهض سعيد من مقعده:

- هناك جائزة على رأس هذا الرجل، مليون جنيه، تصفية حسابات قديمة مع تجار آثار.

بنبرة عادي:

- إذن أنا من سيأخذ بثأره وأنت من سيأخذ الجائزة.. صحيح؟

- صحيح.

- وإذا أخبرتك أنني أريد الجائزة أيضًا؟

ضحك سعيد طويلًا، ثم أشار لسلاح ٩ ملي معلق في يمين بنطاله:

– ستجد هذا في وجهك !

ضحك ياسين مازحًا:

– حسنًا اقتله أنت.. ربما أصبحت شجاعًا ولكني لا أفعل شيئًا بالمجان.

– شجاع وتتخلى عن حبيبتك؟

فجأة طُرقت إحدى أبواب القبور الأربعة من الداخل؛ فانتفض ياسين مرتعبًا وعاد خطوة للوراء، وأصبح نباح الكلب يرج المكان وكثير من الأصوات تلعب برأس ياسين.

– النجدة!!!

أتى الصوت من داخل القبور وصاحب الصوت لا يتوقف عن الطرق. اقترب ياسين من مصدر الصوت، وقال بينما يشير لعين القبر الرابع من اليسار:

– ماذا فعلت؟

أجابه مبتسمًا؛

– دفنته حيًا.

وضع ياسين يده على مقبض الباب، ثم التفت لسعيد سائلًا في تردد:

– هل رقية بخير؟

جلس سعيد على الأريكة الأسمنتية مرة أخرى:

- رقية في أسوء حالاتها الصحية والنفسية بسبب هذا الرجل.

حرر الترباس وفتح باب العين فانقض عليه من بالداخل وجسده معبأ بالعفن، فسقطت بعض العظام والأتربة على الأرض، وكفن متسخ أصبح معلقًا بين العين والأرض. سقط الاثنان على الأرض فصرخ ياسين رعبًا وصرخ الآخر امتعاضًا. حرر ياسين نفسه ونهض ليجد إبراهيم أمامه، لا يرتدي إلا لباسه الداخلي وجسده مغطى بالأتربة والحشرات ورائحته كعشر كلاب نافقة. نفض ياسين نفسه من صرصور قفز إلى ذراعه، وراح ينظر إلى إبراهيم في قرف واحتقار.

- أنت من اغتصبت رقية؟

ركض إبراهيم نحو البوابة محاولًا الهروب، فأخرج سعيد سلاحه وأطلق رصاصة على قدمه اليسرى من الخلف؛ فسقط على وجهه مرتطمًا بعتبة الباب ليصرخ من الألم والذل والمهانة. ركله ياسين في رقبته ثم وضع قدمه على رأسه وبدأ يدهسها في العتبة منفعلًا:

- ماذا فعلت بها؟ انطق يا ابن الكلاب.

تركه وعاد خطوة للوراء ليشاهده في تشفي، فحاول إبراهيم النهوض وهو ينفض جسمه المرتعش من الحشرات، نجح في النهوض مستندًا على الحائط، مجيبًا بامتعاض:

- أنت أحقر من أن أجيبك.

انقض ياسين عليه، فباغته إبراهيم بلكمة أسقطته على الأرض، ثم حمل إحدى نبتات الصبار وألقى واحدة على وجهه؛ فصرخ من الألم بينما استقر

الشوك على وجنتيه. التفت إبراهيم نحو سعيد وهو يصيح غاضبًا:

- لماذا لم تخبره أنك فعلتها معي؟

نهض ياسين، ثم التفت نحو سعيد غاضبًا:

- هل ما سمعته حقيقي؟

ضحك سعيد:

- يبدو أنه حقيقي.. هل ستفعل شيء؟

لم يعقب من الاندهاش. فظل يصف سعيد بعض ما حدث بأبذأ الألفاظ. هرع ياسين نحوه وقبل أن يسدد لكمته أسقطه سعيد أرضًا مستطردًا بذات الهدوء:

- أما أنا... (ثم قطع حديثه في مكر، وأكمل) الحقيقة أنا وإبراهيم لم نجد فيها شيئًا فاتن.. فتاتك مملة يا رجل .

نهض ياسين ببطأ وفي وجهه غضب العالم، فأشار سعيد نحو إبراهيم :

- على أحدكم أن يموت اليوم.. لم أفتح هذا القبر هباء.

عاد ياسين خطوة للوراء وهو يرميهم بنظرات غضب ولا يدري ماذا يفعل، بدأ شريط من الصور يدور داخل رأسه بداية بأبيه مرورًا بيسرا وحسان وفاطمة وانتهاءً برقية. عزم على قتل الاثنين بأي طريقة يمكن أن تأتي لعقله. جذبه إبراهيم من رقبته فسرت الرائحة العفنة حول أنفه، فضربه بركبته في معدته، ثم توالت اللكمات في وجه إبراهيم، وقد تحول ياسين من جبان وضيع لخليفة مايك تايسون في الملاكمة. استمر في ضرباته ثم ضربه

القاضية فطار في الهواء من قوة الضربة وسقط على الأرض بجانب أريكة أسمنتية. حمل ياسين نبتة صبار وألقاها في وجه إبراهيم الدامي المعبأ بالعفن، ثم حمل أخرى وحطمها على وجهه، والثالثة، والرابعة، والخامسة؛ فأصبح مكان رأس إبراهيم ركام من الصبار والطين. وقبل أن يضربه بالسادسة شعر بمن يقبض على يده من الخلف آمرًا:

- كفى!!

سحب ياسين للخلف وما زال وجهه مليء بالكراهية والغل مع بعض أشواك الصبار وذرات من تراب القبر. جر سعيد الجثة من الذراع، ومع السحل تواري الطين شيء فشيء، وظهر بدلًا منه وجه دامي ليست له معالم. جلس ياسين عليعلى ركبته وهو يشاهد بطولته الأولى بغضب يكسوه الفخر. فرش سعيد كفن أبيض وأشار لياسين بالقدوم؛ فنهض ياسين ودفع الجثة بقدمه حتى أصبحت في منتصف فرش الكفن، ثم طوى الجثة العفنة داخله. حملاها سويًا ثم ألقياها داخل القبر؛ فارتطمت ببعض العظام المتهالكة.

قفز سعيد داخل القبر ليهيل عليه بالتراب، وهو يردد في امتعاض:

- الأموات الملاعين.

وفور إعطاء ظهره لياسين حتى شب ياسين للداخل وخطف سلاحه في خفة، وما إن التفت سعيد حتى وجد السلاح مصوب في وجهه.

صاح ياسين:

- اثبت.. اثبت وإلا أفرغته في رأسك.

جلس سعيد على ركبته دون أن يُبدي أي ملامح ذعر أو حذر، كانت

تعابير وجهه تحمل شعور بالشفقة على الفتى الذي خرب كل شيء على نفسه.

استطرد ياسين منفعلًا:

- هل ظننت أنك ستفلت بفعلتك؟ هل ظننت ياسين الجبان سيظل داخل جسدي؟

بنبرة هادئة :

- أعطني السلاح يا ياسين.

صاح:

- لااا.. أنا من سيعطي الأوامر الآن، اِلزم قبرك.

- اعطني السلاح يا ياسين ولا تلقي بنفسك إلى التهلكة.

ضاحكًا:

- هل هناك تهلكة أقذر من ما مررت بها؟

- إذا قتلتني رقية ستموت، فاطمة ستموت، يسرا ستموت.. هل تحب أن تلعب على أرواحهم؟

مال السلاح في يد ياسين وانهارت أعصابه:

- يسرا؟.. كيف تعرف يسرا؟

لم يجبه.. ثم أعاد عليه الطلب مرة أخرى بعد ثوان في نبرة هادئة:

- اعطني السلاح .

تمسك ياسين بالسلاح مرة أخرى، ليجد صوت أنثوي ناضج ومألوف

يباغته من الخلف:

- استمع لنصيحته وأعطه السلاح !!

التفت للخلف فوجدها.. كريمة إبراهيم! إعلامية مصر الأولى.. بكامل هيئتها. شحب وجهه وأصابه دوار خفيف، وشعر أن أحدهم يطرق رأسه بقضبان من الحديد. خارت قواه، وخارت قوى يديه، ومال السلاح في يده؛ فبدأ سعيد في الخروج، وقبل أن يخرج رأسه من عين القبر شعر ياسين بحركته، انتفض وصوب السلاح على رأسه مرة أخرى.

تقدمت كريمة إبراهيم وبجانبها حارسين، كل حارس بعرض باب شقة، تقدمت وتساءلت في استنكار:

- هل تظننا لا نعرف من أنت ومن كنت ومن ستكون؟.. كل شيء يحدث في هذا المركز يحدث بأمري، وأنا من أضع مصير كل إنسان في هذا المكان.. اخفض سلاحك ودعنا نتحدث بالعقل.

لم يعقب وظل في حالة شرود، سلاحه مصوب نحو سعيد، وعيناه في حالة جمود أصابها الشلل، وعقل تائه، وقلب يبحث عن أمه ليرتمي في أحضانها، أو تعيده إلى رحمها وينتهي كل شيء قبل أن يبتدي.

لطمته على وجهه بخفة:

- أنت معي؟

استفاق من غفلته، وقال بخيبة أمل:

- أنا جئت لهذا المركز بسببك.. كنت أذهب للمقهى وأجالس العواجيز

فقط من أجل أن أشاهدك.. سيدة مصر الأولى التي تشبهنا وتعرفنا، كان حلم حياتي أن أظهر معك يومًا ما، ويشاهدني كل من سخر مني وأخبرهم أنني أصبحت شخص جديد.. تتحطم أحلامي وأجدك أنت وراء كل هذا الشر؟

بابتسامة ثقة :

- من يعرف، ربما استضيفك في النهاية بعدما تتوقف عن هذا الغباء. أما عن الآن فأنت تصوب السلاح على تميمة حظي، ومن يتعرض له لا يرى الشمس مرة أخرى.

- ما المميز فيه حتى يمر هكذا رغم ارتكابه كل هذه المصائب؟

ألقت نظرة قلق على سعيد وأجابت بحزم:

- انتهى وقت الأسئلة.. أمامك عشر ثوان، إما أن تلقي السلاح وتعود لبيتك وحياتك سالمًا، أو ننهي حياتك أنت وكل من تحبهم.

- لن تجيبني إذن!

تنهدت غضبًا:

- اخرس يا ابن الكلب.

التفت نحو سعيد:

- يبدو أنها لا تهتم يا سعيد، أخبرني أنت.

صاحت منفعلة:

- واحد.

تقدم نحو سعيد وأعاد السؤال بابتسامة صفراء:

- أخبرني يا رجل من أنت حتى تحبك سيدة مصر الأولى؟

- اثنان.

- هل أنت عشيقها؟ بالطبع سيجذبها طور مثلك، هنيئًا لك يا رجل ..

- ثلاثة .

رماها سعيد بنظرة نفاذ صبر، ثم أعاد النظر لياسين بينما تحيطه الروائح النتنة داخل القبر.

- لن ألقي السلاح، أصبحت شجاعًا.. هل رأيت؟ أصبحت شجاعًا.

- أربعة.

صاح منفعلًا بينما يحدث السماء:

- أصبحت شجاع يا أبي.. أصبحت شجاع يا حسان .

- خمسة.

رفع الحارسان سلاحهما وصوباه نحو ياسين وقاما بتحرير زر الأمان؛ فالتفت نحو كفن إبراهيم ثم لكريمة، وقال بيأس:

- أنا لا أريد أن أكون شجاعًا.. لا أريد، أعيدوني لحياة الجبن والصعلكة، أعيدوني لأمي.

- ستة .

- أنا لست قاتل.. أنا لا أقوى حتى على ضرب صرصار، لماذا فعلتوا

ذلك بي؟ أعيدوني للسير على الرصيف و لن تسمعوا صوتي مرة أخرى.

– سبعة.

سعيد بدأ في الارتجاف رعبًا فصاح فيها:

– أخبريه.. ما السر في أمري.

أجابت ممتعضة:

– لن أُرضي فضول نكرة.

صاح فيها ياسين :

– أنا نكرة؟

فقالت بذات الامتعاض:

– ثمانية.

التفت لسعيد وضحك كالمجنون:

– ستموووووت.

رفع سعيد يديه مستسلماً؛ فتنهدت كريمة غاضبة، وقالت بنفاذ صبر:

– حسنًا.. سأخبرك.

أجابها بذات الضحكة:

– آسف.. انتهى الوقت.

ثم أطلق الرصاص في وجه سعيد؛ فانفجرت عيناه اليسرى وسقط في

القبر صريعًا. لم يطلق الحارسان الرصاص من صدمة القرار، فباغتهم ياسين بالرصاص ليسقطا على الأرض بدورهما، فضربت القاهرة هزة أرضية شعر بها الوزير في مسبحه بفيلا التجمع الخامس، وجامع القمامة في غرفته بالدويقة.

استطرد وما زالت الضحكة لا تفارقه:

- لِمَ كل هذه الجلبة يا سيدتي؟

أغلق عين القبر على من بداخله، ثم ألقى نظرة على الحارسَين وقال في سخرية:

- لن أستطيع حملهم للأسف، العين لن تتسع لمؤخراتهم.

ثم مر بجوارها وألقى عليها التحية مرددًا:

- تشرفت بلقائك.

حذرته بنبرة هادئة:

- لقد فتحت على نفسك أبواب جهنم يا ياسين.. سيموت كل من تحب في هذه الدنيا، وأولهم يسرا.

التفت للخلف مرددًا:

- الموت شرف لمن عاش نظيفًا، ومن يموت يلقى الله.. لا يلقاكِ.

***

خرج يركض على الطريق دون هدًى، وما هي إلا لحظات حتى توقف وجلس على الأرض في منتصف الطريق في وضع القرفصاء ليبكي. نشيج

متقطع بين الحين والآخر، وضمير يصرخ كطفل صغير يريد أمه. كيف سيواجه أمه؟ هل يخبرها أنه تخلص من الجبن وأصبح قاتل؟ لم يدعو الله إلا بصلاح الحال وأن يكون شخص سوي يطاق لا يشمئذ منه أحد. لم يطلب أن يكون قاتل قاسِ القلب لا يعبأ بأرواح الآخرين.

شعر بحكة في جسده لا يعرف مصدرها وراح يفرك مواضع الألم حتى أصابه الاحمرار، نظر حوله ولم يجد أي حشرات صغيرة، خلع قميصه وألقاه على الأرض فشعر بانقباضات متتابعة في قلبه تعيق تنفسه؛ فراح يأخذ شهيقًا طويلًا ليطرد ما يعتري صدره فلم يفلح. أكمل طريقه حتى وصل على طريق الأوتوستراد، فاستقل حافلة صغيرة «ميكروباص» عائدًا للمركز؛ ليكمل ما تبقى في علاج أو ليعود لحياة الجبن مرة أخرى. طيلة الطريق شعر ببشر يحدثون بعضهم البعض داخل رأسه، وصوت امرأة تصرخ، ونباح كلب، وطلقات نارية لا تنتهي. وصلت السيارة عند بوابة المركز فهبط منها وركض للداخل كالمجنون، فوجد دكتور أحمد مكرم في انتظاره أمام النافورة، ما إن اقترب ياسين حتى تحرك دكتور أحمد للإمام وسأله في قلق:

- أين كنت؟

أجابه بصوت متعب ولاهث:

- كنت في المقابر.

قطب جبينه:

- ماذا كنت تفعل في المقابر؟

جلس ياسين على سور النافورة وتساءل بصوت حانق:

- لماذا لم تخبرني بالحقيقة؟ لماذا لم تخبرني أن إبراهيم وسعيد اغتصبا رقية؟

- إبراهيم؟

- نعم إبراهيم.. هل ظننت أن سعيد فقط من فعلها؟ ولماذا كل هذه الأكاذيب؟ عندما كنت جبانًا لم أرَ كل هذا، لماذا فعلتم ذلك بي؟ أنا لم أطلب إلا أن أكون شخصًا سويًا وشجاعًا.

جلس دكتور أحمد بجانبه، وأجاب بصوت هادئ:

- لا يوجد شيء مجاني في هذا العالم.. حتى وإن دفعت مال الدنيا ستدفع من قلبك وروحك، طلبت أن ترى أمك وشقيقتك مرة أخرى؛ إذن لا تسأل عمّا ستقابله في طريقك لهم.

ضاحكًا بسخرية:

- عالمكم وضيع، حتى كريمة إبراهيم القدوة هي الأخرى وضيعة.

مندهشًا:

- هل رأيتها؟

- رأيتها وقتلت من معها، وقتلت إبراهيم وقتلت سعيد.. أنا قاتل.. ياسين قاتل!

ثم التفت لـ د. أحمد وجذبه من ياقته صارخًا:

- لقد جعلتم مني قاتل، جعلتوني نسخة من أعدائي!!!!

حاول التملص منه وعقب والهلع بين كلماته:

- اهدأ يا ياسين، اهدأ وسنجد نهاية لكل ما يؤلمك.

مستمرًا في القبض على ياقته:

- أعدني كما كنت، أعدني كما جئت لكم، جبان، وضيع، وملعون لا يقوى على فعل شيء.

- صعب يا ياسين.. صعب.

أحد الممرضين مر على مقربة من النافورة؛ فسأل في قلق:

- هل هناك أمر ما يا د. أحمد؟

أجاب منفعلًا:

- أنا بخير.

نهض ياسين وجذب د. أحمد من خلفه وعبر الأشجار المطلة على الممر حتى أصبحا داخل حديقة أمامية شاسعة لا يصلها من الضوء إلا القليل. استقر ياسين عند زاوية غير مرئية ورمق د. أحمد متسائلًا بنبرة حانقة:

- ما هي الصعوبة في أن تعيدني كما كنت؟

- إذا أعدناك كما كنت ستفقد جزء من عقلك ومن وعيك.

منفعلًا:

- مجنون؟

بنبرة هادئة:

- لا أحب أن نسميها ذلك، المريض العقلي إنسان مثلي ومثلك.

لكمه في وجهه:

– ليس وقت فلسفة يا طبيب الحمير، ستعيدني كما كنت، ملعونة الشجاعة وأهلها.

تفاجأ الاثنان بوجود ملثم يقتحم خلوتهم، وما إن رفع ياسين يده ليقاتله حتى باغته الآخر بالعصا على رأسه؛ فسقط على الأرض مغشيًا عليه.

(١٨)

سبتمبر ٢٠١٠

من يعيد للورد رحيقه بعد الذبلان؟ ساقٍ يحمل ماء العالم على ظهره وصبر العاشقين في قلبه! ربما.. وربما تملك منَ الدنيا كل شيء ولا تقوى علي إنبات زهرة واحدة؛ لأنك وفي الحقيقة وصلت متأخرًا، بعدما غربت الشمس للأبد وأصبح الوادي الأخضر كصحراء سيناء، لا يسكنها إلا من كفر بالدنيا.

ركض في السابعة صباحًا بلهفة بستان في منتصف الربيع يتراقص مع النسيم على أمل لقاء ساقيه ليغرقه بكل ما أوتي من حب. وصل للمدرسة مبكرًا قبل بداية الطابور، عام جديد وحنان برداء الصف الثالث الثانوي، عيناه تبحث عنها، تنتظرها، تناديها، وقلب يناجيها. حيا التلاميذ العلم وصعدوا لفصولهم وما زال باب غرفة الفنون مغلق وبوابة الجنة أصبحت باب خشبي قديم مهترئ، هل تخلوا عن الألوان أم تخلوا عن حنان؟ ربما وصلت وأغلقت الباب من خلفها لمزيد من الخصوصية، الرسامون دومًا يفعلون ذلك، أو ربما البشر، أو ربما هي فقط من يفضل الانغلاق على نفسه ولو في منتصف ميدان عام! لا شأن له بالجميع، ولا شأن له بالاحتمالات، وإنما غيابها يزلزل عقله ويحاصره، عقل يتهاوى وقلب يتداعى؛ فيطرحون كل الأسئلة التي يمكن أن تحول مراهق لعجوز صغير.

لم يصعد للفصل مثل البقية، اتجه نحو الباب وطرق الباب ثلاث طرقات متتابعة وانتظر، ثم التفت حوله كمن يحاول سرقة كنز من الذهب في ذروة

النهار. هل يرحل الآن أم يطرق الباب مرة أخرى بقوة مثلما يفعل محصل الكهرباء قبل أن نتدعي عدم وجودنا بالداخل؟! بالتأكيد أبلة حنان لن تفعل ذلك، أبلة حنان ليست مثلنا. طرق الباب مرة أخرى وقلبه على شفا حفرة من الانهيار، لم ينفتح الباب، طرق ثانية بقوة أقل كمن يقاوم اليأس بكل يأس، لم ينفتح الباب.

لم ينسحب، وقرر الاستمرار في الطرق؛ لعل الباب ينفتح، ولعلها تسمع الصوت من منزلها فتأتي..! لعلها تحدث المعجزة ويسمع صوت من الداخل يقول بحماس «أنا قادمة ». راح ينظر للباب بعين غاضبة وقلب منفعل يريد صاحبه تحطيم كل الأبواب وكل ما يمنعه عنها، ولكن في النهاية، لم ينفتح الباب..

أتاه أحد المعلمين، كان شاب في منتصف الثلاثينيات يتميز بنظارة مستطيلة الشكل، نحيف كياسين، حليق اللحية وشعر مصفف للخلف، لاحظ توقفه الطويل عند الباب؛ فسأله بصوت يغلب عليه الهدوء:

- ماذا تفعل هنا؟

التفت له ياسين بوجه شارد فأجابه بتلعثم:

- أبلة حنان.. أتيت لرؤية.. أبلة حنان.

مط الشاب شفتيه ونظر للأرض، وتنهد، ثم رفع رأسه وقال بنبرة يغلب عليها الإحباط واليأس:

- حنان تزوجت من شهر ورحلت للسعودية مع زوجها.

لم يرد.. لم يعقب.

وضع يده على رأس ياسين وفركها بأنامله، قائلًا بذات اليأس:

– انساها يا صديقي.

قالها ورحل في هدوء.. فجلس ياسين على الأرض مستندًا على الباب دون أن تسقط منه دمعة واحدة، راح يراقب ملعب المدرسة والأشجار بأغصانها العارية والسماء التي كستها السحب في هذا الصباح. أصاب عقله الشلل فلم يعرف لا تفكير ولا حزن، لا صدمة ولا اشتياق، كانت لحظات من فراغ المشاعر التي لا يستطيع أن يملأها الإنسان بأي شيء يمكن أنه يدركه الرائي والسامع. جلس في خلوته الصغيرة يتأمل بلا مناجاة، وعندما استعاد وعيه، وأن أبلة حنان انتهت قصتها للأبد، نهض من مجلسه وألقى على الغرفة والباب نظرة أخيرة، نظرة وداع للبيت الصغير الذي احتضنه كثيرًا، الفارغ من أهله وقلبه. ومضى في طريقه للخارج والأصوات تملأ رأسه ضجيجًا بكلمات من الحب لن تعود من ذات الشفاه مرة أخرى، شريط من المشاهد القصيرة يمر من أمام عينيه، ولا ينتهي من كثرة المشاهد التي لا يمكن نسيانها أو تجاهلها. لم ينتبه لصوت المعلم الأربعيني البدين الذي يناديه، والغفير الذي يحاول منعه من مغادرة المدرسة في هذا الوقت. تمرد على الوضع دون أن يدرك تمرده، وما إن خرج من باب المدرسة حتى أخرج صورتها معه وكأنها حبيبته التي وعدته أنها لن تفارقه أبدًا ولكنها فارقته. ضربته التخيلات مع ضربات الشمس والعرق الغاضب الساكن على جبينه.

أبلة حنان في أحضان شخص آخر الآن، يقبلها في كل ساعة وكل يوم، لقد سمحت لشخص غريب أن يرى مفاتنها، شفاهها تختلط بشفاهه مثلما يحدث في الأفلام الأجنبي. ماذا يفعل معها الآن؟ في من تفكر الآن؟ كيف

هي السعودية وكيف تبدو غرفتها؟ أبلة حنان تتودد له في كل خميس بالطبع، كيف لها أن تفعل ذلك؟ من ذلك الرجل؟ بالتأكيد ترقص له، يا إلهي أشعر بالقرف. شعر بأنفاسه تعتصر قلبه وبوخزات مؤلمة في منتصف صدره؛ فجلس على الرصيف وبكى. بكي كرضيع أيقن للتو أنه هبط من بطن أمه وأنه أصبح رسميًا جزء من هذا العالم.

***

بعد ساعة استفاق ياسين بعدما أغرقه أحدهم بدلو من الماء؛ فانتفض في مكانه بعدما ابتلع من الماء أكثر من ما يستطيع، ودخل في نوبة من السعال المتقطع، بينما غرقت ملابسه مع قشعريرة برد غير ملحوظة. رفع رأسه ليجد ثلاثة يجلسون قبالته وكأنه يجلس في إحدى غرف أمن الدولة المغلقة تحت الأرض طمعًا في اعتراف تاريخي، أو أمام زعماء عصابة مكسيكية في طريقهم لتقطيعه إربًا بعد سحب اعتراف عن مكان بضاعةٍ ما. الغرفة كانت إضاءتها عادية وفارغة من أي أثاث. كريمة إبراهيم تجلس في المنتصف بنظرات تخترق وجهه كأشعة الشمس في منتصف يوليو، وعلى يمينها جلس د. إسماعيل محفوظ، يضع قدمًا فوق قدم ويرمق ياسين بنظرات احتقار، وعلى يسارها جلس د. أحمد مكرم يراقب ياسين في صمت، ويبدو أنه جالس لمجرد أن يشهد الأمر أو ليتذوق من مرارة التمرد والعصيان.

قال ياسين بصوت مرهق دون أن ينهض من مقعده:

- أين أنا؟

تجاهلت سؤاله، ثم وضعت بدورها قدمًا فوق قدم وعدلت من قميصها الأسود، ثم أشعلت سيجارة؛ فوضع د. أحمد يده على أنفه. أخذت النفس

الأول، ثم نفثت الدخان وبادرت حديثها بثقة غير مبالية لمظهر وهيئة من تحدثه:

- كان هناك رجل يهابه الجميع، رجل يبلغ من القوة ما لم يبلغه أحد قبله، مجرد ذكر اسمه يرعب الحاضرين. رجل مثل هذا عزة نفسه منعته من أن يلتحق بأي جيش حكومي؛ رفض أن يتلقى الأوامر، ورفض أن يموت في سبيل قضايا لا يهتم لأمرها. قرر أن يعمل كقاتل بالأجر لأي جهة تدفع جيدًا دون مبادئ. ولمهارته في التصويب والقتال استعان به المهربون وتجار المخدرات والسلاح، حتى الحكومة استعانت به. بعدما ذاع صيته وأصبح الحصول على خدماته صعب المنال، ماتت ابنته الصغيرة في حادثة سيارة، دخل في نوبة اكتئاب حاد وعزلة طويلة، أصبح رقيق القلب لا يتجرأ على ضرب ذبابة. قررت أن أساعده ليعود لعمله مرة أخرى، لينسى صدمة وفاة ابنته ويعود لعمله مرة أخرى، وبعدما نجحت العملية وقبل أن يبدأ أولى عملياته الكبرى معي، قتله شاب سفيه لا يسوي في الدنيا شيء، شاب كان يتعرض للضرب من أبيه عندما كان صغيرًا، وعندما نضج عجز عن حماية شقيقته الصغرى فطُرد من المنزل.

ضغط بأسنانه على شفاهه السفلى وكاد أن يمزقها من الضغط، ثم أخرج زفير لو أشعلت فيه النار لأحرق من أمامه ولو على بعد ألف ميل.

- هذا الشاب هو أنت.

صمتت لبرهة لتتأمل وجهه بوجه يخلو من أي تعبير يذكر، ثم عادت لتسأل:

- في رأيك.. ما هو العقاب المناسب؟

لم يرد.

– بلغة يفهمها أمثالك.. أنت الآن شخص شجاع مثلما أردت.. جئت وقتلت شقيقتك؛ ماذا ستفعل معي؟

رمقها في احتقار، فنظر د. أحمد في الأرض، وظل د. إسماعيل يشاهد في صمت.

استطردت:

– أنت انتهيت.. هل تفهم هذا؟

أجابها بصوت مبحوح ومتقطع أثر شلالات المياه في حلقه:

– أريد أن أعود كما كنت.. جبان وضيع.. تعريف الشجاعة في واقعكم حقير.

قاطعه د. إسماعيل بنبرة حازمة تغلق الاحتمالات:

– سيد ياسين أنت لم تعد تملك حرية القرار أو الاختيار، لقد فقدت إرادتك عندما رفعت السلاح وأسلت الدماء.

بذات الامتعاض:

– من فوض أحمد سعيد لحبس إبراهيم داخل قبر نائي في مقابر الصدقة؟ ومن الذي سمح لإبراهيم وأحمد سعيد بالتعرض لنزيلة في مركزك؟ من أين جاء أحمد سعيد بسيارة مثل تلك ليقلني أنا بالتحديد ومن أين جاء بالسلاح؟ أظن من العدل الإجابة على هذه الأسئلة قبل أن تصادر حريتي.

نفثت كريمة دخانها وأشارت لـ د. إسماعيل بالصمت.

- انظر يا هذا.. ربما لديك وقت للثرثرة وربما لديهم وقت أيضًا لذلك، أما أنا فلا.. لا أهتم لقتلك لإبراهيم هذا أو للحارسين، أنت قتلت العقرب.. خاصتي.. ليس أمامك إلا خيارين الآن.. العمل معي مكان من قتلته أو نقتل شقيقتك وفي يوم زفافها.. ما رأيك؟

قطب جبينه متعجبًا:

- العمل معك؟ ماذا سأعمل معك؟

- هناك عملية كبيرة كان سيقوم بها العقرب.. إذا قمت بها جيدًا سنتركك لحالك (ضاحكة) وستستطيع اللحاق بزفاف شقيقتك في سلام.

ابتسم ساخرًا:

- عملية واحدة؟ وهل جئتي بالعقرب وأدخلتيه هذا المركز وعالجتيه من أجل عملية واحدة؟

- لا نستطيع الاستثمار في شخص مثلك لديه الحافز للغدر والخيانة.

نهضت كريمة من مقعدها، ثم استطردت:

- استمتع بأيامك الأخيرة مع المجانين أمثالك.

أعاد شعره المبتل للوراء بعد أن انسابت بعض الخصلات على جبينه، وتساءل في نبرة عادية:

- لم تخبريني أي شيء عن العملية!

قبل أن تهم بالخروج من الغرفة عادت خطوة للوراء، والتفتت له:

- اممم.. صحيح.. هناك شخص ما غدر بنا أثناء مقايضة تماثيل في

أسيوط.. غدر بالشيوخ وأخذ التماثيل واختفى بها بالمال في لمح البصر.. كانت بضاعة بعشرة ملايين دولار وقد عثرنا على مكانه.. أخيرًا.

نهض ياسين من مقعده مرتعشًا من البرد:

– وما هو دوري؟

ضاحكة بسخرية:

– شخص قتل أربعة في عشر دقائق يسأل عن دوره؟

تقدم ناحيتها بخطوات بطيئة:

– هل ستعطيني حريتي بعد ذلك؟

أخذت نفسًا من سيجارتها ثم نفثت الدخان في وجهه:

– بالطبع.

***

خرجت كريمة إبراهيم من الغرفة مع حارسها، وتبعها د. إسماعيل الذي رمق ياسين بنظرة أخيرة تحمل الكثير قبل أن يرحل، وظل د. أحمد جالسًا في مقعده لا يقوى على النظر في عين ياسين. ظلا على هذه الحالة لدقائق، لا كلام يقال، ولا حديث يذكر. فقط صمت مختلط بصوت مكيف قريب؛ فخلق بعض من الصمت المزعج والمربك.

خرج ياسين عن صمته:

– عندما كنا في دائرة الدعم ثار سعيد عندما علم أن من يجلس أمامه إبراهيم عزام الذي قتل ثلاثة شباب لم يفعلوا شيء.. لوهلة ظننت أن سعيد

كان من شباب الثورة، وأنه رجل شجاع دفع الكثير بسبب انتمائه.

مرت ثوان قبل أن يجيبه د. أحمد في اقتضاب:

– كانوا رجاله.

– عفوًا؟

– الثلاثة شباب كانوا من رجاله، ولم يكن يعرف كيف يبدو إبراهيم حتى رآه هنا.

– هل كان مخطط لذلك أيضًا؟

زفر د. أحمد ونهض من مقعده، وأجاب في يأس:

– تواجد إبراهيم خرب كل شيء.

تحرك د. أحمد نحو باب الغرفة وأشار لياسين بالقدوم. خرج الاثنان من الغرفة؛ فوجد ياسين نفسه أمام إحدى زوايا حديقة المركز المظلمة بعض الشيء، ومن مكانه يستطيع رؤية مبان المعادي.

وضع د. أحمد يده على كتف ياسين، وقال في خجل:

– أنا آسف يا ياسين.

رمقه بنظرة من يحتاج لبعض التوضيح وأومأ برأسه لعدم الفهم. ابتلع الآخر ريقة واستطرد:

– كان من المفترض أن يكون معدل شجاعتك ٧ ولكننا لم نفعل ذلك، تلقينا أوامر بتخريب رأسك حتى تقتل إبراهيم، مجرد تصفية حسابات للحفاظ على سمعة المركز ولا يصل خبر اغتصاب نزيلة في مركزنا للعامة.

لم يعقب وظل وجهه شاحبًا:

- قبل كل هذه الفوضى كانت حالتك ستدخلنا التاريخ، أنت أجبن شخص التقيناه في رحلتنا الطبية كلها، في الحقيقة لم نفهم كيف عشت حتى الآن وكيف استطعت النجاة، تخيل لو سرت الأمور كما كان مخطط لها يا ياسين، ولكن في النهاية حدث ما حدث.

ركل النجيلة بقدمه، وسأل في غضب مكتوم:

- لماذا تخبرني بذلك الآن؟

- لأنك لن تنجو.

استمر في ركل النجيلة بعنف، ثم توقف ووضع يديه في جيب بنطاله:

- أعلم ذلك.

- أردت أن أخبرك بالحقيقة قبل أن تغادر هذا العالم الوضيع.

نظر ياسين في السماء وألقى نظرة على النجوم البعيدة وعلى القمر الذي وصل إلى نصف اكتماله، وقال كمن يحدث نفسه:

- الحقيقة ليست حقيقية بالمرة.

***

الأربعاء، ٤ يوليو.

كفر نعيم، طنطا، منزل الشيخ حسني.

كانت السابعة مساءً عندما طرق أحدهم باب المنزل، كانت الأم تجلس

في الصالون بعباءتها السوداء تستمع لقراءة تمس القلوب من الشيخ محمد محمود الطبلاوي، وفي الخلفية صوت مزعج من مروحة السقف يشعرك وأنها ستسقط فوق رأسك. نهضت الأم وهي تنظر للساعة في قلق ثم فتحت الباب؛ فوجدت العريس الذي تقدم لابنتها قبل أسبوع يقف قبالتها. ارتبكت فردت السلام في نبرة متلعثمة.

- أعتذر لو جئت دون موعد يا خالتي.. لقد جئت على الفور عندما علمت بما حدث.

قالها في انفعال صادق؛ فلم تدرك مقصده؛ فأجابت بكلمة تناسب جميع الظروف والأحداث:

- لا عليك يا بني.

ثم عادت خطوتين للخلف وأشارت له بالدخول. جلس على إحدى مقاعد الصالون المذهب، بينما يتأمل مكتبة تتصدر الحائط ممتلئة بكتب الفقه والتفسير، وينتصفها صورة كبيرة للشيخ حسني، وفي الرف الأسفل للمكتبة توجد مساحة صغيرة ممتلئة بشرائط الكاسيت لأشهر القراء المصريين.

لم تمر دقيقتين على جلوس الرجل حتى تفاجأ بشاب نحيف يدخل من الباب؛ فخرجت الأم من المطبخ وهي تشير للشاب مبتسمة:

- ابن شقيقتي.

مبتسماً في دبلوماسية بينما يصافحه:

- أهلًا وسهلًا.. تشرفنا.

لم يتحدث العريس إلا عندما عادت الأم للجلوس وفي يدها فنجان قهوة:

- لقد جئت لأقدم واجب العزاء في الشيخ حسني، لقد كان عالم جليل يشهد له الجميع بأخلاقه.. لم أعرف بالخبر إلا الآن فجئت على الفور.. البقاء لله يا خالتي.

- شكر الله سعيك يا بني.. الله يكرم أصلك.

التفت حوله وكأنه يبحث عن شيء ما فقاطعته الأم:

- هل تبحث عن شيء ما يا بني؟

- فاطمة.. أين هي لا أراها.

رمت ابن شقيقتها بنظرة، ثم حاولت تدارك الموقف، وأجابت في نبرة ينقصها الثقة:

- فاطمة في مصر عند أقارب لنا، لم تتحمل الصدمة فأرسلناها لتريح أعصابها قليلًا (ثم تلعثمت قليلًا وقالت في عجالة).. ستعود يوم الجمعة، نعم الجمعة.

- على خير إن شاء الله.. أنا أعرف أن فراق الأب مؤلم، أتذكر عند موت أبي لم أخرج من غرفتي لأكثر من أسبوع.

مطت شفتيها من الارتباك:

- رحمه الله ورحم أموات المسلمين جميعًا.

- آمين يا رب.

أخذ رشفة من فنجان القهوة، ثم أعاده لموضعه:

- أنا أعرف أن الوقت غير مناسب، ولكني أردت فقط أن أخبرك أنني أقدر الظروف، وأنه يمكن تأجيل الخطوبة لبعد الأربعين إن شاء الله.

نظر الشاب لخالته فردت الأم:

- لا تقل ذلك.. البيت بيتك.

- أنا يشرفني أن أكون من أهل هذا البيت الكريم يا خالتي.

ابتسمت في قلق ولم ترد، وما هي إلا لحظات حتى أنهى العريس فنجان القهوة، فنظر للساعة فوجدها الثامنة؛ فنهض على الفور واستأذنهم الرحيل. رحل فبادر الشاب بوجه ممتقع:

- لا يعرف ما حدث، أخشى أن يخبره أهل البلد.

تنهدت الأم من التفكير:

- لا أريد أن أضيع هذا الولد من تحت يدي.. عربة أموال تسير على الأرض.

- ولو علم بالأمر.. ماذا سنفعل يا خالتي؟

وضعت الأم رأسها بين راحة يديها، ثم رفعت رأسها مرة أخرى، وقالت بنبرة يعتريها الضيق:

- سنعرض عليها العفو مقابل الزواج منه، وإن تمردت وأضاعت هذه الفرصة علينا فهي تعرف مصيرها.

بدأ الشاب في حك ذقنه كمن يحاول تجريد أرض زراعية من جيش من

الحشرات، ولكن الفرق أن الشاب لم يمتلك ولو شعرة واحدة في لحيته.

- حسنًا يا خالتي.. سأخبر شقيقي بأن يذهب لها ويعرض عليها الأمر طالما الفرصة ما زالت في يدنا.

انصرف الشاب؛ فدخلت الأم غرفة ابنتها الخالية من صاحبتها منذ أكثر من أسبوع، في بعض الأحيان غياب أحد عن غرفته أسبوع أو أكثر يكون بسبب مصيف في إسكندرية أو مرسى مطروح أو دهب أو أي مدينة تمر على ضفافها البحار، ليس بالوقت الكبير الذي يحول غرفة صغيرة لحبس انفرادي يخلو من سجينه. دخلت الأم وبدأت تتأمل الغرفة في اشمئزاز على الرغم من انعدام الرائحة، على الرغم أن الغرفة كانت مرتبة وليست عشوائية الشكل، وبدا أن فاطمة رتبت غرفتها قبل الهروب، لم يكن هناك ما يدعو الأم لتأمل غرفة ابنتها في اشمئزاز فأغلقت بابها مرة أخرى.

تأملت صورة كبيرة للشيخ حسني كانت مستقرة في منتصف المكتبة، يرتدي جلباب رمادي اللون وعلى رأسه عمامة الأزهر، ويبدو أن الصور قد تم التقاطها قبل عشرين عام ويبدو في الصورة مبتسماً؛ فرحة من يرتدي لباس العيد لأول مرة. أشارت للصورة وهي تتحدث بنبرة لوم:

- أنت السبب يا حسني.. دللتها فقتلتك.. أنت السبب.

( ١٩ )

فشلت فاطمة في رسم طريق لمستقبلها، واستغرقت الكثير من الوقت في الحزن والنوم وإيذاء النفس، وأصبحت شخص لا يمكنك أن تنتظر منه الكثير. لم تدرك على الأقل أنها تعيش بمنزل ليس لها ولا تنتمي له ولم يعد وجودها حتى مرحب به، ظنت أن النوم في سلام دون تهديدات أو عواقب أمر يمكن أن تناله بالمجان، ظنت أن الحب يمنحٍ كل المشاعر دون مقابل، وتخلت عن أحلامها في مقابل عناق انتظرته طويلاً.

مرت الأيام على فاطمة في شقة ياسين الفارغة من أي روح كأعوام في سجون عدو محتل مع الفرق أنه لا يوجد عدو ولا محتل. مجرد شعور بالفراغ والخوف والملل، وراحت كل يوم تسأل نفسها، ماذا بعد؟.. بدأت في جرح يدها بشفرات الحلاقة مع بدء نفاذ المال والطعام، وكلما جلست في ظلمة غرفتها وحيدة بمفردها بدأت الأفكار الانتحارية تراودها، كان الحل الأفضل دائماً لكل معضلة تشغل رأسها، حتى رغبتها في الانتقام من ياسين بدأت في التبخر ولم يعد لديها طاقة للسعي للإمام أو للرجوع للخلف، ظلت في مكانها تنتظر أي شيء يمكن أن يحرك حياتها ولو قليلاً، تقدمت لكثير من الوظائف ولكن لم يحالفها الحظ، ربما بحثت في كل الأماكن الخاطئة، ربما هي العنصر الخاطئ بحد ذاته، ولكنها وفي النهاية فشلت، ولم تجد لنفسها أي طريق.

كانت الثانية عشر صباحًا أولى ساعات الخامس من يوليو عندما كانت غارقة في النوم في الصالون أمام التلفاز، لم تجرأ على النوم في غرفتها، ولم

تجرأ على النوم في الظلام، تركت التلفاز يعمل بصوت منخفض ومثبت على قناة ترفيهية مذيعيها يتفوهون التفاهات طيلة اليوم. انتبهت لصوت طرقات على الباب ولم تفهم لماذا حياة الوحدة والعزلة في هذا الحي تخلو من مميزات الاكتئاب؟.. نهضت بجسد يترنح، ثم غطت رأسها وفتحت الباب قليلًا. ما إن رأت الطارق حتى جحظت عيناها من الفزع، وأصابتها نوبة دوار مفاجئة، وسقطت على الأرض مغشيًا عليها!

***

جامعة القاهرة

نوفمبر ٢٠١١

نضج ياسين واشتد عوده وأصبح شاب بالغ له فكره، كان ياسين من الشباب الذين تربوا علي يد الثورة وشباب الثورة ومنصات التواصل الاجتماعي التي تمثل الثورة. ولكنه وعلى الرغم من ذلك لم يذهب للميدان ولو لمرة واحدة، وكل مشاركاته انحصرت في اللجان الشعبية ليجد من يتحدث ويؤنسه أو ربما ليشعر بالبطولة ولو قليلًا. وعندما انتهت الثورة ظل حبيس غرفته يدافع عنها هنا وهناك، ثم يخرج لتناول غداءه وقضاء حاجته، ثم العودة للدفاع عن أفكاره أمام أعداء افتراضيين بكل ما أوتي من لايك وشير.

دخل ياسين كلية التجارة، أمر متوقع ومألوف من شاب لم يدرك ماذا يريد بعد، ولكن ما كان غير متوقع أو مألوف أن يتعرف ياسين على فتاة وللمرة

الأولى في حياته. كان يخشى أن يخبرها أنه جبان وأنه لن يستطيع الدفاع عنها إذا تعرض لها أي شخص حتى لو جاءها الإزعاج من طفل صغير، ولكنه شعر أن هذا الأمر سابق لأوانه، وربما سترحل مثل حنان عندما ترى صدقه اللا متناهي وتعلقه الغريب بكل شخص يبتسم له.

كان ياسين يجلس بمفرده في مقهى الكلية فقط ليشاهد الصداقات وقصص الحب التي تدور من حوله، كان يسعده رؤية أي مجموعة أصدقاء يتحدثون في أمورهم الخاصة مع الضحكات الفاصلة بين كل موضوع وآخر، كان يسعده أن يرى فتاة تجلس برفقة حبيبها، كان شاهدًا على أحداث ستتحول لذكريات سعيدة أو لعينة بعد أعوام، ولأنه لا يجيد صناعة الذكريات مثلهم جلس بمفرده على طاولة دائرية صغيرة من البلاستيك، يشرب الكولا ويشاهد في صمت.

- مساء الخير.

باغتته فتاة ما من الخلف فاستدار؛ فوجد فتاة ترتدي عباءة سوداء يغطيها خمار أزرق يصل حد الركبة. لم تمد يدها لمصافحته، فقط ابتسمت وعرفت نفسها:

- أنا فاطمة حسني من أسرة حريتنا.

ابتسم لها في بلاهة ورد في نبرة متلعثمة:

- أهلًا بك.. أهلًا بك.

لم تحمل في يدها أي أوراق أو شيء مميز، فقط حقيبة ظهر صغيرة. سحبت مقعد بلاستيكي وجلست أمامه:

- هل تسمح لي بالجلوس؟

ضاحكًا في خجل:

- أنتِ جالسة بالفعل.

ضحكت بدورها:

- لن أطيل عليك.. لقد لاحظت جلوسك بمفردك؛ فوددت لو أعرض عليك مرافقتنا في تظاهرة سنشارك بها اليوم.. هذا إذا لم تكن من الفلول بالطبع.

لم يسألها عن السبب؛ فهو يعرف عن تبعيات الثورة أكثر منها ومن رواد الميدان ذات أنفسهم، ولكنه لم يجرؤ على إخبار فتاة جميلة تؤنس وحدته بأنه جبان يخشى صوت جرس الشقة فما بالك صوت الخرطوش إذا تطورت الأمور. استغرق بعض الوقت في التفكير، لم يجد من يعرض عليه أمر كهذا من قبل، أن يشارك في تظاهرة وكان أقصى عرض تلقاه المشاركة في «أوردر» كشري جماعي. كان يشعر بعينيها تخترق عيناه أثناء خلوته مع التفكير وكأن وجوده هو من سينتصر للثورة وسيحرر المعتقلين وسيأتي بالقصاص؛ فقال في ذات نفسه ولِمَ لا، بعض التمرد مع فتاة جميلة خارج الكيبورد لن يضر.

***

نهض ياسين وفي وجهه إمارات السعادة، وترك الكولا ولم يكملها؛ فنهضت معه وأخذته للقاء باقي المشاركين، وأثناء السير في ممرات مبنى الكلية التفت نحوها وتأمل وجهها قليلًا قبل أن يسألها بنبرة مبتسمة:

- ألن تسأليني عن اسمي على الأقل؟

أجابته دون أن تلتفت ناحيته:

- أنت ياسين.. يسمونك الثورجي الصامت.

قطب جبينه وعقب ضاحكًا:

- يبدو أنك بحثت عني جيدًا.

ساخرة:

- لا تظن نفسك عمر الشريف، منشوراتك ونشاطك على الفيس بوك وتويتر يقولون عنك الكثير.

- وما رأيك أنتِ؟

- أراك طفل ثرثار يبحث عن من يحبه.

توقف فجأة وعقب في ضيق:

- هل تسخرين مني؟

توقفت بدورها بينما يمر من جانبهما قطارات من الطلبة.

- أنا لا أسخر منك.. ولكن أشعر أن هناك شخص آخر خلف هذا الشخص الثائر.. يريد أن يتحدث.

لم يشأ أن يتحدث عن هذا الشخص الآخر؛ فقام بتغيير الموضوع وسأل بنبرة عادية:

- هل يعرف أهلك أمر مشاركتك في التظاهرات هذا؟

أجابته مبتسمة:

- أبي في السجن.

- علامة الجودة.

ضحكت وأشارت ناحيته:

- وأنت.. ما موقف أبيك؟

حك أنفه باحثًا عن إجابة؛ فقال في ابتسامة خيبة أمل:

- لن أستطيع تغيير الموضوع مرتين.

أومأت برأسها كمن فهم الأمر:

- يبدو أنني تعرضت للشخص الآخر مرتين.. حسنًا لنستكمل طريقنا ونتحدث عن الثورة مرة أخرى.

- لا.. لنتحدث عنك، من أنتِ يا فاطمة حسني؟

***

- فاطمة.. استيقظي.

كان من يحاول إفاقتها شاب في منتصف الثلاثينيات يتميز ببدانته المتوسطة ونظارته المستطيلة، ويشعرك عندما تراه بأنه محاسب في مصنع ورق أو موظف أرشيف في ديوان المحافظة. جلس بجانبها يحاول إفاقتها في هدوء دون تهويل للأمر. بعد لحظات استفاقت الفتاة، وسألته بصوت متعب خائف وغير مسموع:

- كيف عثرت عليّ؟ وأين البقية؟ هل ستقتلوني؟

تنهد ثم نهض وجلس على مقعد انتريه أمامها:

- اطمئني.. أنا من كنت أترك لك الرسائل أمام الباب.

أومأت بعدم الفهم بينما تحاول النهوض وغطت خصلات شعرها التي خرجت من الحجاب، فأشار لها بالجلوس؛ فجلست على مقعد آخر وأسندت ظهرها للخلف وعلى وجهها المرض.

- ظننتك ستدركي أننا توصلنا لمكانك وتهربي، ولكنكِ بقيت! لا أعرف لماذا بقيتِ! هل تريدين الموت يا فاطمة؟

أجابت بذات الضعف:

- ظننتك شخص آخر.

ثم رفعت رأسها قليلًا وسألته:

- كيف توصلت لمكاني بهذه السرعة؟

- راقبتك منذ وصولك لمحطة مصر.. أنتِ وصديقك لا تجيدون الاختباء.

تجرعت بعض من الماء الباقي في زجاجة بلاستيكية قديمة، ثم قالت بنبرة تجاهد الضعف:

- وما الذي جعلك تتحرك الآن؟

عدل نظارته وأجابها:

- أمك تعرض عليكِ العودة في مقابل زواجك من العريس الذي تقدم لكِ مؤخرًا.

تنهدت في غضب مريض؛ فدخلت في نوبة سعال قصيرة:

– وإذا رفضت؟

– ستكون جمعة أبيكِ هي آخر يوم لك في الدنيا.

ابتسمت شفقة على حالها؛ فنظر الرجل في الأرض حزنًا عليها، ثم مط شفتيه وقال:

– ما زال أمامك وقت للهرب، أو حتى العيش عند أصدقاء لي حتى تعثرين على عمل ومسكن.. يمكنني إخبارهم بأي شيء من أجلك يا فاطمة.

بدأت دموعها في السقوط وصوت نشيجها أصبح ملحوظ وهي تردد:

– لقد تعبت من الاختباء والهرب.. تعبت.

– أعلم أنكِ متعبة يا فاطمة، ولكن وللأسف.. هذا هو العالم وتلك هي قوانينه.

– أنا فشلت.. وفشلي كلفني موت أبي حزنًا عليّ، لم يعد لدي أي شيء لأخسره.. مات أبي وانتهى الأمر.

– ما زالت لديك نفسك يا فاطمة، ويمكنك دومًا البدء من جديد.

لم تعقب، وساد الصمت لثوان قبل أن تبدأ في تجفيف دموعها بأصابعها، فسألها في خجل:

– ماذا ستفعلين؟

عقبت بنبرة فيها من البكاء قطرات:

- لن أستطيع تحمل كلفة الحرية.

مندهشًا:

- ستتزوجي؟

- نعم.. سأتزوج... ولنكتفي بهذا القدر من الركض خلف الأحلام!

ثم عادت واستطردت:

- أخبر أمي بأنني سأعود.

نهض الرجل وما زالت شفقته على حالها تكتسي وجهه:

- حسنًا يا فاطمة.. لكِ ما تريدين.

***

«عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية»

كان الهتاف يهز إحدى الشوارع المؤدية لميدان التحرير، وياسين بين الجميع يهتف بحماس وكل حين وحين ينظر يمينًا ويسارًا من القلق؛ خوفًا أن ينتهي اليوم بهراوة على رأسه أو برصاصة خرطوش تخترق عينه. كان الحشد يتكون من خمسين متظاهر على الأقل، جميعهم شباب جامعي من مختلف الأطياف، وعلى غير المتوقع مرت التظاهرة دون عوائق حتى بدأت الشمس في لملمة نورها من السماء، فهوجمت المجموعة من مجموعة من البلطجية غضب الله مطبوع على وجوههم. بدأت المقاومة من المتظاهرين، وعمليات الكر والفر؛ فوجد ياسين نفسه في منتصف معركة من العصور الوسطى تتسيدها الحجارة والأسلحة البيضاء. فكر أن ينجو بنفسه ويركض بعيدًا،

الشوارع تسع من المتظاهرين مليون. وقعت عيناه على فاطمة التي راحت تركل بلطجي بقدمها، وقبل أن يصفعها على وجهها كان ياسين قد جذبها من ذراعها، وقبل أن يشرعا في الركض بعيدًا تلقى ياسين الضربة المنتظرة على رأسه من الخلف، وسقط على الأرض مغشيًا عليه. لم تستطع فاطمة التوقف لإفاقته، وانهمكت في مساعدة زملائها، وما هي ثوان حتى وجدت ياسين وقد اختفى عن الأنظار، انضم حشد من الثوار من إحدى الشوارع الجانبية وانهالوا على البلطجية ضربًا وقبضوا على البعض منهم، لكن رغم ذلك لم يظهر ياسين مرة أخرى!

انتهت المعركة الصغيرة وانتصر الثوار، وأصبح الشارع مكتظًا بآلاف المتظاهرين؛ فبدأ وابل من قنابل الغاز المسيلة للدموع يتساقط على الجميع ويحول المنطقة لهالة من الضباب اختفت معها معالم الشارع والمحال والناس؛ فركضت فاطمة بعيدًا هربا من الدخان، وظلت تركض حتى وصلت للكورنيش، فأخرجت هاتفها وقبل أن تطلب الرقم أدركت أنها لا تمتلك رقمه؛ فتصفحت فيس بوك وأرسلت له على صفحته الشخصية فلم يأتيها الرد. كان التخمين الأفضل في هذا الأمر أن ياسين اعتقل مثل أبيها وزاد عدد الأحرار في السجون واحد.

***

كان ياسين على الأرض مغشيًا عليه في منتصف المعركة، قبل أن يجره أحد البلطجية ويسحله قبل أن يحطم زجاج سيارة فيات ١٢٨ قديمة ويلقيه على الأريكة الخلفية أمام الجميع، وقبل أن يذهب أحد المتظاهرين لتخليص ياسين من يده كان البلطجي قد استقل السيارة وابتعد عن ميدان التحرير

ومنطقة وسط البلد بأكملها واختفى مع الزحام.

- هل تتذكرني؟

صاح فيه البلطجي منفعلًا بعدما أخرجه من السيارة وألقاه على الأرض في مخزن للكاوتش وقطع غيار السيارات. إضاءة صفراء ضعيفة لا تغطي كل المكان، وليس هناك أي صوت يثبت وجود حياة في هذه البقعة من العالم، مجرد أصوات لصراصير الحقل وهدهد يغني من وقت للآخر. استيقظ ياسين في الوضع مستلقيًا، ووضع يده على رأسه من الألم، ثم بدأ في مسح عيناه، فجاء البلطجي وسكب على وجهه دلو من الماء، وصاح مرة أخرى بنبرة لا تبشر بالخير:

- هل تتذكرني الآن؟

شعر ياسين ببعض الدوار، ولكن الدوار والألم لم يمنعوه من معرفة كنية من يتحدث، هذا الوجه لم ينساه.

- حسان؟

- نعم حسان يا ابن العاهرة.. هل ظننت أننا لن نلتقي مرة أخرى؟.. ها ؟ تظاهرات وهتافات وتخريب.. أين كان هذا عندما التهم الكلب مؤخرتك؟

زحف ياسين بظهره على الأرض للخلف محاولًا الهرب؛ فجذبه حسان من ياقته ووضع نصل خنجر على حنجرته:

- أين شقيقتك؟

لم يرد، وكان وجهه جامدًا من الصدمة، بينما ترنحت قطرات من الماء على

جفنيه:

- لا أعرف.

- بسبب تلك العاهرة لم يعد أحد يخاف حسان.. قطعت وجه واحد واثنان ودخلت السجن وخرجت وما زالوا لا يخافون حسان (هز جسده بقوة صارخًا) أين هي؟!!!!

صرخ خوفًا:

- قلت لك لا أعرف.

جذبه من ياقته، وأجلسه على مقعد خشبي، وجاء بحبل سميك وأحاط به جسده وقيده، ثم جاء بإطار عربة نقل وجلس عليه وهو يتأمل ياسين الراقد أمامه على المقعد لا حول له ولا قوة. أشعل سيجارة وراح ينفث الدخان في انفعال، ثم نهض وطرق بالخنجر على رقبته ثلاث مرات متحدثًا في امتعاض:

- أخبرها أن تأتي.

مرتجفًا:

- ماذا تريد منها ؟.. أرجوك لا تقتلها.

- ما الفائدة من قتلها؟ أليس لشقيقتك قوام مُفعم بالأنوثة؟

صرخ فيه بذات الارتجاف:

- لا تتحدث عنها هكذا!!

صفعه على وجهه بقوة سيف حاد هبط على رقبة مرتد؛ فسالت الدماء من

شفاه، فأخرج حسان هاتفه وأعطاه لياسين:

- اتصل بها.. وإلا لن يحدث لك خير.

تناول الهاتف بيد مرتعشة وطلب الرقم، ووضع الهاتف على مكبر الصوت، فأجابت بعد الرنين الثاني:

- السلام عليكم.

بصوتٍ باكٍ:

- يسرا.. أنا ياسين.

عقبت في قلق:

- ما بك؟ ماذا حدث لك؟ هل أنت بخير؟

خطف الهاتف من يده وحدثها بصوته الأجش:

- يا أهلًا بالحلوة.. أنا حسان.. هل تتذكرين حسان؟

ساد السكون في المكالمة لثوان قبل أن ينقطع الخط فجأةً..!

أعادت الاتصال مرة ثانية بعدما تداركت نفسها، وعادت بصوت أكثر ثقة:

- ماذا تريد يا حسان؟ ألم تكتفي من إذلالي؟ تركنا الحي اتقاء لشرك وبعد كل هذه السنوات ما زلت تبحث عني؟ أليست لديك حياة؟

نفث دخان سيجارته:

- أنا لا أحب الكلام الكثير.. اجلبي مفاتنك وتعالي.

صاحت فيه:

- تحشم يا ابن الكلب.

- كفاكي ثرثرة يا مومس.. إما أن تأتي الآن أو تودعي المحروس شقيقك.

صرخ ياسين:

- لا تأتي يا يسرا!!!

ركله حسان بالقدم؛ فسقط المقعد بياسين وعاد يسألها من جديد:

- ها؟.. شقيقك أم شرفك؟ أنا رجل ديموقراطي وأؤيد مطالب الثورة مثلكم.

ساد الصمت فتولى الحديث ثانيةً:

- صحيح.. إذا أردتي إبلاغ الشرطة افعلي ذلك.. إذا أردتي أن ترسلي لي رجال المنطقة افعلي ذلك.. الجميع مشغول بخراب البلد.. رقبة شقيقك أمامي.. حسنًا؟

نمى لسمعه صوت بكاء في الهاتف؛ فأجابته بصوت ممزوج بالنشيج:

- حسنًا.

أبلغها بالعنوان، وبعد ساعة.. وصلت يسرا؛ الفتاة التي تبقى لها على امتحانات الثانوية العامة أربعة أشهر وتريد دخول كلية الطب وتشريف أمها والعائلة أمام عائلة أبيها البائدة. نضجت هي الأخرى، فتاة نحيفة بعود فرنسي، وطولها تعدى متر وستون سم، وشعرها حريري أسود يصل لمنتصف ظهرها، ارتدت بنطالًا أسودًا واسعًا من القماش وبلوزة أخرى

سوداء وكأنها في عزاء لشخص عزيز عليها، عزاءها.

التفت لياسين متحدثًا في فخر بينما يشير نحوها:

- هل تريد أن تراني وأنا أمزقها؟

عاد ليسرا آمرًا:

- أخرجي السكين التي بحوزتك..

لم تستجب؛ فرفع سلاحًا ناريًا محلي الصنع وصوبه نحو وجهها:

- أخرجي السكين ولا تفسدي ليلتي.

أخرجت سكين صغير من داخل بنطالها، وألقته على الأرض في استسلام؛ فعقب مبتسمًا في شماتة:

- جميل.. والآن قد حان دوري.

ثم شرع في التقدم نحوها..

( ٢٠ )

انسحبت يسرا للوراء حتى التصق ظهرها بحائط جيري معبأ بالأتربة، فصفعها على وجهها صفعات متتابعة بخفة لص قديم. اقترب وجهه المعبأ بالهالات السوداء تحت العين والشفاه البنية والأسنان الصفراء برائحتها الكريهة؛ فانسالت من عينيها الدموع، فاقترب من شفاهها فحاولت الابتعاد؛ فقبض بكف يده اليمنى على رقبتها وقبلها عنوة، وعندما التفت للخلف وجد ياسين منتكس الرأس ينظر للأرض ودموعه تتساقط على التراب كسقوط المطر على البحر، لا فائدة فيها ولا خير منتظر. تركها حسان فلم تحرك ساكنًا، وعاد لياسين ولكمه في وجهه، ثم قبض على رأسه موجهًا أياها نحو يسرا منفعلًا:

- شاهدني مع أختك وتعلم.

ظلت تبكي وهي تتمتم بأدعية وآيات قرآنية غير مسموعة قبل أن يعود لها وينزع ثيابها...

ارتفعت أصوات النشيج من يسرا الحرة وياسين المكبل بإيقاعات عشوائية ومنتظمة في نفس الوقت، وفي الخلف ما زال صوت صراصير الحقل يحافظ على أنغامه، أما الهدهد فقطع الغناء ومضى في حال سبيله.

انتهك حسان ما ليس له فيه بحق؛ فصرخ ياسين ثائرًا على مقعده محاولًا فك قيوده فلم يعطيه حسان اي انتباه واستمر فيما يفعله؛ فبدأ ياسين يقفز

بمقعده؛ فالتفت حسان وتناول إحدى قطع الغيار المستقرة على طاولة على يمينه ملتصقة بالحائط وألقاها على ياسين فلم تصبه؛ فقطب جبينه غضبًا وقام بالنداء «رعد» فدخل كلب ألماني من بوابة المخزن، فأشار نحو ياسين؛ فركض الكلب نحوه وقفز عليه؛ فسقط المقعد بياسين على الأرض ليستمر الكلب في النباح فوق رأسه دون أن يعضه، فحبس ياسين الصراخ بداخله، وبدأ يرتجف بشدة وكأن المخزن تحول لثلاجة مشرحة زينهم، سقط بعض اللعاب على وجه ياسين فتنازل عن الصراخ مقابل نوبة جديدة من البكاء المكتوم.

عاد حسان ليسرا التي توقفت عن المقاومة تمامًا ومالت رأسها علي الحائط فشعر وأن جسدها استسلم وارتخى؛ فأدار وجهها ناحيته فوجدها مغشيًا عليها. امتقع وجهه ونهض، ثم تركها؛ فسقطت على الأرض.

عاد لياسين الذي دخل في نوبة من الهلع أمام نباح الكلب المستمر، فجلس حسان على الإطار وأشار لكلبه بالقدوم، ووضع سلاحه جانبًا وأشعل سيجارة جديدة وبدأ في تدخينها، بينما ينظر لياسين ويسرا في شماتة. ثم عاد ونظر لياسين الساقط بقيوده على الأرض، فنهض وذهب لياسين وعدل المقعد ثم فك قيود ياسين. وياسين ظلت يداه ملتصقة بجانبيه لا تتحرك ولا توجد أي نية للانقضاض، حتى أصابع يده لم تجرؤ على الارتعاش ولم يذهب بعينيه بعيدًا للاطمئنان على شقيقته، كان هناك شيء يمنعه لدرجة تعجب منها حسان الذي لم يجد أي مقاومة من الشقيق الذي التقطه من الميدان قبل قليل. سأله حسان في سخرية:

– هل تعرف لماذا فككت قيودك؟

لم ينظر له ولم يجبه؛ فأجاب حسان على نفسه:

– حتى تصفق لي.. اعتديت على شقيقتك أمام عينيك حتى سقطت من قوتي؛ فصفق لي.. الآن.

لم يستجب؛ فنهض حسان وصفعه على وجهه:

– صفق لي يا ابن الكلب.

التفت ياسين أخيرًا نحو يسرا الملقاة على الأرض، بينما استمرت سيول الدموع تغرق وجهه؛ فعاد ونظر لحسان وسأله باكيًا:

– هل أنت سعيد الآن؟

أجابه ضاحكًا:

– سعيد؟ لقد قطعت متعتي.. أفكر أن أفيقها واكمل عملي.

حرك يده اليمنى أخيرًا مترجيًا:

– أرجوك لا تفعل ذلك.. أرجوك.

وضع الخنجر مرة أخرى على رقبة ياسين:

– حسنًا.. صفق لي وسأعفو عنك.

راقبه والخنجر ما زال مثبت على رقبته، فنظر ياسين لشقيقته مرة أخرى بعين مكسورة وهو يتخيل ما سيسمعه من أمه وكيف ستلعن جبنه ووجوده ففكر أن يقاوم، أي شيء يعيد القليل من رجولته أمام ما حدث. فخرج بصوت ضعيف وخائف لا يشبه ما يتفوه به:

- لا.. لن أفعل.

ضحك حسان فضرب الكلب على رأسه؛ فطار الكلب في الهواء منقضًا على ساق ياسين اليمنى ليعضها في مواضع متفاوتة بنهم؛ لينتفض ياسين من مقعده متألمًا و مرتعبًا محاولاً الهرب؛ فنهض ياسين فضربه بمؤخرة الخنجر على رأسه فسقط على الأرض مغشيًا عليه هو الآخر، لينسحب الكلب ويجلس بجانب صاحبه.

بعد دقائق فتح فم ياسين وغطى فمه بخرقة قديمة من القماش، ثم أتى بدلو مياه من الماء وأسقطه في فم ياسين؛ ففزع الفتى ودخل في نوبة سعال شديد بينما يتلوى ويتشنج على الأرض كفأر يحتضر، فكور حسان قبضة يده ولكمه في وجهه صارخًا:

- صفق لي.

كان أجبن من أن يستمر في المقاومة وأقل من أن يكون صاحب بطولة في موقف مثل هذا. شرف شقيقته اختلط بعفن الأرض وحتى وإن نهض وانتصر ستظل لعنة اليوم تطارده لنهاية عمره. إذا علم أبيه بما حدث لزوجته وأبنائه بعد انفصالهم سيسخر منهم ويطلق عليهم النكات في كل مجلس. إن أبلغ الشرطة ستغطي سمعته هو وشقيقته على أحداث الثورة ومحاكمة الرئيس والربيع العربي بأكمله؛ الفتى الذي اغتصبت شقيقته أمام عينيه، الفتاة التي انضمت لطابور العنوسة قبل أن تنضم لطابور العشرين.

رأى المستقبل الأسود أمام عينيه، فقاطعته عين حسان الحادة التي استقرت أمام عينيه في تحدٍ وتشفي، فصفق ياسين في خجل؛ فوضع حسان يده على أذنه مدعيًا عدم السمع:

- لا أسمعك.

صفق بصوت أكثر حرارة.

- قلت لا أسمعك.

فصفق له وأصبح صوت التصفيق مدويًا؛ فابتسم حسان في فخر ووضع يداه علي كتفي ياسين:

- هنيئًا لك.. لقد حصلت على حريتك.

عقب بصوت ضعيف:

- هل حصلت على ثأرك الآن؟

ساخرًا:

- من قال ذلك؟ أنت سترحل.. شقيقتك ستظل.

عادت عيناه لنزيف الدموع؛ فقال في رجاء:

- أرجوك يا حسان.. ألا تخشى أن أخبر الشرطة بما فعلت؟

فصفعه على وجهه بخفة:

- أنت أجبن من ذلك.

ثم أخذ الكلب وخنجره وغادر المكان، تاركًا ياسين غارقًا في كسرته، ويسرا على الأرض بسواد ملابسها المنزوعة مغشيًا عليها في منتصف ليل القاهرة.

***

ظل ياسين حبيس غرفته وحبيس أفكاره، ويذهب بالقلق هنا وهناك، ويتساءل العقل في الثانية الواحدة ألف سؤال، ومن الألف سؤال يخرج عشرة آلاف احتمال، وبين السؤال والآخر يذهب عقله لكل لحظة خذل فيها شقيقته الوحيدة قبل أن يذهب لكل ذكرى كان سعيدا فيها. لم يفهم ماذا يدور بداخله ولم يفهم لماذا لا يشعر بأنه بخير على الرغم من حصوله على ما أراد! لقد أرسل أربعة أرواح دفعة واحدة لخالقها في عشر دقائق، وتسبب في إزعاج سيدة مصر الأولى، وأصبحت شجاعته في شجاعة أمة كاملة. لم يسمع إلا أصوات الطنين تزلزل رأسه ومليون شخص يثرثرون بداخلها وكأنها ساحة الشعب. نهض وعاد لحاضره وترك قطار صدمات الماضي عند باب الغرفة وأحضر لرأسه وجبة دسمة من الأفكار السوداوية تكفيها حتى ساعة الحسم.

هبط لصالة الاستقبال لأول مرة منذ حدث الأمس اللعين؛ فتفاجأ بجلوس سارة مع كريم وفتحي في الصالة في حالة نقاش جاد بدا له من بعيد أنها مباحثات عن أضرار تخصيب اليورانيوم، فألقى نظرة واسعة على صالة الاستقبال فوجد الفتيات التي التقاهن أول يوم في المركز في حالة سعادة غريبة وكأن الماضي العاشق قد انصرف على يد شيخ من أهل البركة. خرجت منه ابتسامة في منتصف العاصفة، وشعر بالحزن ينسحق تحت ابتسامة النصر من شفاه من حطمهم الشر في سابق الزمان.

– ياسين.

لمحته سارة فنادته؛ فابتلع ريقه وذهب نحوهم، التقط زجاجة مياه صغيرة من على طاولتهم، وسحب لنفسه مقعدًا وجلس بصحبتهم. باغتته سارة في

قلق:

- أين كنت؟ وأين سعيد وإبراهيم؟.. لم نراكم من بعد العملية.

تجرع الكثير من زجاجة الماء، وقال بنبرة يفضحها الارتباك:

- مكثت في غرفتي.

سأله كريم:

- وأين البقية؟

- لا أعرف.

رماهم بنظرة سريعة، ثم سأل في فضول:

- هل نجحت عملياتكم؟

رفع فتحي يداه في الهواء في حماس:

- الحمد لله يا أخي، البخل مرض لعين.. الآن أود لو أشتري جزيرة كاملة لزوجتي وأبنائي.

- وأنت يا كريم؟

عاد بظهره للوراء وأجابه في هدوء بينما يراقب فرحة الفتيات في الطاولة المقابلة:

- نعم.. لقد تخلصت من شهوتي.

- وما أدراك؟.. أنت تراقب الفتيات بجانبنا.

عاد والتفت لياسين:

- تخيلت الفتاة التي اغتصبتها معهم.. سعيدة مثلهم، سعادة من ثبتت براءته من كل ذنب.

- وأين هي الآن؟

- لا أعرف.. للأسف لا أعرف.

طرق ياسين على الطاولة بعصبية، وقال:

- شفاءك من علتك ليس كافيًا.. هناك فتاة تحطم مستقبلها بسببك.

قاطعته سارة:

- لا فائدة من الكلام في هذا الأمر الآن يا ياسين.. الله غفور رحيم.

رماها بنظرة على أمل أن تفهم معناها؛ فلم تستجب! فسألها لتغيير الموضوع:

- وأنتِ يا سارة؟ هناك فتاة انتحرت بسببك.. ما شعورك الآن؟

ابتسمت في ثقة:

- لا شيء.. تخطيت الأمر.. وأشعر بطمئنينة من يعيش على جزيرة نائية بمفرده.

بادره فتحي بالسؤال:

- وأنت يا ياسين؟ لم تخبرنا من تحطمت حياته بسببك.

ألتفت له قاطبًا جبينه، بينما راقبه الثلاث في انتظار الإجابة، فنهض من مقعده غاضبًا:

- ليس من شأنكم.

نهضت سارة وقبضت على ذراعه وسألته في قلق:

- هل أنت بخير؟

نظر في عينيها طويلًا، وسألها في ضيق هامسًا:

- ألن تسأليني عن رقية؟

لم تفهم السؤال، وأومأت بعدم الفهم وهي تعقب:

- من هي رقية؟

ضحك ساخرًا:

- حقًا؟

فرمت نظرة على كريم وفتحي، ثم سألته ثانيةً:

- سامحني.. بالفعل لا أعرف من هي رقية.

لم يجبها؛ فعادت وسألته في قلق:

- هل كنا أصدقاء؟

فأجابها كريم شوقي في هدوء:

- رقية كانت نزيلة معنا وتركت المركز قبل العملية.

التفتت له وظل ياسين يراقبها في حسرة.

- هل كنا أصدقاء يا كريم؟ أخشى أن أكون قد خذلتها دون أن أدرك

ذلك.

أجابها مبتسمًا:

- اطمئني.. لم تكونوا مقربين على ما أذكر.

جلس ياسين ثانية ووضع رأسه بين يديه لثوان، ثم سألها في خيبة أمل دون أن يرفع رأسه:

- إذن لا تتذكرين أي أحاديث دارت بيننا عن رقية؟

- لا..

تحدث فتحي:

- د. أحمد كان يقول أن النسيان من الأثار الجانبية للعملية.. لا تقلق يا ياسين ربما ستتذكرها لاحقًا.

باغتها ياسين ثانية منفعلًا:

- ولكن تتذكرين أحمد سعيد وإبراهيم.. لا أدري ما هذا الطب اللعين الذي يجعل المرأ يتناسى الحق ويتمسك بالباطل!

أجابته بنبرة مرتعشة:

- ما الأمر يا ياسين؟ هل أسأت لهذه الفتاة يومًا ما؟ سامحني.. أنا بالفعل لا أتذكرها، ولا أتذكر حتى أنني كنت صديقة لك.

نهض في عصبية ورحل عنهم وصعد لغرفته مرة أخرى في خطوات سريعة، ثم أغلق الباب من خلفه ليقضي ساعاته الأخيرة قبل الرحيل للعالم الحقيقي.

استلقى على سريره وراح يحدث نفسه، كيف سيحاربون معك بينما هم غارقون في النسيان؟ أصبحوا لا يعرفون عنك إلا القليل، لا يتذكرون معركتك، لا يتذكرون عهود الشرف التي قطعوها على أنفسهم بعد أن انتووا التوبة، كرجل استيقظ بعد منام سعيد بوجه شاحب لأنه أدرك فور استيقاظه أنه لا يتذكر أي شيء.. أي شيء، ولكنه يعلم أنه كان سعيدًا بصورته الحرة في المنام، وها هم يستيقظون الآن من منامهم ولكنهم لا يتذكرون أن الحلم كان مأسويًا! أما أنت فأصبحت وحدك في منتصف الميدان لا تابع لك ولا نصير. لا تعلم متى ستعود لهم ذاكرتهم ولا حجم ما فقدوه، وإن عادت الذاكرة هل سيعودون بنفس المبادئ أم ستتحطم في طريق العودة، هل ستظل الضعيف الذين يريدون نصرته أم أصبحت في عينهم مجرد إنسان؟

كانت رقية ويسرا هما كل ما يشغلان رأسه، يريد أن يعوض شقيقته عن كل الخذلان الذي رأته في حياتها. لم يحطها الأب بحنانه ولا الشقيق بشجاعته ونخوته، كانت في خف الريشة بينهم يفتك بها التيار في كل اتجاه كما يشتهي. ورقية التي ما إن رق لها قلبه حتى حلت على رأسها المصائب واختارت الخرس بإرادتها في النهاية، شبعت من الحديث وشبعت الحياة من وجودها على الأرض.

أصوات تشويش تحتل رأسه من جديد ولا يدرك كيف السبيل للخلاص والنوم في سلام. يحمل على يديه دماء أربعة أشخاص، وفي قلبه حب واشتياق لإناس ينتظرونه في نهاية رحلته. تناول مهدئ وتجرع القليل من المياه، ثم ألقى نظرة على صورة أبلة حنان في ارتياب محاولًا تذكر من تلك المرأة! استشعر حلول مصيبة جديدة، لم يتذكرها، ولم يعرفها، ولم يدرك لماذا هي

دون الجميع التي صورتها بجانبه! ظنها في البداية يسرا ولكن يسرا تصغره في العمر، صحيح أنه لم يعد يتذكر هيئتها بعض الشيء ولكن ليس لهذه الدرجة، تساءل من جديد هل هي أمه؟ ولكن أمه تبغضه وتبغض يوم ارتبط دمائها بدمائه، تنهد غضبًا ثم أسقط الصورة على وجهها وسقط هو في النوم.

## ( ٢١ )

الجمعة.

٦ يوليو ٢٠١٨، العاشرة صباحًا.

اصطفت فاطمة بين الجموع على رصيف محطة مصر في انتظار قطار الأسكندرية الذي تأخر عن موعده. كان وجهها ممتقع وشاحب، ومن يقف جانبها كان يرمقها قليلًا قبل أن يظنها مدمنة مخدرات هاربة أو عاهرة تخلت عنها سيدتها بعد إصابتها بالإيدز. كانت بملابسها السوداء كقنديل سام في بحر من المصطافين. من ارتدى ملابس البحر قبل أن تمس قدمه حدود الإسكندرية، ومن حمل العوامة وكأنه سيقفز بها من القطار في رصيف شبرا، وشاب استقل القطار بالـ «الشبشب» كإعلان عن واجهته. دخلت فاطمة القطار المكيف بحقيبة محملة بالحزن، وجلست على مقعدها فأخذت سيدة بجانبها ترش مساحتها بمعطر هواء برائحة جوز الهند وهي تتمتم بشتائم غير مسموعة.

انطلق القطار ٩١١ إلى مثوى فاطمة الأخير، سيلقيها في طنطا لتسقط في مصيرها المحتوم بين عائلتها عازمة الزواج برجل تبغضه، ويذهب هو بالمصطافين للبحر والصيف وعزائم الأسماك وايس كريم عزة وجولات الكورنيش الليلية ومقاهي كوبري ستانلي العزيز.

بدأت القاهرة تتلاشى بحضارتها الأسمنتية مع الطريق من أمام وجهها،

وبدأت في توديع منطقة تلو الأخرى حتى أصبحت القاهرة محطة سابقة وأمست مدينة لن تخطها بقدميها الملعوناتين مرة أخرى. أخرجت هاتفها من حقيبة اليد، وطلبت رقم ياسين عازمة توديعه، وبعد رنين استمر لدقيقة لم يجبها، فطلبت الرقم ثانية فأبى أن يجيبها؛ فوضعت الهاتف بداخل الحقيبة ثانيةً في خجل. تنظر حولها فتجد أطفال يلعبون مع بعضهم البعض، وصوت يأتي من مقاعد قريبة يتغنون ويرقصون ويبدون في كامل استعدادهم للبحر، أما هي.. لم تكن مستعدة للألم، لم تكن مستعدة للانسحاب الآن، ولكنها في النهاية انسحبت.

***

نهض ياسين من مقعده وجلس بجانب يسرا يحاول إفاقتها، ولكنه حتى لم يكن يعلم ما الذي عليه فعله لمساعدتها وإن طلب الشرطة، الإسعاف، المطافيء، أي شيء، لم يعلم كيف سيصف لهم المكان، وسيزيد الطين بلة، وسينال نصيب الأسد من سخرية الجميع وأولهم حسان. كل موقف كان من الممكن أن يخرج منه بطل تخاذل وحول نفسه لمهرج مثير للشفقة. لطمها على وجنتها محاولاً إفاقتها بينما يناديها في أكثر من مرة فلم يستطع، عزم على إلباسها ملابسها؛ فوجد ما بدا له إنها فقدت عذريتها، ارتجف جسده ولم يتحمل النظر؛ فألبسها في حرص وحملها على كتفه خارج المخزن. كان المخزن بمنطقة نائية لا يصلها النور، وأقرب عمود إنارة كان عليّ بعد مائة متر. أصوات لكلاب ضالة تأتي من مدًى بعيد وصراصير حقل يبدو وأنها تجلس فوق رأسه، وطريق ترابي مظلم تؤنسه فيه الأشباح والعفاريت وتحتل جانبيه حقول الذرة. حملها ومضى بها في الظلام وكان الإنهاك والمرض في

هذه اللحظة أقوى من خنجر حسان. يسير بضعة أمتار ثم يضعها على الأرض ليلتقط أنفاسه، ثم يحملها مرة أخرى ويمضي من جديد. لم يعرف كيف السبيل للنجاة، ولكنه مضى مع الطريق وتصالح مع النهاية التي يجهلها، ربما سيقع في بعض أولاد الحلال فيدلونه على أقرب مشفى، وربما سيصطدم بمسجلين خطر وشحاذين وتجار أعضاء، ولكن هل هناك حل آخر؟ ولم يتساءل من أين أتى حسان بكل هذه الثقة بأن ياسين رغم جبنه سيترك شقيقته، ربما لأنه يعرف الإجابة التي لا يريد أن يتلوها على نفسه.

خرج أذان الفجر من مسجد على امتداد قريب فاطمئن قلبه وشعر بقرب النجاة. شقيقته ما زالت مغشيًا عليها على كتفه ولم تنجح أي محاولة لإفاقتها، وعندما اقترب من المسجد لاحظه بعض الرجال أعمارهم تتراوح بين الخمسين والستين؛ فهرولوا ناحيته ظنًا منهم أنه يحمل فتاة قتلها، فصاح فيهم منفعلاً:

– أين أقرب مستشفى؟.. شقيقتي ستموت.

فأخذه أحدهم إلى سيارته فوضعها ياسين في الأريكة الخلفية وانطلقا إلى أقرب مستشفى، وأثناء الطريق أخبره الرجل بأنها دخلت في غيبوبة وليست مغشيًا عليها كما يظن. وما إن وصلا لأقرب مستشفى أخرج ياسين هاتفه وطلب من أمه القدوم؛ لأنه وكالعادة لا يعرف كيف تدار الأمور.

***

وصلت فاطمة إلى محطتها الأخيرة التي كانت في نظر بقية المسافرين محطة في منتصف النوم، استقبلها ابن خالتها على الرصيف وهو يردد في تشفٍ:

- يا أهلًا بالغالية.. يا أهلًا.

مر الوقت ثقيلًا على قلب فاطمة حتى وصلت السيارة لكفر نعيم، ودخلت شارعهم الترابي الصغير لتقاطع مباراة كرة قدم مشتعلة بين أطفال المنطقة. استقبلتها أمها على الباب بملامح جادة، تراقب شرفات المنازل وتلقي نظرة هنا وهناك وكأنها تؤمن مسار ابنتها، حتى دخلت فاطمة المنزل بملامح مجرم مطلوب دوليًا يجلس بين مجموعة من خيرة ضباط وجنود الأمة، وصوت يرن بداخلها «ملعونة ليوم الدين يا فاطمة» وتخيلت أن أحدهم يفك عمامة حول عينيها قبل أن ينفذ فيها حكم الإعدام بالزواج.

لم يتغير شكل الشقة كثيرًا عدا أن الأب بداخل قبر الآن يلاقي ربه ويتلقى حسابه، أما عن الأم فجلست أمامها تتفحص جسدها لترفع رأسها وتسأل بنبرة جافة:

- أين ذهب صدرك؟

قطبت جبينها دهشة:

- لا أعرف.

أشارت لصدر ابنتها:

- عليك الأكل جيدًا حتى يوم زفافك حتى ينضج مرة ثانية.

سادت لحظات من الصمت القارس. فاطمة تجلس برأس محنية في انتظار سياف ضل طريقة ليفصل رأسها عن الدنيا، أو كلمة من الأم حتى تدخل غرفتها العزيزة وتنعم ببعض من النوم القلق، وما تمنته قد حدث بالفعل، قالت الأم بذات الجفاء:

- ادخلي غرفتك لتستريحي.. لن نتحدث الآن.

نهضت وحملت حقيبتها وقبل أن تدفع باب الغرفة باغتتها الأم بقصة قبل النوم:

- كنا عازمين على حرقك حية الليلة، ولكن ما حدث بالأمس حال دون ذلك.. من حسن حظك أنه لا يعرف بأمر عصيانك وعهرك في شقة صديقك حبيب القلب في القاهرة.

تنهدت في تعب:

- كفى يا أمي.

ودفعت الغرفة وأغلقت الباب من خلفها. تناولت هاتفها ثانيةً وطلبت رقم ياسين من جديد، أصرت أن تودعه رغم ما لاقته منه وما لاقته من أمها، ورغم معرفتها أن الهاتف ليس بحوذته في المركز. أجابها على غير المتوقع؛ فبادرت في فرحة من خرج من السجن:

- ياسين.. أنت بخير؟

أجاب بنبرة جافة:

- أريدك أن تغادري الشقة.

قالت منفعلة:

- هل أجبت على المكالمة فقط لتخبرني بذلك؟

- نعم.. ولا فائدة من وجودنا سويًا.

بصوت يتألم:

- أنا من وقفت بجانبك عندما تخلى عنك الجميع.. أنا من قدمت لك الحب الذي لم تقدمه لك أمك ولا شقيقتك ولا أي شخص في عائلتك.. أنا من كنت عائلتك.. الآن تحدثني بهذه الطريقة؟

تنهد غاضبًا:

- أنتِ من ألقيتي بنفسك في التهلكة.. يا الله!! لماذا لم تفهمي أن شخص مثلي كان سيتخلى عنكِ في يومٍ ما؟

بصوت باكٍ:

- أنا أعتذر عن غبائي يا ياسين.

بصوت حانق:

- إذن لماذا اتصلتي بي؟

بصوت يقاطعه النشيج:

- لأخبرك أنني غادرت شقتك بالفعل وعدت لمنزلنا وسأتزوج.. أردت أن أخبرك بأنني فشلت وبأنني أتمنى لك الأفضل في حياتك.. أردت أن أودعك، ولكنني لم أعرف أنك قاسي القلب هكذا!

خفض من نبرة صوته، وقال:

- أنا قاسي معك أنتِ فقط؛ لأنني لن أستطيع أن أقدم لكِ الحب الذي تحتاجينه.. لن أستطيع.

لم تجبه، وساد الصمت لما يقرب من ثلاثون ثانية؛ فاستطرد حديثه:

- مع السلامة يا فاطمة.. أتمنى لكِ النجاة في حياتك.

قاطعته:

- انتظر.

- ماذا؟

سألت في حرج:

- هل ما زلت تحب تلك الفتاة؟ رقية صحيح؟ هل ستتزوجها؟

فضل السكوت على الأجابة؛ فعادت ترجوه:

- أرجوك يا ياسين أخبرني.. هل تحبها؟

تنهد تعبًا:

- ياسين لم يعد يملك رفاهية الحب.

سألت في قلق:

- ماذا تعني ؟

- الأيام ستخبرك.

أنهى المكالمة وأغلق الهاتف ووضعه تحت وسادته ونهض لارتداء ملابس، وقبل أن يغادر تذكر رسالة سارة التي ما زالت حبيسة بنطاله بعد ما باغته أحمد سعيد في المحاولة الأولى. أخرج الرسالة وما إن بدأ في استكمال القراءة حتى تجهم وجهه وثارت وجنتيه وزاد احمرارهما وهو يتمتم كمن سقطت الصاعقة على رأسه:

- اللعنة!

***

كانت السماء ليلًا عندما كانت يسرا مستلقية على السرير بغرفتها في المستشفى، ومعلق بجانبها محلول ما، وعلى يمينها جلست أمها تراقبها في قلق. أما ياسين فكان يقف بخارج الغرفة يتأمل المارين بالردهة في لا مبالاة، بينما هناك بعض الكدمات تكتسي وجهه أثر الضرب، وتشوه أسفل قدمه، وشعور بالخذلان يجعله لا يجرؤ على النظر في وجه أمه ولا في وجه شقيقته. كانت يسرا في غيبوبة منذ ثلاثة أيام من الصدمة، ورفضت الأم أن تبلغ الشرطة أو أن تخبر أي شخص في العائلة بما حدث، وفضلت السكوت حتى لا يفتضح أمر ابنتها. مرت لحظات قبل أن تنادي الأم على ابنتها في قلق؛ فدخل ياسين الغرفة على الفور ليجدها بدأت تستفيق من الغيبوبة، عيناها أخذت تتحرك يمينًا ويسارًا لتجد نفسها في غرفة مستشفى ونظرات قلق من حولها وشعور ببعض الألم في نهاية ظهرها. بكت الأم عندما رأت يسرا تعود للحياة، وقبل أن تسألهم يسرا بصوتها المريض عن أين هي وماذا حدث صوبت عينيها نحو ياسين وقالت بصوت كسيارة انقطع البنزين فيها:

- لا أريد أن أراك مرة أخرى.. اخرج من هنا.

نهضت الأم وعانقتها بين دموع تتساقط علي ابنتها ودموع من شقيق تتساقط على الأرض. انهارت أعصابه دون أن ينهار أمامها، فهمست الأم في أذنها:

- هو من أتى بكِ إلى هنا.

فأعادت طلبها بنبرة أكثر انفعالًا ومرضًا:

- اخرج من هنا.. ابتعد عن حياتي!! أنت عار علينا مثل أبي.. اذهب وعش معه!!!

وشرعت في البكاء فالتفتت الأم لياسين وهي تشير له نحو الباب بصوت خائب الأمل:

- اخرج يا ياسين.. كفى ما حدث منك.

فعقب بصوت باكي:

- أين سأذهب يا أمي؟ ليس لي أحد.

تركت يسرا لبكائها وألمه، وذهبت نحوه قبالة الباب وهي تعطيه بعض المال:

- عد للمنزل ووضب حقيبتك وغدًا ستنتقل وحدك في منزل جديد؛ من مصلحة يسرا أن تبقى بعيدًا عنها وعننا.

كورت بعض المال في قبضة يده واضعةً يدها الأخرى على كتفه:

- لقد خاب أملي فيك منذ كنت صغيرًا ولكن ما باليد حيلة.

ألقى نظرة وداعٍ على شقيقته؛ فأدارت وجهها فمالت دموعها نحو أنفها؛ فخرج ياسين رغمًا عنه ليمضي في طريق يجهله، وأما عن الأم فقد أغلقت الباب من خلفه راجيةً أن يكون للأبد.

***

خرج ياسين من المستشفى بوجه باكي ولا يستطيع وقف نزيف الدموع ولا النشيج المستمر، ومن صادفه لحظة خروجه ظنه يبكي على موت عزيز

ما؛ فينظر له بعين الشفقة والمواساة حتى أن هناك رجل سبعيني تمتم بصوت مسموع «إنّا لله وإنّا إليه راجعون». لم يتوقف لتصحيح الأمر، هل سيخبرهم بأنه يبكي لأن هذا العزيز لا يريد رؤية وجهه مرة أخرى؟ أنه خذل العزيز مرات ومرات حتى تحطم واندثر؟ لا.. لندعهم يظنون أنها دموع حزن على روح صعدت لخالقها، الموت من أسهل مبررات الحزن وأكثرها تأثيرًا. نسي بكاءه وحزنه وانشغل في البحث عن مبرر لحزنه، على الرغم من أنه خرج بمفرده دون أن يعترضه أحدهم. ضاع نصف وقته في تبرير الحزن لأشخاص خيالين يسكنون رأسه.

كانت المشفى تطل على كورنيش النيل، فظل يسير بمفرده دون صحبة على عكس رواد الكورنيش. مراكب النيل بأنوارها الملونة تمر بجانبه مع مزيج من أغاني المهرجانات الراقصة ومراهقون يقفزون على سطح المركب ويتمايلون يمينًا ويسارًا، زوج يسير برفقة زوجته ويملآن الوقت بالحديث تحت نسمة هواء باردة جميلة، خيول تجر عرباتها في موكب يؤنس الروح، بائع لغزل البنات يمر من أمامه، وأطفال ملتفون حول عربة حمص شام و يسير هو من بينهم كما الذليل.

لم يدرك أين هو في الحقيقة، ولكنه ظل يشاهد الناس وأفراحهم أكثر من مشاهدة المبان المشيدة على أحدث طراز، حتى وجد نفسه على مقربة من ميدان التحرير؛ مقر معركة الأمس، فأخذ يسير بين شوارع هادئة بمفرده حتى وصل لميدان طلعت حرب. توغل بين الشوارع الضيقة حتى وجد نفسه أمام مقهى صغير مقاعدها قديمة ومتهالكة وروادها عجائز يقفون في طابور الموت تُدعى مقهى الونش. سحب مقعد وجلس بينهم بينما يتأمل

معالم وجوههم الأثرية القابلة للتحنيط. نظر في ساعتها وجدها الحادية عشر فجاءه رجل عجوز يسير بظهر منحني بعض الشيء من المرض، اقترب منه مبادرًا بابتسامة من يعرف عن الدنيا كل شيء وأي شيء:

- أنت لست من هنا.. صحيح؟

انتفض قليلًا، ثم أجاب بابتسامة مرتبك:

- لا.. لماذا تقول ذلك؟

بذات الابتسامة:

- هذه المقهى دار مسنين.. ألا تعرف ذلك؟ حتى مقاعدنا مسنة، حتى الشيشة هنا مسنة وتعب صدرها.. (ثم ضحك وهو يضرب على مؤخرة عنق رجل بجانبه).. أليس كذلك يا صحبة النحس.

التفت الرجل الآخر، كان رجل ستيني أشيب وصاح منفعلًا:

- ملعون من يعرفك يا رضا.

أطلق ضحكة هيسترية بأسنان يمكن الصيد بصنارة من داخلها، أنهى ضحكته ومال نحو ياسين أكثر:

- ومن هذا الذي هشم وجهك هكذا؟.. أنت من عيال التحرير؟

أجاب بصوت أكثر ارتباكًا:

- لا.. دخلت في مشاجرة فقط.

بابتسامة خبث:

– اااااه.. حسنًا.. حظ سعيد المرة القادمة.

– شكرًا.

– حسنًا.. شاي أم قهوة أم كولا؟ وإذا أردت شيء آخر للمزاج المتعكر أنا في الخدمة.

صاح فيه أحد العجائز:

– يا أخي أنت خطوة والقبر.

صاح فيه عم رضا مازحًا:

– قبر يلمك.

ضحك ياسين ضحكة كنغمة بيانو وحيد بين مجموعة كونترباصات على مسرح داخل بناء مهجور آيل للسقوط. أخذ يتساءل في قرارة نفسه لقد كبرت دون أب ودون جد أيضًا. هل كل من لديه جد يضحك من داخل روحه هكذا؟ قرر المكوث حتى يتملكه النوم أو الحزن، أيهما أقرب. كان الحزن بداخله ومن أمامه صحبة عم رضا وأصدقاءه؛ فطلب بصوت واثق:

– حسنًا يا عم رضا.. أريد كوب من الشاي أربعة معالق سكر.

قطب الرجل جبينه؛ فتحولت جبهته لمجموعة أحجار صغيرة وامتلأ وجهه بتجاعيد كشبكة طرق تنضب بالحياة.

– هل تريد الموت بالسكر؟.. هل تعلم أنني ودعت تسع أصدقاء ماتوا بالسكر على هذه المقهى؟

ابتسم في حب:

- هذا فأل خير.. لنجعلهم عشر أصدقاء.

ضاحكًا:

- علبة سكر بالشاي لأستاذنا.

انصرف الرجل فأصابت ياسين قشعريرة حماس وسعادة لم تأتيه في العمر من قبل، كيف تبدو الحياة مع جد عجوز يضحك معك ويحبك مثل هذا الرجل؟ ربما عم رضا هذا يراني مجرد ثلاثة جنيهات تجلس على مقعد، وربما يمارس ألاعيبه التسويقية كي أتردد على مقهاه الوضيعة تلك، وربما، وربما، ولكن في النهاية هل تبدو الحياة أجمل عندما تعيش مع جد يحبك أكثر من أبيك وأمك؟ أنا لم أرى جدي، ولم أحب أبي، ولم تحبني أمي، إذن كيف هي الحياة تحت ظل شخص يحبك؟ صحيح.. سأرسل لفاطمة ربما تكون الشخص الذي سيحبني.

فتح هاتفه ووجد رسائل عديدة منها على فيس بوك، فرد على الرسالة برقم هاتفه. من هذا المجنون الذي سيجعل عينيه تنظر لحروف هاتف محمول وتهمل النظر لمبان وسط البلد؟ لم تمر ثوان حتى وجد رقم غريب يرن؛ فأجاب على المكالمة ووجد صوت حاني يسأله عن مكانه في قلق؛ فأجاب في لا مبالاة:

- تعرضت لاعتقال صغير لا علاقة له بالثورة والميدان.

- ما الأمر؟

اجابها بينما يراقب عم رضا وهو يضع كوب الشاي على طاولته الصغيرة:

- لا شيء.. هل يمكننا أن نصبح أصدقاء يا فاطمة؟ أشعر أن هناك شيء بيننا.

# ( ٢٢ )

«الخالدون هم من يسلكون الدنيا من طرق لا أحد يراها سواهم، يعمرون في قلوب ساكنيها ويحفرون أسمائهم على أسوار كل مدينة. في عام واحد يفعلون ما لم يفعله بشر غيرهم في سبعين عام، تلك هي فطرتهم وهذا هو قدرهم. قبل أن نتشارك علة النفس وتتلاقى أقدارنا كنت فتاة تسلك دومًا طرق أقطعها وحدي، ولكنها طرق يعرفها الجميع، والجميع يحذرون أبناءهم من السير فيها لأن بدايتها انجراف ونهايتها جحيم، ولن تدخلها إلا وقد خلعت دينك وأخلاقك على أبوابها.

الحقيقة أنني حتى بعد أن قررت التخلص من شيطاني وفساد روحي وعقلي شعرت بالغيرة من فتاة لم تحمل لي إلا كل خير، وكأن الشيطان أحب العمل معي ويأبى أن يتركني. رقية، شعرت بغربة من غادر بلاده عندما وجدتها تلاقي كل نظرات الحب والإعجاب، وأنا من حرصت على العناية بنفسي! لم أجد حتى من يبتسم في وجهي. أردت أن يتذوق أحدهم مرارة الهزيمة قبل خضوعي للعملية وتحولي لإنسانة محبة هشة رقيقة.

أنا من حرضت أحمد سعيد على اغتصابها حتى تتقارب الكفتين، سارة الشيطانة التي تسببت في مقتل زميلتها ورقية التي تحطمت في حياتها مرتين، مرة بوفاة أمها ومرة بوفاة شرفها. عندما رأيت ما حدث لها أصابتني صدمة لم أتحملها ولم أقوى على الاعتراف بالأمر، صدمة لم تصبني عندما ماتت زميلتي، بل سخرت من ضعفها، ولكن عندما اغتُصبت رقية ورأيتها محطمة

أمام عيناي لم أتمكن من مقاومة ضميري وندمي على ما فعلت.

أعترف لك بكل ما فعلت خشية أن يتمكن مني النسيان فلا أتذكر ما فعلت و يموت الجُرم معي. خشية أن ألقى الله وأنا لا أدرك حجم ما فعلت من مصائب. لا أعلم كيف ستستقبل رسالتي وماذا ستفعل معي، ولا أجرؤ على طلب الغفران، ولكن أردت أن أخبرك بكل الحقيقة قبل أن يدفنها النسيان».

أنهى ياسين الرسالة وألقى الورقة على الأرض غاضبًا، وجلس على حافة سريره يحدث نفسه وشعر بأحمد سعيد يقف أمامه بثقب في منتصف رأسه ويشير عليه ضاحكًا ويسخر منه، ضحكة هيسترية أصبح صداها يزلزل رأسه؛ فنهض وأخذ يقطع الغرفة جيئة وذهابًا، فتفاجأ بمجسم مشوه الرأس لإبراهيم يطل عليه من النافذة ويضحك دون أن يتفوه بكلمة واحدة. وصوت يسير بداخل رأسه «أنت أضحوكة.. ستظل طيلة حياتك أضحوكة» راح يطرق رأسه بيديه لعله يسكت الصوت فلم ينقطع ولم تنتهي السخرية. صدم مقدمة رأسه بالحائط أكثر من مرة وهو يتمتم «كفى!!».. «كفى!!» فاختفى الصوت قليلًا عندما شعر بالألم. التقط أنفاسه، فوجد أبيه يقف عند باب الغرفة ويضع يده على كتف حسان الذي راح ينفث دخان سيجارته في الغرفة؛ فمسح ياسين عينيه والتفت للحديقة بينما تتصاعد أنفاسه مرة أخرى. شعر بموجات متداخلة من الصوت لم يميز منها إلا كلمة «أبله»؛ فهرول نحو الباب دون أن يجرؤ على النظر للأمام، وما إن فتحه حتى ركض في الممر بعيدًا.

استمر في الركض حتى هبط لساحة الاستقبال وما زال النزلاء منتشين

بشفاءهم من علتهم إلا هو فخرج للنافورة المستقرة أمام البناء ليجد سارة المنضمة حديثًا لأصحاب القلوب الرقيقة. خارت قواه وانهارت أعصابه وذهبت شجاعته في ثبات عميق أمام الفتاة التي جلست تقرأ القران على خرير ماء النافورة. بماذا سيخبرها؟ وما الفائدة الآن وفتاته مومياء حية بالمستشفى لا تتكلم. تفاجأ بأحدهم يربت على مؤخرة رأسه؛ فالتفت للوراء ليجده د. أحمد مبتسمًا يمازحه في حب:

- أليست لديك وصية أخيرة؟

- وصية؟

مط شفتيه وهو يربت على كتفه:

- انظر.. من يحدثك الآن ليس د. أحمد الطبيب النفسي بمركز إسماعيل محفوظ لتعديل الجينات؛ من يحدثك أحمد الذي يعز عليه أن يعطيك الأمل وأنت على شفا حفرة من الموت.

ألقى نظرة سريعة على سارة الهادئة بمجلسها، ثم قال:

- ليس لي أحد يحبني حتى أترك له وصية.

- اتركها لمن تحبهم أنت.

صمت ثانيتين قبل أن يستطرد:

- أليس هناك أي شخص في هذا العالم تريد أن تخبره أنك تحبه قبل مماتك؟

أخذ يفكر قليلًا ثم قال في ألم:

- أريدك أن تخبر رقية بأنني أحببتها.

أومأ رأسه بالرفض:

- ليس هذا النوع من الوصايا.

- لماذا؟

- بعيدًا عن أن الفتاة تعرضت لصدمات أدخلتها في صمت انتقائي سيحتاج وقت حتى تشفى منه، وأن اعترافك بحبك سيزيد الطين بلة وسيحول موتك لصدمة ثالثة؛ فكطبيب لها ولك أرى أنه من الأفضل أن تترك وصيتك لأشخاص آخرون.

سأل في قلق:

- هل هناك شيء لا أعرفه؟

- بعض الحقائق يُفضل أن تموت مع أصحابها.

- حقيقتي أم حقيقتها؟

- حقيقة أن الوحدة تجعلنا نهول من أمور لا وجود لها، ونضع خطط لأشياء لم ولن تحدث.

نظر للأرض وتأمل في الفراغ:

- يبدو أنني تركت قلبي في المكان الخطأ.

ربت على كتفه مرة أخرى:

- ابحث عن الحب في قلوب لا يسكنها الخوف والهلع.

ابتسم ياسين ساخرًا:

- انتهى وقت البحث، في الجنة إن شاء الله.

***

بدأت الشمس في المغيب وما زالت فاطمة مستلقية على سريرها بجسد منتفض وأطراف مرتعشة خشية أن تغمض عينيها؛ فيأتيها الموت من حيث لا تحتسب. ظلت تجاهد النوم حتى سقطت فيه، وما هي إلا لحظات حتى التقت بأبيها في وضح النهار، كان يقف في منتصف حقل أرز كبير مرتديًا جلباب أبيض تغطيه عباءة وعمامة الأزهر تزين رأسه، ويلقي خطبة ما على مجموعة من الناس يجلسون أمامه بين المحصول، بينما تتمايل سنابل الأرز من حولهم ولا يمكنك أن تتبين سبب هذه الخطبة، خمنت أن أبيها يلقي الخطب على المسلمين في الجنة كما كان يفعل في الدنيا. كان شعاع الشمس منعكسًا على وجهه؛ فلم تتبين ملامحه؛ فنادت في لهفةٍ «أبي، أنا هنا يا أبي.. خذني معك»، توقف الرجل عن خطبته ثم التفت ناحيتها دون أن يجيبها ودون أن تتبين ملامح وجهه، ثم عاد لجماعته وأكمل خطبته.

تحركت قليلًا للأمام؛ فقاطعتها ترعة صغيرة تغلق كامل حدود الحقل ولا يمكن لإنسان أن يعبرها إلا إذا كنت ممن يجيدون الطيران في الأحلام؛ فقفزت في الهواء علها تحلق في السماء حول أبيها؛ فلم ترتفع وظلت على الأرض القاحلة. اقتربت من الترعة فخرجت ثعابين من أسفلها لتتصدر سطح الماء وتطلق فحيحها في وجهها بنية الفتك بها. صرخت «أبي.. ساعدني!!»؛ فتوقف الرجل والتفت لها ثانية دون أن يخطو خطوة واحدة، فجلست على الأرض تخرج خيبتها في البكاء. أغمضت عينيها وسط البكاء، وعندما فتحتها رأت أبيها يسير نحوها بمفرده؛ فنهضت وركضت ناحيته

لتقاطعها الثعابين من جديد. توقف على البر الآخر ونظر لها بملامح جامدة لا يمكنك أن تتبين شعور صاحبها، فقررت القفز في الماء بين الثعابين حتى تلحق به؛ فوقعت فريسة بين أكثر من خمسين ثعبان أسود يعضون في جسدها وينقبون في عظامها بأنيابهم؛ فاختلط صراخها بدمائها. رفعت رأسها قبل هلاكها لتجد الليل قد هبط، وأبيها قد ذهب، وياسين يلقيها بالحجارة فتلقت واحدة في رأسها فصرخت من الألم، لتجد نفسها على السرير في غرفتها وسيول من الدموع والعرق تغطي وجهها، وأمها تقف على يمينها تنظر لها في تشفي قائلة:

- ربك يعاقبك في منامك قبل أن يعاقبك في الآخرة.

وضعت يديها على رأسها؛ فأزاحتها الأم وهي تقول:

- ارتدي ملابسك.. خطيبك قادم في الطريق.

التفتت لها بوجه منكمش من البكاء:

- خطيبي؟

- هل لديكي رأي آخر؟

لم تجبها، فهمّت الأم بالخروج وهي تردد بصوت مسموع:

- صحيح.. يخلق من ظهر العالم مومس.

انصرفت الأم، فهنضت وراحت تتأمل انعكاسها في المرآة المتشققة للحظات طويلة دون أن تتفوه بكلمة واحدة، ودون أن تسقط منها أي قطرة دموع جديدة، أحاديث داخلية حادة يقودها اليأس، ولمّا انتهى اليأس من

كلمته نهضت وارتدت ملابسها وخرجت لانتظار خطيبها عريس المستقبل.

***

كانت السابعة عندما تركه د. أحمد بمفرده، فجلس على رصيف الممر في حضرة الصمت والسكون قبل أن يتلقى ياسين اتصال من أمه في سابقة هي الأولى منذ أخرجته من المنزل، انقبض قلبه وتصبب عرقًا وخشى أن يرد على المكالمة فتبلغه بمصيبة جديدة لا يقوى على تحملها. يتذكر عندما اقتحمت وحدته وجاءت لشقته فقط لترى من تلك الفتاة التي تسكن معه، ولكنها في هذه المرة تهاتفه أولًا. نظر حوله ليراقب الأجواء ولم يفهم مراقبة الأجواء من أجل ماذا! ربما أمه بصحبة رجال كريمة إبراهيم ويتصلون به ليساوموه على روحها هي ويسرا؟ اللعنة.. لماذا أقحمت نفسي في الدفاع عن شرف فتاة لم تكترث لأمري؟ النتيجة أمي ويسرا وكل من حاربت لأجلهم. انتهى رنين الهاتف؛ فتنفس الصعداء وهو ينظر للشاشة في ترقب.. فرن الهاتف ثانية؛ فأجاب المكالمة بضغطة عصبية.

بادرت الأم بنبرة عادية:

- ياسين كيف حالك؟

- أنا بخير يا أمي.

- هل ما زلت تشتاق للمنزل؟

صمت قليلًا ثم أجاب بصوت متعب:

- نعم يا أمي.. أنا أفعل كل هذا من أجل العودة للمنزل، لقد خضعت للعملية وأصبحت شجاعًا كما أردتي.

في اهتمام:

– صحيح .. حمدًا لله على سلامتك.

– الله يسلمك يا أمي.

قالت بصوت أصابه المرض والعجز فجأة:

– لا تنسى زفاف شقيقتك في الغد.. ستسعد كثيرًا لرؤيتك.. جميعنا سنسعد لرؤيتك؛ لقد تخطينا جميعًا ما حدث ونحمد الله أن زوجها تفهم هو الآخر ما حدث لها ولم يكذبها أو يعايرها بعذريتها.. عوض الله كبير يا بني، وربنا عوض شقيقتك خيرًا على ألمها وصبرها.

– الحمد لله يا أمي.. أنا مشتاق لسماع صوت يسرا، أفتقدها كثيرًا، وأفتقد أحاديثنا وكل الأيام الجميلة بيننا (ضاحكًا) وأريد رؤية هذا الرجل الذي أحب تلك المجنونة.

لم تضحك واستمرت بذات العجز:

– أريد أن أترك الدنيا وأموت وأنا مطمئنة على أبنائي يا ياسين.

تنهد قليلًا:

– لا تقولي ذلك يا أمي.. سنعود سويًا وسترين أحفادك يكبرون على يدك.

– كله بأمر الله يا بني.

أنهى المكالمة وراح يبكي كالأطفال، لماذا تذكرت أنها أمي الان؟ تخبرني بذلك وأنا في طريقي للقبر؟ بعدما خضت كل هذه المعارك بمفردي حتى

قتلت في النهاية؟ لماذا يا أمي؟

استمر بكاءه حتى أصبح هيستريًا؛ فانتبهت سارة لبكاءه فغادرت النافورة وجلست بجانبه على الرصيف محاولةً فهم الأمر. رفع رأسه فوجد أحمد سعيد يجلس على يمينها وإبراهيم على يسارها؛ فالتفتت حولها لمعرفة لمن ينظر فلم تجد أي شيء؛ فأخذت تسأله في أكثر من مرة إن كان بخير أو لا، وتعيد عليه السؤال دون جواب، فربتت على كتفه بينما تمسك المصحف بيدها اليمنى، بينما تقول في حب:

– كل شيء سيكون بخير.. لا تقلق يا ياسين.

ضحك أحمد سعيد، وقال ساخرًا:

– الشيطان يعظ!

فقاطعه إبراهيم بذات الوجه المشوه:

– يا صديقي، لقد قتلتني وأنت تعلم أن ابنتي مريضة بالسرطان، قتلتني قبل أن أتوب.. لا تخبرها بما فعلت.. أرجوك! هل يمكنك أن تزورها؟ أخبرها أنني أحبها.

فعقب أحمد سعيد:

– لن يستطيع يا غبي؛ ياسين سينضم لنا الليلة، ولكن لا أعرف هل سيتلقى رصاصة في وجهه أم سيدهسون رأسه مثل ما حدث لك! أخبرني يا ياسين.. ما هي طريقة موتك المفضلة؟

صاح ياسين فيهم:

- اخرسوا!

ارتعبت سارة وارتبكت؛ فانفعلت في قلق:

- ما بك يا ياسين؟ مع من تتحدث؟

والتفتت حولها مرة أخرى، فقبض على رقبتها بقوة وهو يقول مهددًا:

- لا تعرفين رقية.. صحيح؟ أصبحتِ لا تعرفين رقية الآن.

حررت نفسها ونهضت غاضبة، ثم صاحت في وجهه:

- هل جننت؟ ما بك اليوم؟ ملعونة الشجاعة التي تفعل هكذا بالناس.. كنت بعقلك عندما كنت جبان.

نهضت غاضبة وانسحبت لداخل المركز في خطوات عصبية.

عاد يبكي فوجد رقم مخفي يرن على هاتفه؛ فأجاب المكالمة وتمنى أن يحمل الطرف الآخر صوت يسرا؛ فسأل في لهفة طفل ممزوجة ببقايا نشيج:

- يسرا؟

أجابه ذلك الصوت النسائي اللعين الذي يعرفه:

- لا.. من ستقتل يسرا إذا تخلفت عن موعدك اليوم.

- أ. كريمة؟

قالت في نبرة متكبرة لا تشبه صوتها الحنون على التلفاز:

- أتصل فقط لأخبرك أن موعدك اليوم.. السيارة ستنتظرك في العاشرة مساءً أمام المركز، سيعطونك السلاح والذخيرة وسيخبرونك بتفاصيل

العملية، أنت الوحيد الذي يعرف علاقتي بالعملية، هم فقط يعرفون أنهم يعملون لحساب شخصية سرية.. كل ما عليك فعله هو تنفيذ التعليمات وفقط.. نفذ العملية وسنتركك لتكمل حياتك البائسة.. حسنًا؟

استغرق ثوان في التفكير والتخيلات؛ فأعادت السؤال بنبرة أكثر حدة:

– حسنًا؟!

– حسنًا.

أغلقت المكالمة في وجهه، فأدرك أنه تبقى ثلاث ساعات فقط على نهاية عالم ياسين بحاضره وماضيه وأحلامه، وكان هناك أمل في منتهى الضئالة بأنه سينجو، كيف سينجو؟ لم يطرح على نفسه هذا السؤال؛ لأنه أكبر من حدود المنطق برأسه، ولكنه سينجو. كيف سيقاوم في طريقه للنجاة؟ لا يعلم، ولكن يعلم أن الشجاعة وحدها لا تكفي، وأن الجنون لم يصنع أبطالًا على مدار التاريخ؛ بل صنع سفاحين وقتلة متسلسلين. لم يتخيل نفسه في دور قاتل متسلسل على الرغم من قتله لأربعة أشخاص في ليلة واحدة، ولم يشغل رأسه برقية مثلما كان يحدث من قبل، ولم يضع فاطمة في مخيلته، أو أي شخص أحبه ولم يبادله الحب. وضع أمه ويسرا فقط في مخيلته. سيقاوم من أجلهم، سيحارب حتى الموت من أجلهم، سيعطيهم نهاية يتحدث عنها الجميع حتى قيام الساعة، لن يهرب مرة أخرى، لن يكون جبانًا، لن يختبئ في الصمت، ولن يتوقف حتى يتوقف قلبه عن الخفقان.

***

نوفمبر ٢٠١١

- هل أخبرتك أنني طُردت من المنزل اليوم؟

كان ياسين جالسًا على سور مدخل محطة مترو جمال عبد الناصر، عندما كان يهاتف فاطمة ولا يدري كيف قطع كل هذه المسافة سيرا من شارع طلعت حرب لجمال عبد الناصر! كانت الساعة قد اقتربت من الواحدة صباحًا والمترو في طريقه للإغلاق، بينما ياسين منهمك في حديثه مع فاطمة لا يشغل رأسه بأي شيء من الصدمة. ركاب يركضون على درجات المترو من أمامه، وسيارات تركض على الطريق، وشباب وعجائز يركضون خلف عربات بولاق وجامعة الدول. كل الناس تركض من حوله إلا هو. أعاد عليها قوله بسخرية:

- أنا جبان.. أمي طردتني من المنزل لأنني جبان، وشقيقتي لا تريد أن تراني مرة أخرى؛ لأنني جبان.. يا إلهي!

- وماذا ستفعل الآن؟

قفز من السور واتجه نحو السلالم في خطوات بطيئة، ولا يكترث لتحذيرات من يمرون بجانبه.

- سأمكث الليلة وسأوضب حقيبتي في الصباح وأغادر.

- لا عليك.. أنا والزملاء في الأسرة سنظل بجانبك إذا احتجت أي مساعدة.

قال مستنكرًا:

– زملاء؟.. أي زملاء؟ أنا أريد التحدث معك أنتِ فقط.. أنتِ تروقين لي يا فاطمة.

لم ترد..

– حسنًا يا ياسين.. أنت تعلم أنني لست من القاهرة وأنني جئت هنا فقط للدراسة.. لا تنخدع بشخصيتي في الميدان؛ فأنا علي الأغلب سأتزوج في النهاية شاب من القرية يعمل بوظيفة محترمة.. أرجو أن تتفهم موقفي.

دخل ساحة المحطة وجاء صوت المذيع الداخلي حازمًا «يأتينا الآن آخر قطار متوجه لحلوان.. الرجاء من الركاب سرعة التوجه للرصيف». أدخل تذكرته ووقف مع الجموع على الرصيف في انتظار القطار الأخير، وقال بذات الاستنكار:

– الثورة ربتنا على الاستقلال.. ما الذي يمنعك من ترك أهلك والاستقلال بنفسك؟

– لا أستطيع يا ياسين.. أنا أبي شيخ مسجد وأمي محفظة قرآن.

– ما المانع؟ اهربي من المنزل إذا تطلب الأمر.. ثورنا على النظام ولن نستطيع أن نثور على عائلاتنا أو أنفسنا؟

تنهدت وقالت بنفاذ صبر رقيق:

– وهل ستتمرد على جبنك وخضوعك لكل من حولك؟

أخرج زفيرًا غاضبًا ولم يجب؛ فأعادت السؤال:

– أجبني.. هل ستستطيع التمرد على جبنك؟

قال بنبرة ضعيفة ومستسلمة:

- لا.

ثم أغلق المكالمة في غضب.

( ٢٣ )

طنطا، كفر نعيم.

قدمت الأم القهوة للعريس الذي لا يهم معرفة اسمه وجلست بجانب ابنتها في المقابل. نكزت ابنتها في خصرها حتى تبادر بالحديث، نكزة ستتبدل بطعنة سكين إن بدل هذا العريس رأيه وقرر أن يستمر في حياة العزوبية. ارتشف قليلًا من قهوته، ثم ابتسم لفاطمة وبادر هو بالتحية، ولكنها ردت في مضض وبدا في نبرتها أنها مجبرة على مجالسته، فابتسم وحاول ثانيةً وهو ينظر لها تارة ولأمها تارة أخرى.

- أنا أعلم أنكِ حزينة على أبيكِ.. كان رجلًا عظيمًا يشهد له الجميع بالعلم والأخلاق، ولكن لا بد للحياة أن تستمر.

ردت بصوت هادئ وغير مبالٍ:

- بالطبع.

- أعلم أيضًا أنكِ ما زلتِ تجهلين من أنا، ولكن بالطبع سنتحدث كثيرًا ويطمئن قلبك ناحيتي.

بنصف ابتسامة:

- بالتأكيد.

التفت نحو الأم وقال في أدب:

- خالتي.. هل يمكنكِ تركي مع فاطمة بمفردنا قليلاً؟

نهضت على الفور وانسحبت لغرفتها، فحدق في وجه فاطمة بوجه لا يبشر بالخير، وقال حانقًا:

- لا تظنيني مغفل ولا أعلم ما حدث.

قطبت جبينها في عدم فهم:

- ماذا تقصد؟ لم أفهمك.

ابتسم ساخرًا:

- أنتِ هربتي للقاهرة بعدما تقدمت لكِ ولم تعودي إلا بالأمس.. والشيخ حسني العالم الجليل لم يمت إلا بسببك، وأمك ستجبرك على الزواج بي مما يعني أن روحك في يدي.

ابتلعت ريقها في خوف فاستطرد:

- لهذه الدرجة تخشين الزواج؟.. تخشين أن تكوني سيدة منزل محترمة ترعى زوجها وأولادها؟.. ولماذا؟ لأنكِ تريدين أن تكوني سيدة حرة مستقلة ناجحة تعيش بمفردها وتسهر مع الرجال، وربما ستخلع حجابها وتتخلى عن دينها؛ لأنه يقيد حريتها مثلما يلقونكم بكل هذا الهراء.

قالت في امتعاض:

- إذا كنت تعرف كل ذلك.. لماذا تريد الاستمرار في الزواج من فتاة عاهرة متبرجة مثلي؟

وضع قدم على قدم، وقال:

– ولاء العبدة أرخص من ولاء الحرة.. وأنتِ أصبحتِ عبدة لي؛ إذا أخبرتهم بأنني غيرت رأيي بعدما عرفت الحقيقة سيقتلعون رأسك الجميل هذا.. وحقيقةً بنات اليوم أصبحنا لا نملك عليهم شيء لننفرد بهم، أما أنت فأنا أصبحت أمتلك روحك الآن.. فلمَ لا؟

لم ترد فاستطرد:

– ستعيشين بقية عمرك عبدة لي.. خادمة مطيعة كالجاريات في قصر السلطان، تفعلين فقط ما أمليه عليكِ.. فتاة جميلة مثلك لا يصح أن تغادر السرير، ولا يليق بها إلا لبس قمصان النوم في المنزل.. ألم تفعلي ذلك في القاهرة؟

بدأت عيناها تنزف بالدموع.

– لم أستطع تخيل ماذا فعلتي في الأسبوع الماضي.. هل مارستي الجنس مع أصدقاءك هناك؟ ما رأيهم في صدرك يا فاطمة؟ أريد أن أعرف رأيهم، هل كنتِ جيدة معهم في السرير؟ لطالما راودني هذا السؤال وقريبًا سأشاهد الإجابة بنفسي.

انتكست رأسها، وظلت عيناها تنظر في الأرض، ودموعها تتساقط دون بكاء.

– عندما جئت لأول مرة كنت تتدعين العلم والثقافة وسخرتي من طريقتي.. فتيات القرية يطمعن في أن أتقدم لهن وعلى نهاية الزمان تأتي فتاة لا قيمة لها تسخر مني وتهرب من منزلها لأنها لا تريد الزواج بي! الآن مصيرك في يدي.

قاطعته في انفعال مكتوم:

- ألن تكتفي من هذه المسرحية الخائبة؟ ما كل هذه الشماتة التي على وجهك؟ هل كسرت غرورك لهذه الدرجة؟ (ضاحكة في سخرية) حسنًا حصلت على انتقامك وستتزوج العاهرة التي سخرت منك.. هل تريد أن تخبرني بشيء آخر؟

أجاب في ابتسامة:

- مثيرة للشفقة يا فاطمة.. ما زلتي تظنين أنكِ حرة نفسك!

قالت حانقة:

- حرة وسأظل حرة.. ولن أتزوجك يا عار الرجال، افعل ما شئت لم أعد أهتم، واللحاق بأبي خير لي من أن أعيش مع خروف مثلك.. هل ظننت نفسك قادرًا على تحطيمي؟.. من أنت حتى تحطمني؟ أنت مجرد وضيع يستمتع بمساومتي على حياتي.

جحظت عيناه غضبًا، وفتحت الأم باب غرفتها وعيناها تلفظ حمم بركانية، نظر العريس للأم في استفهام غاضب، فصاحت فاطمة مشيرة نحو الباب:

- اخرج من منزلنا، لا تعد هنا مرة أخرى.. أنا أشرف منك ومن عائلتك بأكملها.

تحرك نحو الباب وعلى وجهه الهزيمة؛ فهرعت الأم ناحيتها وصفعتها على وجهها بقوة ١٠ ريختر؛ فسقطت على الأرض وسال الدماء من شفاهها، فقالت الأم متوعدة:

- موتك على يدي يا أنجس خلق الله.

مسحت الدم من شفاهها قائلة:

- لا أخشاكِ ولا أخشى الموت.. على الأقل سأجاور أبي، أما أنتِ.. فلعنة الله عليكِ!

عقبت الأم ساخرة:

- الكفار لا يدخلون الجنة، وأنتِ كافرة ونجسة.. أبيكِ أشرف من أن يجاور أمثالك.

ركلتها في رأسها، ثم سحلتها في أرض الصالون، وكبلت يديها وقدميها، ووضعتها بجانب أحد المقاعد، ثم طلبت من ابن شقيقتها أن يأتي، والذي ما إن رآها مكبلة وملقية على الأرض ابتسم بعدما جاءت فرصته في التخلص من فتاة متبرجة وإرسالها للجحيم. ثم ذهبت ابتسامته وقال في لهجة زعيم عصابة:

- لا يمكننا أن نقتلها هنا، ولا يمكننا أن نقتلها الآن .. علينا الانتظار للفجر.

ثم أتى بلاصق «شيكرتون» وألصقه بفمها، وانهمك في سن إحدى سكاكين المطبخ لترسلها للجحيم في ضربة واحدة.

***

القاهرة، زهراء المعادي.

مركز إسماعيل محفوظ.

نظر في ساعة يده، كانت العاشرة إلا عشر دقائق. يجلس في صالة الاستقبال يراقب النزلاء وهم في طريقهم للخارج بعدما انتهت رحلتهم العلاجية القصيرة وبعدما تخلصوا من علة نفوسهم، ولا أحد يعلم أن على هذه الأرض تم اغتصاب فتاة. ظل يبحر في بحر أفكاره حاملًا في يده ثلاثة مظاريف بيضاء أعطاها لـ د. أحمد بينما يهم بالمغادرة. تناول د. أحمد المظاريف في هدوء دون سؤال أو تعقيب، وتقدم نحو ياسين وعانقه بحرارة وهو يهمس في أذنه :

– لم يكن خطأك.. نحن من أخطأنا في حقك يا ياسين.

ثم عانقه بقوة أكبر محاولًا كبت دموعه:

– سأفتقدك يا صديقي.

ابتسم ياسين في استسلام قائلًا:

– شكرًا على كل شيء.

نكزه في كتفه:

– مهما حدث اليوم.. أنا تشرفت بلقاء شخص مثلك.

ثم عانقه لمرة أخيرة.

خرج ياسين وأخذ يمشي بصحبة النزلاء الآخرون نحو باب المركز. الجميع حملوا حقائبهم، وانشغلوا في الحكي والمزاح، وتخيل كيف ستكون الحياة بعدما تخلصوا من ماضيهم. هل سيعود لنا الشغف من جديد ونتمتع بمناعة نفسية ضد حماقة البشر والعالم أم ستصيبنا صدمة أقوى من ما مررنا

به؟ أخذ يسمع ويتمتم في قرارة نفسه «ياليتني معكم!.. ياليتني منكم!». لاحظ رفاقه كريم وفتحي وسارة يسيرون هم أيضًا وعلى وجوههم السلام، في مشهد سيريالي يشبه نهاية فيلم الإرهاب والكباب؛ عندما خرج الجميع من مجمع التحرير ظنًا منهم أنهم نجوا وحصلوا على حريتهم أخيرًا.

وصلوا للبوابة الرئيسية فتفاجأ بالكثير من السيارات تنتظر في الخارج، وعائلات تبحث عن ذويها، أما هو فانتظرته سيارة الموت. بحث عنها فوجد سيارة سوداء رباعية الدفع بزجاج أسود ورجل ما عريض الجثة يلوح له بوجه حديدي بارد. توجه للسيارة وفتح الباب وجلس بجانب السائق، فالتف الرجل حول السيارة وأخذ موقع القيادة. انتبه لوجود رجل آخر يجلس في الخلف فحياه في مضض. بدأت تنطلق السيارات من أمام المركز وسط فرحة عارمة من الجميع، وظلت سيارة ياسين في موقعها لم تتحرك، فتحدث السائق دون أن يلتفت لياسين:

– أنت من قتلت العقرب؟

أجاب بنبرة عادية:

– نعم.

– يستحسن لك أن تكون في مثل قوته.

قاطعه بنبرة جافة:

– أين سلاحي؟

تحدث الرجل في الخلف في جفاف:

– عندما نصل.

– حسنًا.. ما الخطة؟

تحدث السائق:

– لا توجد خطة.. سننهي الأمر ونرحل.

أدار السيارة وبدأت في التحرك:

– ڤيلا الرجل في التجمع، في منطقة ما زالت تحت الإنشاء، ولا توجد عليها حراسة.. فقط هو وزوجته وابنته، ولن يفيدك معرفة أكثر من ذلك.

أومأ بالفهم .لم يتحدثا معه طيلة الطريق؛ فحاول التماسك وقتل رهبته التي تذكره بأيام الجبن والخضوع، ولكن الفرق أن الأمر هنا لا يحتمل أي ادعاء للبطولة، حتى أنه شعر بنغزة قوية في قلبه، ورعشة طفيفة في أطرافه، وبوادر نوبة هلع جديدة في منتصف عملية خطيرة. إن حدث له أي شيء سيقتلونه على الفور، ومهما كانت ثقافتهم لن يتفهموا وسيظنونه ممسوس أو معشوق من الجن. لا يوجد أحد هنا في هذه السيارة سيدعمك نفسيًا أو يحفزك بكلمات تشجعية ويعانقك في لحظات الخوف. الرصاص هنا هو اللغة الرسمية للحوار؛ فحاول التقاط أنفاسه رويدًا رويدًا، وقال بنبرة عالية لا تناسب الموقف:

– هل معكم مياه؟ أو سجائر؟

أوقف السائق السيارة فجأة، والتفت لياسين، ثم التفت لصديقه بالخلف:

– مياه أو سجائر؟ أنت مجنون بالفعل مثلما أخبروني..

- أنا لست مجنو...

قاطعه في حزم:

- انظر.. أنا لا أكترث بما في داخل رأسك، كل ما ستفعله الآن هو أن تظل صامتًا حتى انتهاء العملية.. مفهوم؟

أجابه في لا مبالاة بعد ما انتظم تنفسه:

- كل ما طلبته مياه أو سجائر.. ومثلما قتلت أربعة أستطيع جعلهم خمسة، ستة.. لا أهتم.

التفت السائق لصديقه في الخلف وتبادلا النظر في ارتياب، ثم عاد وقال لياسين بابتسامةٍ صفراء:

- معي سجائر.

ثم أخرج واحدة وناولها إياه وهو يعقب ساخرًا:

- سنعتبر أن امنيتك الأخيرة كانت تدخين سيجارة.

ابتسم في تحدٍ؛ فضحك السائق وهو يتمتم «شباب اليوم!» وانطلق بأقصى سرعته مرةً أخرى. همس أحمد سعيد في أذن ياسين «ألم أقل لك أنك ستلقي بنفسك في التهلكة؟»، فقاطعه إبراهيم «ابنتي يا ياسين الكلب.. من سيرعاها من بعدي؟»، فتمتم ياسين «أنت من فعلت هذا بنفسك وبي.. كان يمكنك أن تعيش حياة سعيدة مع ابنتك لولا ما فعلته برقية»، فعقب أحمد سعيد ساخرًا «أنت مجنون بالفعل كما قال السائق.. الفتاة لا تحبك يا مغفل، ألم تفهم ما أخبرك به أحمد مكرم؟»، أشاح ياسين بيده في السيارة متمتماً «ليس

من شأنك»؛ فزمجر الرجل في الخلف وقال منفعلًا:

- أنت.. هل تتحدث مع نفسك؟

استمر ياسين في حديثه معهم وتمتم بضيق «بسببك لن أذهب لزفاف شقيقتي يا سعيد الكلب»، فهمس سعيد بنبرة أكثر حدة «كلب؟.. أنا ميت بالفعل ولكن لا تستفزني يا ياسين؛ حتى لا أغتصب أحلامك مثلما فعلت بحبيبة القلب»، أخذ ياسين نفس طويل من السيجارة ونفث هوائها متمتمًا بفخر «أنا قتلتك يا سعيد.. لا تنسى ذلك، والثقب بداخل رأسك أنا من فعلته بك».. نكزه السائق بقوة غاضبًا:

- لا تتحدث مع عفاريتك في سيارتي وإلا اقتلعت رأسك.

دفعه ياسين مستنكرًا:

- أنا أتحدث مع سعيد وإبراهيم ما شأنك أنت؟

نكزه الرجل الجالس بالخلف، كان يدعى صبري:

- أين أدويتك يا صديقي؟

قال بنبرة جافة:

- أنا لست مجنون ولست مريض.. لقد تركتهم بمفردهم في ظلمة القبر، وأنا فقط أتحدث معهم حتى لا يشعرون بالوحدة بالداخل.. أنت لا تعرف شعور الوحدة وما يفعله بالإنسان.

أومأ الرجل برأسه مدركًا أن هذه الليلة لن تنتهي على خير؛ فنكز السائق:

- أسرع قليلًا؛ أنا لا أريد أن ينتهي بي الأمر في مستشفي العباسية.

وصلت السيارة لإحدى الشوارع الفرعية، داخل منطقة تغطيها وحدات سكنية تحت الإنشاء بالتجمع الخامس، ولا تغطيها أي أعمدة إنارة، وليس هناك من منازل مأهولة إلا القليل. استقرت السيارة أمام فيلا من طابقين تتصدرها حديقة صغيرة وجراج سيارات بداخله سيارة «بي ام دبليو» من الفئة السابعة وبجانبها سيارة «كيا سيراتو هاتشباك». هبط الثلاثة من السيارة فأخرج السائق مسدس وأعطاه لياسين وبدأوا في تعمير أسلحتهم بالزخيرة؛ فبدأت الرعشة تسري في جسد ياسين وشعر بتنميل في قدمه، فتفاجأ بالسائق يأمرهم في حزم «هيا!»، قفز الثلاثة من سور الفيلا وعبروا الحديقة حتى وصلوا للباب، وظل ياسين يسير في المؤخرة ولا يفهم أي شيء من ما يحدث، محاولًا إقناع عقله أنه داخل كابوس وسيستيقظ بعد قليل بغرفته وسينهض لتناول الفطور مع أمه ويسرا.

عرف ياسين أن السائق يدعى «بلاك» عندما ناداه صبري بذلك، التفت بلاك لصبري وتمتم في حذر «ماذا تريد؟»، قال الآخر «متى سننفذ الوصية؟» رمقه بنظرةٍ حادة ولم يجبه، والتفت ثانية للباب ورن الجرس كأي زائر يمكن أن يأتي في وقت متأخر. وضع بلاك وصديقه كواتم للصوت على أسلحتهم وحرروا زر الأمان ومن خلفهم ياسين، فعل مثلهم استعدادًا للهجوم على ضحيته الخامسة.

شعروا بوقع خطوات على بعد أمتار قليلة من الباب داخل الفيلا، وما إن تنحوا وابتعدوا عن الباب حتى أمطرهم صاحب المنزل بوابل من طلقات الرصاص حطمت زجاج الباب وعندما بدأ الرجل الأربعيني في إعادة تعبئة سلاحه وسط صراخ من زوجته وابنته قريب المصدر دخل بلاك ورفاقه عبر

الباب المحطم، وأمطروا قدم الرجل بالرصاص؛ فصرخ وسقط على الأرض وبدأ يتشنج ويتلوى، فاقترب منه ياسين ناظرًا له في أسف والتقط سلاحه الآلي وألقاه جانبًا.

صفعه بلاك على وجهه صفعات خفيفة، وهو يردد ساخرًا:

- لم يكن ضروريًا إطلاق كل هذا الرصاص، أقلقت منام الناس.. أين التماثيل والكاش؟

لم يجبه؛ فجلس بجانبه وبدأ يصفعه بكعب المسدس على وجهه:

- لا تضيع وقتي.. اتفقنا؟

تركهم ياسين وبدأ يتأمل في أثاث الفيلا الفاخر، ولم يشغل رأسه بالرصاص والعملية والصراخ القريب؛ فصاح صبري:

- أنت.. ماذا تفعل؟ ابحث عن زوجته ليس لدينا وقت.

انتفض ياسين من غفوته، وأخذ يقطع ساحة الفيلا بحثًا عن الزوجة، وفي الحقيقة الأمر لم يأخذ وقت كبير حتى عثر عليها مع ابنتها مختبئين داخل خزانة ملابس. أشار لها بالخروج وهي في حالة إعياء تام، وتمتم بنبرة تبرير طفولية:

- أنا لست شرير مثلهم.. اطمئني.. نحن نحتاج زوجك فقط في أمر ما وسنرحل على الفور.

ثم داعب فتاتها الصغيرة التي لم تتعدَ السبع أعوام وأخذ يمشط رأسها بأصابعه؛ فهدأت الأم ونظرت له في ارتياب هي وبلاك وصبري، ولم يفهم

أحد ما يفعله. اصطحبهم وطلب منهم الجلوس على الأرض بجانب الزوج وكمم أفواههم بلواصق سوداء مبتسماً بحب، نهض بلاك وابتعد ثلاثة أمتار ثم صوب السلاح على رأس الزوج وقال بنبرة عادية:

- سأكررها مرة ثانية.. أين خبأت التماثيل والكاش؟

أجابه الرجل باكيًا:

- أنا لا أعرف شيء عن ما تتحدث عنه.

صوب سلاحه نحو رأس الزوجة وأطلق عليها الرصاص فسقطت على الأرض غارقة في دمائها، وأخذت الفتاة تصرخ صراخًا مكتومًا، وقبل أن تنهض وتركض بعيدًا جذبها صديق بلاك من رقبتها وألقاها على جثة أمها ووضع قدمه على بطنها حتى لا تحاول الهرب ثانية. صاح ياسين:

- ماذا تفعل؟ إنها طفلة.. ما دخلها بالأمر يا كفرة؟

لكمه بلاك في وجهه فسقط على الأرض يتألم بأنين مكتوم، ثم عاد وصوب سلاحه على الزوج وقال بذات النبرة العادية الجافة:

- هل تعرف الآن؟

نظر الرجل لبحر الدماء بجانبه، ولابنته الصغيرة المرتجفة رعبًا؛ والتي لم تتوقف عيناها عن نزف الدموع، ولم يتوقف فمها عن الصراخ المكتوم؛ فأجاب في رجاء:

- أرجوك لا تؤذي ابنتي.. سأخبرك بكل شيء ولكن لا تؤذي ابنتي، سأخبرك بمكان التماثيل، ولكن أرجوكم اتركوا لي مالي، أريد مالي فقط

وخذوا ما تريدون.

قال بلاك ساخرًا:

- هل تساومنا؟

اومأ بالنفي بينما يرفع يده مترجيًا:

- لا.. لا لا.. لا أجرؤ على مساومتك.. إنه فقط طلب صغير.

التفت بلاك لصديقه وسأله ساخرًا:

- ما رأيك؟

صوب صبري السلاح على الفتاة، وأطلق الرصاص على رأسها؛ فسقطت صريعة في الحال وانفجرت نافورة دماء أخرى على الأرض بجانب دماء أمها؛ فانهار الزوج وشرع في العويل على عائلته، أما بلاك ففرد ذراعيه وقال في ابتسامة دبلوماسية:

- طلبك مرفوض.

نهض ياسين وانقض عليهم صارخًا:

- قتلتم طفلة يا أولاد الكلب!!!!.. ماذا فعلتم؟

انهار وجلس على الأرض يبكي كالأطفال، فصوب بلاك السلاح على رأس ياسين آمرًا:

- انهض.

رفع يديه مرتعبًا:

- لا.. لا أرجوك ليس الآن، لا تقتلني هنا.. اعطني فرصتي، أنا لم أفعل أي شيء بعد.

- انهض، أنت من سيقتله.

نهض ياسين خائر القوى، لا يستطيع المشي على قدميه، ولا يستطيع استجماع أنفاسه، ولا يقوى على تمالك نفسه من منظر الدماء. قال بلاك للزوج:

- والآن.. أين خبئتهم؟ أنت القادم؛ فلا تختبر صبري أكثر من ذلك.

قال في إعياء:

- سأخبركم.. سأخبركم.

***

طنطا، كفر نعيم.

السابع من يوليو، الثانية عشر صباحًا.

جلست الأم في وسط حقل للأرز في عتمة الليل على ضوء القمر، ترعة صغيرة تمر على حدود الحقل من الشمال وخضار لا ينتهي يغطي بقية الجوانب. أخذ ابن شقيقتها يضرب بالفأس في الأرض، وبجانبهم فاطمة ملقاة على الأرض وما زالت على قيد الحياة بفم مكمم، مستسلمة لا يصدر منها أي أنين أو مقاومة، كانت حزينة فقط لأنها ستدفن بعيدًا عن أبيها. أخذت الأم تراقبه وهو يحاول صنع حفرة كبيرة تكفي لاحتواء جثة فاطمة،

فسألته في قلق بينما تراقب الأجواء حولهم:

- هل تبقى الكثير؟

- الصبر يا خالتي.. أريد لعُمق الحفرة أن يكون متر على الأقل؛ لا أريد لرائحتها العفنة أن تفضحنا فيما بعد.

أومأت برأسها وظلت تراقب الأجواء، أما هو فظل يضرب بالفأس بلا هوادة ومن حولهم أكابيلًا بصوت كورال صراصير الحقل.

***

أخذهم الزوج إلى قبو مغلق تحت الأرض، وبعدما فتحوا الباب وجدوا تماثيل أجدادهم المصريين القدماء تستقبلهم بحفاوة من الذهب. دخلوا من خلفه وهم يتأملون البضاعة بنظرات جائعة وشهوانية، بينما انشغل الرجل في إخراج حقيبة أموال كبيرة من القبو ثم سلمها لهم. كانت تماثيل الأجداد الصغيرة في حاجة لأكثر من شخص لحملها ووضعها بسيارة ربع نقل، ولم يعلم أحد كيف هرب هذا الرجل بالتماثيل في البداية!

أخذوا منه الحقيبة، ثم التفت بلاك لياسين وأمره:

- هيا.. تخلص منه.

قال بنبرة متلعثمة بينما يتأمل كنوز الأجداد:

- ماذا أفعل؟

أجاب صبري بنفاذ صبر:

- تستخدم المسدس الذي تحمله في يدك وتطلق الرصاص على الرجل،

ألست البطل المغوار الذي فجر رأس العقرب؟ هيا اقتله.

– كفانا قتل اليوم.. لقد قتلنا زوجته وابنته وحطمناه بما فيه الكفاية.

– هل تظنني مؤسس جمعية خيرية؟

رفع ياسين سلاحه في استسلام وصوبه نحو الرجل، وهو يقول في قرارة نفسه «لا تفعل أي شيء مجنون اليوم.. إما أنت أو يسرا»، قال ياسين في أسف:

– أنا آسف يا محترم، ولكن ليس لدي حل آخر.

– أرجوك.. لقد أعطيتكم كل شيء أردتموه.

التفت ياسين لبلاك وقال في رجاء:

– ألا يمكننا أن نعفو عنه؟

صفعه على مؤخرة عنقه منفعلًا:

– سأفجر رأسك إن لم تقتله الآن.

أطلق ياسين الرصاص على الرجل وكان الصوت مدويًا ولكن لم تصبه.. ظل على قيد الحياة ولم يعثر ياسين على مكان الرصاصة؛ فعاد وأطلق الرصاص فلم تصبه؛ فاستمر في إطلاق الرصاص حتى فرغت الذخيرة، فدخل بلاك وصبري في نوبة من الضحك الهيستيري بين ارتباك من ياسين وانهيار من الرجل. قال بلاك ساخرًا دون أن يتوقف عن الضحك:

– هل ظننتنا سنعطيك سلاح حقيقي حتى تقتلنا في النهاية؟ هذا مسدس صوت.. ولكن أحسنت، أنت جندي مطيع.

وبينما يضحك أطلق بلاك الرصاص على رأس الزوج؛ فسقط في القبو

صريعًا بين التماثيل ومات على الفور.

- والآن.. حان دورك.

قالها صبري؛ فدفعهم ياسين وهرول نحو الخارج ركضًا، فأطلق عليه الرصاص لتصيب أذنه اليمنى قبل أن يختفي داخل الفيلا، ويخرج للحديقة ويقفز خارجًا، ويركض في الشارع كالمجنون بلا هدًى.

وصلت سيارة أخرى للرجال المرافقين لحمل الكاش والتماثيل، فخرج بلاك وصبري واستقلا سيارتهم بخطوات بطيئة وملامح هادئة، وخرجا خلف ياسين لتصفيته وإسدال الستار على قصته.

ركض ياسين في الشارع لأكثر من خمسة عشر دقيقة حتى وصل لشارع التسعين الشمالي بين نظرات تعجب من المارة، وبعضهم أخرج هاتفه وشرع في تصوير ياسين وهو يركض كالمجنون ودماءه تتساقط على قميصه وعلى الأرض. اعترض ياسين طريق تاكسي وركب بجانب سائقه الخمسيني وصوب مسدس الصوت الفارغ على رأسه منفعلًا في مرض «السيدة زينب.. اذهب بي إلى السيدة زينب، سأعطيك ما تريد»، أدار الرجل محرك سيارته وانطلق بسرعة على الطريق بجسد يرتجف ووجه مرتعب، وصوت يقول في ارتباك «أرجوك لا تقتلني.. أنا لدي عائلة لا يوجد من يعيلهم سواي».. صرخ ياسين منفعلًا «لن أقتلك!!.. افعل فقط ما أمليه عليك وسأتركك»، ثم التقط زجاجة مياه كانت بجانبه وتجرعها كاملة.

***

طاردتهم السيارة على الطريق دون أن تتعدى السرعة القصوى، وكأنهم

يستمتعون بجولة سياحية داخل القاهرة ولا يشغلهم أن يبتعد التاكسي ويختفي عن الأنظار. كانت كل الخيارات متاحة أمامهم، إذا هرب ياسين اقتلوا شقيقته، الأمر بسيط. وإذا قتلوا شقيقته سيعودون لقطع لسانه وقتله فيما بعد، لا يوجد تحدٍ في الأمر أو أمر يصعب فهمه.

وصلت السيارات لمدينة نصر فالتهمهم الزحام على الرغم من تأخر الوقت وهروب المصريين للبحر، ياسين أخذ يدب في الأرض وينظر حوله خشية أن تنفجر رأسه من رصاصة يجهل مصدرها، ولا يوجد منفذ يمينًا أو يسارًا لاختصار الطريق والهروب. أما عن بلاك فأشعل سيجارة جديدة بينما يراقب في هدوء، بل وفتح نافذة السيارة ليستمتع ببعض الهواء المخلوط بعوادم السيارات. لم يكن الوقت والمكان المناسب لصنع جلبة لا فائدة منها؛ خاصة أن ياسين مجرد شاب عشريني لا قيمة له ولا يمثل أي نوع من الخطر في أعينهم. مجرد فتى وحيد ليس له أحد، كالفأر في المصيدة.. نتركه يقاوم ويقاوم حتى يحتضر من الجوع واليأس؛ فنضربه على رأسه بالقاضية ونعود لنكمل سهرتنا في هدوء.

ياسين ما زال ينظر حوله في رعب وبدأ في النحيب كالأطفال، ودعى السائق ربه أن يخرجه من هذه الليلة على خير وسيتوب عن أي ذنوب ارتكبها؛ فصاح ياسين «أخرس قليلًا.. أنت تربكني!!»، انخرس الرجل، فراح ياسين يصيح ملوحًا بالمسدس داخل السيارة «هيا.. هيا.. افتحوا الطريق هيا»، تصبب عرقًا فراح يمسحه في توتر وما زال يصيح بصوت أقل انفعالًا يغلب عليه الإجهاد «هيا أرجوكم». انفكت العقدة رويدًا رويدًا فضغط على بوق السيارة في عصبية، وبدأت السيارة في التحرك قليلًا حتى

تخطت الزحام في خمسة عشر دقيقة تقريبًا ومن خلفها سيارة بلاك، تسير بين الجموع كدبابة روسية بين جيش من العربات الكارو.

وصل التاكسي لمنطقة السيدة زينب بعد أربعين دقيقة من المعاناة على الطريق، وبدأ في التوغل بالداخل حتى استقر أمام منزل ياسين في الواحدة صباحًا. ركض ياسين للطابق الثالث ودخل شقته وأغلقها بالترباس دون أن يفتح النور. أضاء كشاف الهاتف وجلس على الأريكة بالصالة وطلب رقم يسرا، بينما يحاول كتم أذنه الدامية بخرقة قماش بالية.

***

في غرفة يسرا استمرت الأهازيج والرقص والأغاني الصاخبة رغم انتصاف الليل، ترقص بفستان أحمر داكن مكتوف اليدين حافية القدمين وشعرها مفرود حتى منتصف الظهر .أصبحت فتاة تملك من العمر اثنان وعشرون ربيعًا، تنافس فتيات الغرب في الجمال، وفتيات الشرق في التشوهات النفسية والجسدية. امتلأت الغرفة بالأصدقاء والأقارب الذين أصروا أن يشاركوها فرحتها حتى النهاية، وإن فتحت باب الشرفة المستقر بغرفتها ستجد الأنوار تغطي المنزل بالكامل ولن تجد في الشارع ما يشعرك أن هناك أحد ينام في القاهرة.

أخذت تدور وتتمايل وتقفز من الفرحة وتغني بصوت صاخب مع الأغاني؛ فتسقط الفتيات حولها على الأرض من الضحك. ثم وقفت أمام المرآة وغيرت في صوتها وكأنها فتاة صغيرة تتدلل «زفافي غدًاااا.. سيصبح عندي زوج ومنزل غدًاااا» ثم التفتت لأصدقائها ضاحكةً «هيا.. ارقصوا معي»؛ فقفذوا في أماكنهم من الفرحة مع انعكاس إضاءة لمبات الزينة الملونة

بالشرفة.

رن هاتفها فلم تنتبه له ولم تسمع صوته، فلاحظت نور الشاشة إحدى صديقاتها فنكذتها بقوة وأعطتها الهاتف قائلة «هناك رقم غريب يتصل بك».. التفتت يسرا قاطبةً جبينها في تعجب «الآن؟.. من هذا الذي يتصل في هذا الوقت؟»، ضحكت صديقتها ساخرة «مثل من يرقصون في هذا الوقت».. التقطت الهاتف ودخلت الشرفة، وأجابت المكالمة. فباغتها المتصل بصوت متعب:

– يسرا؟

– من؟

– أنا ياسين.. شقيقك.

شعرت بنغزة خفيفة في قلبها، فأشارت لأصدقائها بعصبية ليخفضوا الموسيقى؛ فتغيرت ملامحهم وتوقفوا عن الرقص بينما يراقبون تعبيرات وجهها، بينما قالت هي بنبرة متلعثمة:

– ياسين.. كيف حالك؟

وبين انعكاسات لأضواء ملونة على وجه يسرا الممتقع، وظلام دامس كئيب في شقة ياسين، قال لها:

– ليس لدي وقت كثير.. أردت فقط أن أتصل بك لأهنأك على زواجك، وثانيًا لأخبرك أنني تغيرت، لم أعد هذا الشقيق الذي خذلك كثيرًا وكان نسخة سيئة من أبيك.. لقد أصبحت شخص آخر يا يسرا...

حاول التماسك، وكتم نحيبه، ثم استطرد:

- لقد عانيت حتى أصبح الشقيق الذي تحتاجينه.. الشقيق الذي يطمئنك ويشعرك بالأمان والحب.. عانيت الكثير يا يسرا.. دخلت مركز طبي للعلاج، والتقيت ببشر ألعن من أبي وألعن من أحقر شرير في أحلامي، تخليت عن بشر ساندوني منٍّ أجلك ومن أجل أمي، قبلت بما لا يقبل به رجل شريف حتى أصل لك في النهاية.

أغلقت يسرا باب الشرفة من الخارج وجلست على أرضها لتحاشي النظر للشارع أو للفتيات.

- أنا أصبحت أشجع رجل يمكن أن تلتقينه في حياتك.. ودفعت من روحي الكثير من أجل ذلك.. من أجلك..

عقبت في قلق:

- لماذا تخبرني بذلك الآن يا ياسين؟ لقد أخبرت أمي أنني أريدك أن تحضر زفافي.. لماذا تخبرني بذلك اليوم وفي هذا الوقت؟

ساد الصمت للحظات، ثم أجابها بصوت لاهث:

- لا أعرف إن كنت سأستطيع حضور الزفاف أم لا.. هذا يتوقف على قدري.

- لم أفهم!

- سامحيني يا يسرا! لم أقصد يومًا أن أكون جبانًا، لم أقصد أبدًا أن أسبب لك أو لأمي أي أذى...

قاطعته:

- يا ياسين أجبني.. هل حدث شيء لك؟ أنت بخير؟ أخبرني، أنا بجانبك.

بكى وانهار في المكالمة، وكان بكاءه هيستريًا كطفل رضيع يريد أمه، وقال وصوت النشيج يأكل في قلبه:

- لقد انتظرت طويلًا حتى تخبريني أنك بجانبي.. هذه الكلمة ليست لها أي قيمة من أي شخص غيرك أنتِ وأمي.. أنا أفتقدك يا يسرا!

تأثرت من صوته؛ فبكت معه.

- أنا بجانبك يا ياسين، وسأظل بجانبك حتى الموت.. أنا قادمة لك.

قال بصوت يحتضر:

- لا، لا تأتِ أرجوكِ.. أنا من سيأتي لك الآن.. كل شيء سيكون على ما...

وقبل أن يكمل جملته تحطم باب الشرفة بضربة واحدة من قدم أحدهم بصوت مدوي كانفجار نووي وتطايرت شظاياه في الغرفة، ودخل بلال وصبري بوجوه ملثمة، وأسلحتهم مصوبة على وجه ياسين؛ فألقى الهاتف على الأرض؛ فصرخت يسرا من صدمة الصوت:

- ياسييين!!!.. أجبني.. ماذا حدث؟!!

اقتحمت الفتيات الشرفة ليجدوا يسرا على الأرض منهارة من البكاء، فصرخت فيهم:

- أخي.. أخي سيموت!!!

( ٢٤ )

طنطا، كفر نعيم.

السابع من يوليو، الواحدة والنصف صباحًا.

انتهى الحفر في قبر فاطمة، وجلس ابن خالتها على الأرض يلتقط أنفاسه ويجفف عرقه، بينما يرمق فاطمة الملقاة على الأرض في امتعاض، ثم التفت لأمها وهو يومئ برأسه إشارة لانتهاء الوقت. أنحنت الأم على ابنتها وحدقت في عينيها وهي تهمس في استياء:

- لن نعطيكِ شرف دخول القبر.. لن يُصلى عليكِ، ولن تقوم لك جنازة، ولن يُقرأ عليكِ القرآن.. ستموتين بنار الدنيا قبل أَن تلتهمك نار جهنم يا بنت حسني.

ثم سحلتها على الأرض نحو الحفرة، وقبل أن تلقيها بالداخل جعلت رقبتها على حافتها وكأنها ستذبح دجاجة وتلقي بها في الوعاء حتى الموت. ناولها السكين فنظرت في عينيها ثانية وهي تردد بنظرة احتقار:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

جزت رقبتها بغتةً؛ فانفجر شلال من الدماء في القبر، فسحلتها ثانية وألقتها في الأسفل. ناولها ابن شقيقتها عبوة جاز وأخذت تصبها على جسدها لتعذيبها قبل أن تلاقي ربها، وأشعلت عود ثقاب وألقته عليها فاشتغلت

النار فيها وفي ملابسها؛ فصرخت ولكن خرج صراخها مكتومًا ومبحوحًا مصحوبًا بسيول من الدماء تتطاير مع الحشرجة؛ فضحكت الأم وأهالت التراب على وجهها لتكتم أنفاسها! وقبل أن تتصاعد النار للأعلى ويصعد الدخان إلى السماء أهالوا عليها التراب، وشرعوا في الردم، وبعد نصف ساعة تقريبًا عادت الأرض مستوية، واختفى القبر والدخان وفاطمة، وعاد كل شيء لطبيعته، وأصبحت فاطمة رسميًا خارج حدود العالم. أما العريس المنتظر فقضى الليل في التفكير في فتاة أخرى ليتقدم لها مع وجود خيارن لا ثالث لهم؛ الموافقة أو الموت.

***

قبل ثلاثة سنوات..

في السادسة صباحًا كانت فاطمة وأبيها يتناولان الفطور سويًا في حقل الأرز في رحاب الله، وتحت سمائه، محاطين بعصافير تحلق وتسبح بحمده، وبين قطط صغيرة تلعب من حولهم في سلام. جلست فاطمة بعبائة ريفية ملونة وبشعر ناعم منسدل حتى منتصف الظهر، وجلس أبيها بجلباب أبيض معطر برائحة من العنبر والمسك. كان فطورهما الهادئ خبز وقطعة جبن «مِش»، وشرائح من البطيخ المبرد، وصحن فول، وبيض مخفوق، وكوبان من الشاي بالنعناع. ومن خلفهم شجرة توت تؤنسهم بحفيف أوراقها وحبات التوت التي تلقيها عليهم من حين لآخر.

شرعا في تناول الفطور بمفردهم في هدوء دون أي حوار أو حديث، فقط تسليم لنعيم الله وفضله، وبين حين وآخر يتأملان الطيور في السماء، بينما يتناولا فطورهم في نهم، وفي وسط الأكل يأخذان رشفات قليلة من الشاي قبل أن يعودا لاستكمال فطورهم في سلام. مرت دقائق ولا يوجد في الصورة إلا زقزقة العصافير، فنهض الشيخ حسني وهو يحمد الله على نعمته، ثم بدأ في رعاية أرضه. أنهت فاطمة فطورها وكوبها وعادت لتسند ظهرها على الشجرة، ثم أخذت تمشط شعرها؛ فابتسم لها بينما يضرب بالفأس في الأرض:

– أنا راض عنك يا فاطمة.

توقفت عن تمشيط شعرها، وقطبت جبينها مبتسمة، وقالت:

– ماذا قلت؟

أكمل بذات الابتسامة:

– مثلما سمعتِ.

– أنا لم أفعل شيء.

– ليس عليك فعل أي شيء.. هناك بشر فعلوا كل شيء لإسعاد غيرهم ولم ينالوا من الحب قطرة، أنتِ لم تفعلي شيء ولكن أخذتي من قلبي بحار الدنيا وأهلها.

قالت ضاحكة:

– ما كل هذا الحب يا أبي؟

- لأنك تشبهينني.. رحيمة بكل الناس إلا نفسك، حتى اعتدتي قسوة أهل الدنيا وشرورهم.

- ولكن الأباء لا يرضون عن أبنائهم لهذه الأسباب فقط.

- الحقيقة يا ابنتي أن هناك مشاعر مؤلمة يصعب على المرأ وصفها، مشاعر تهيل على روحك وقلبك التراب، ولا يمكن التغلب عليها إلا بمشاعر دافئة تحل في القلب السلام، مشاعر تعيدك للوطن.

- هل تشعر بالغربة يا أبي؟

أجاب مبتسماً:

- رحلة الحياة كانت هي الغربة يا فاطمة، وعندما رزقني الله بك شعرت وأنني قد عدت للوطن، بأنني قد عدت للمنزل بعد يوم شاق وطويل.

أبتسمت وقالت:

- ما زلت لا أفهم.. أنا لم أفعل شيء يجعلك تفتخر بي حتى تحبني كل هذا الحب!

أشار على قطة صغيرة غفوت بجانب فاطمة، وسألها:

- لماذا تحبين القطط؟

- لا أعرف.. أنا فقط أحبهم وأحب الاعتناء بهم.

- وفي بعض الأحيان تتحدثين معهم وتطلبين رأيهم.

ضحكت وقالت:

- هل رأيتني؟

مبتسماً:

- تلك هي الخلاصة يا أستاذة.. الحب دون أن نعرف السبب، حتى وإن كان من أمامنا لا يفهمنا ولا يدرك ما نشعر به، أنتِ ابنتي وقطتي، وأنا أعلم الناس بقدر الحنان بقلبك؛ ولذلك أنا أثق بك وراض عنك.. ومهما فعلتي من أخطاء وانحرفتي عن مسارك أعلم أنكِ ستعودين دومًا لفطرتك.. فطرتك سوية والبذرة التي بداخلك بذرة خير لا يمكن أن تفسدها الدنيا أو الناس.

اغرورقت عيناها بالدموع، فاستطرد حديثه:

- كل الألم الذي شعرت به في حياتي تلاشى عندما جئتِ للدنيا يا فاطمة.. أنت جنتي في الأرض يا ابنتي، وأحمد الله عليكِ، وأدعو الله أن لا يريني فيكِ شرًا أو مكروه.

لم تستطع حبس البكاء؛ فنهضت وذهبت لأبيها وعانقته، وهي تردد بصوت معبأ بالنشيج:

- أعدك أنني سأرفع رأسك في السماء يا أبي، أعدك أنني لن أفعل معك مثلما تفعل أمي.. أنت لا تستحق ذلك.

فضحك وهو يربت على رأسها:

- اخفضي صوتك.. ستأتي وتجعلنا نبكي سويًا.

ضحكت ومسحت دموعها بأصابعها، وقالت:

- إذا أخفضت رأسك سيكون بسببها.. أنت تعرفها.. لا ترحم وتكره من يرحم.

أمسك فمه من الضحك:

- اذهبي يا فاطمة.. كفانا من هذه السيرة.

حررت نفسها من العناق وعادت للجلوس بجانب الشجرة مرة أخرى، وعاد لحمل الفأس مرة أخرى، وقبل أن يضربه في الأرض من جديد قال:

- أنا لا أعلم ما يخبئه لكِ القدر، ولا أعلم ما التركة التي سنتركها لك في الدنيا قبل رحيلنا أنا وأمك، ولكن مهما حدث ومهما وقع عليكِ من ظلم.. لا تيأسي من رحمة الله ولا تغضبيه.. أغضبي علينا وسنغضب عليكِ.. ولكن لا تغضبي ربك.. حسنًا؟

- حسنًا يا أبي.

ثم حملت القطة كطفل رضيع وقبلتها من رأسها، وأخذت تطعمها من حباب التوت.

## ( ٢٥ )

جلس بلاك في مقابل ياسين وصوب سلاحه على رأسه مهددًا:

- إذا تحركت خطوة واحدة سأفرغ الرصاص في رأسك.

لم يتحرك ولكن رعشة جسده فضحت خوفه، لم يستطع تخمين الدقائق المتبقية في حياته ولكن أدرك أن الموت سيأتيه فجأة بلا مقدمات، وكل ما كان يطمئنه أنه سيموت في سبيل أن تعيش يسرا في سلام، ولكن فكرة أن يتلقى رصاصة في الرأس كانت تغتصب مخيلته وأفكاره. يتخيلها بينما تخترق جبهته، صوتها، ما سيشعر به إن شعر بشيء و الدماء الذي سيغرق الأرض كأضحية في العيد الكبير، كيف ستستقبل أمه وشقيقته خبر موته؟ الأحلام التي تحطمت واندثرت، وأن الرحلة ستنتهي في خلال ثوان أو دقائق أو ربما ساعات، وكل ما حلم به سيذهب معه إلى القبر.

- لماذا هربت وأنت تعلم أننا سنقتل شقيقتك إن هربت؟

لم يجرؤ على الإجابة، وظل سابحًا في مخيلته.

- أنا اخترت أن أنهي حياتك حتى وإن نخست بالعهد، هل تعرف لماذا؟

رفع ياسين رأسه ونظر في عين بلاك الذي أكمل حديثه:

- هل تقتل شاب لا يعرف أحد بوجوده أم تقتل فتاة في ليلة زفافها؟ برأيك من سيشغل الرأي العام أكثر؟ (ساخرًا) قتلوها ليلة زفافها.. عروس

الجنة، أعداء المرأة، إلى متى سنظل نشعر بالقهر في بلدنا.. ماسورة هراء لن تنتهي.. أما إذا قتلتك أنت في الغالب سيتحدثون عنك يومين أو ثلاث مثلما يحدث للموتى في الكمائن.. (أشار لصبري بإفراغ عبوة البنزين بحوزته) لا أعلم كيف حشرة مثلك استطاعت قتل العقرب! هل كان مخمورًا أم ماذا؟.. لا أفهم!.. على العموم أنت اخترت لنفسك الموت البطيء بعدما هربت وأضعت من وقتنا ساعة من أجل اللحاق بك.

أفرغ صبري عبوة البنزين على الأثاث من أجهزة ومقاعد وسجاد وستائر، ثم اقترب من ياسين وأفرغ بعض من البنزين على أذنه الدامية وملابسه فتلوى من الألم.

***

مارس ٢٠١١.

وقف ياسين أمام الشقة الجديدة حاملًا حقائبه في كلتا يديه، وبجانبه جاره الخمسيني الذي أدار المفتاح في كالون الشقة وفتحها، ثم أعطى المفتاح لياسين قائلًا في حب:

- إذا احتجت أي شيء فقط أخبرني يا أستاذ ياسين.. أنت من طرف الغاليين.

دخل ياسين للشقة التي ملأتها رائحة الغبار ولم تكن هيئتها في أفضل حال، ولكن رغم ذلك لم ينشغل بحالتها وألقى حقائبه على الأريكة، وفتح النافذة ليتسلل ضوء الشمس للداخل، ثم جلس ليلتقط أنفاسه دون أن

يغلق باب الشقة، تأمل الأثاث البسيط، ثم التقط هاتفه وطلب رقم فاطمة، وعندما أجابته بادر بحماس:

- لن تصدقي.. انتقلت للشقة الجديدة، الحياة ستكون غريبة بدون أمي وشقيقتي، ولكن سأعتاد علي ذلك! لا.. لا أحتاج شيء الآن ولكن ربما سأحتاج مساعدتك (ضاحكًا) عندما أستخدم أنبوب الغاز للمرة الأولى والطبخ وسخان الكهرباء.. حسنًا سأذهب لأستريح قليلًا ثم سأقرر بعد ذلك ماذا سأفعل في حياتي كشاب متخاذل جبان.. اعتني بنفسك أنتِ أيضًا.

نهض من الأريكة، ودخل لغرفة صغيرة وأخذ يتأملها قليلًا قبل أن يخلع كامل ملابسه ويلقي بنفسه عاريًا على الفراش.

***

صفعه بلاك على وجهه:

- هيه.. أنت معي؟

قال صبري ساخرًا

- ربما ذهب للتحدث مع عفاريته.

انتفض ياسين وقفز في الهواء، وضرب صبري بكعب المسدس على رأسه، وقبل أن يضربه بلاك بالرصاص خطف ياسين المسدس من صبري وأطلق رصاصة في صدر بلاك، ولكنها لم تفعل أي شيء! فقط أعادته خطوتين للوراء دون أن تسقط قطرة دم واحدة! قبض بيده النحيفة حول رقبة صبري فرفعه الآخر وأسقطه أرضًا وركله ركلات متتابعة في كليته. اعتدل بلاك في وقفته وعاد توازنه وصوب على ياسين المتألم على الأرض، أطلق الرصاص

على بطنه فاشتعلت أثر الجاز ونشب حريق بجانبه على الفور ممتدًا في كامل أنحاء الشقة. انسحب بلاك وفتح باب الشقة منفعلًا على صبري «هيااااا!!»..
حاول ياسين النهوض بجسده المحترق، وخلع قميصه، وقبض به على رقبة صبري وأسقطه معه في النار، فأطلق بلاك خمس رصاصات عشوائية في صدر ياسين، وفي رقبته، وفي عينه اليمنى، وفي فمه، وفي كتفه الأيسر؛ فسقط جثة هامدة بين النيران معلنًا نهاية رحلته القصيرة في الحياة، قبل أن ينتقم لنفسه، وقبل أن يعيد كرامته، وقبل أن يعود لربه، انتهت رحلته سريعًا وعاد لخالقه من أبواب الموت الخلفية..! كانت هناك دفاتر من الأحلام في كافة أنحاء عقله تنتظر الإفراج، تنتظر الحرية، ولكن بعض الناس قدرهم في الحياة أن يكونوا مجرد كومبارس، مجرد طريق يعبر عليه الآخرون، مهمشون مهما صرخوا، وهالكون مهما تألموا. أخذ بضاعته من الحب معه للقبر دون أن يعثر لها على مريد، وعاش حياته كاللص؛ يسرق اليأس من أفواه الآخرين ويحصل هو على كل لعنات الدنيا.

صرخ صبري بينما النيران تلتهمه، وقبل أن تأكل وجهه صرخ في بلاك «اقتلني.. أقتلني!!»، فانسحب بلاك للوراء وهو يتأمل صديقه المحترق، وأطلق عليه رصاصة الرحمة، وركض خارج الشقة بعدما انتهت مهمته وأنهى حياة شخص لم يبحث في الدنيا إلا عن الحب.

***

خرجت يسرا تركض في الشارع كالمجنونة، ومن خلفها صديقاتها يحاولن اللحاق بها، فجذبتها صديقة لها من الخلف منفعلة «تعالي معي، سنذهب في سيارتي، كل شيء سيكون بخير، لا تقلقي» أخذتها في سيارتها وخرجت

السيارة بسرعة ثور هائج على الكورنيش للحاق بياسين حتى دخلت منطقة السيدة زينب لتعجز السيارة عن إكمال الطريق بين زحام من الناس يحتلون الطريق، وعلى بعد ثلاثة منازل تقريبًا حريق هائل يحتل شقة في الطابق الثالث، شقة ياسين.

- أخي.. أريد رؤية أخي!!

أخذت تركض وتصرخ دون أن تنقطع عن الرجاء، فمنعها الناس عن الاقتراب من المنزل، فجذبتها صديقتها وعانقتها بقوة، وأغمضت عينيها حتى لا ترى النيران. وصلت سيارة الإسعاف أولًا ومن بعدها ثلاثة سيارات مطافئ والشرطة، وظلت قوات المطافئ تحاول إخماد الحريق، وفي أسماع الجميع قرآن الفجر. أجلسوها على الرصيف عنوة، وجلست صديقتها بجانبها تحاول تهدئتها دون أن تقول شيء، فقالت يسرا بصوت مهزوم بينما لم تتوقف عيناها عن البكاء:

- لماذا ذهبت الآن يا ياسين؟.. كنت أريدك أن تحضر زفافي! لماذا تركتني بمفردي ثانيةً.. لماذا؟

ربتت صديقتها على ظهرها محاولةً تهدئتها. رن الهاتف عند صديقتها وجاءها الصوت من الطرف الآخر:

- طنط في المستشفى.. سقطت مغشيًا عليها من الصدمة.. لا تخبري يسرا بأي شيء، نحن سنعتني بها.

تنهدت صديقتها حزنًا، وأغلقت المكالمة، وعادت لتربت على ظهر يسرا وتقبل رأسها، وظلت المطافئ مستمرة في عملها محاولة إطفاء الحريق، حتى

صرخ رجل من الأعلى قبل أذان الفجر مباشرة:

- انتظروا.. انتظروا.. لقد وجدت أحدهم.

***

قبل خمسة أعوام.

كانت الخامسة مساءً عندما جلس ياسين بصحبة فاطمة على مقهي الونش، تجرع القليل من كوب الشاي خاصته بينما يداعب نسيم الهواء خصلات شعره. قالت فاطمة مبتسمة:

- رائحتك جميلة اليوم.. أم أنني افتقدتك كثيرًا؟

ابتسم وقال:

- أنتِ أيضًا.. جميلة بشكل يجعلني أخشى أن أفقد هذا الجمال، أن أستيقظ في يومٍ ما وأجده قد أضعته.

قالت ضاحكة:

- من هذا الذي يستطيع أن يترك شخص حنون مثلك يا ياسين؟

تنهد بينما يتأمل حركة السيارات والناس وحفيف أوراق الشجر مع النسيم الرقيق، ثم عاد لها وقال:

- ربما هذا المشهد هو من سيتركنا في يومٍ ما.

- الإنسان يخشى دومًا ما يجهله.. إذا تفكرت قليلًا ستجد أن ما تجهله

ليس مقلق لهذه الدرجة.. أنا وأنت ننتمي لأدنى درجات البشر، برأيك ماذا سيحدث لنا أسوء من ذلك؟

أجابها بنصف ضحكة:

- أن نموت من القهر.

- نحن نعيش في القهر ذاته يا حبيبي، لا توجد مفاجآت إن متنا على ما نحن عليه.

- أنا لا أريد ذلك يا فاطمة، أريد أن أرى أمي ويسرا مرة أخرى في يوم ما.. وأن أحبك.. أنا أخشى أن أحبك!.. وأخشى أن أتزوج فأرزق بأطفالٍ جبناء يشبهونني ويشبهون أبي فتصدمين بمصير أمي.. هذا النسل كالوباء لا يدخل منزل إلا ويسقطه على من فيه.

- أنت تقسو على نفسك كثيرًا يا ياسين!

نهض وترك الحساب على الطاولة، وأشار لها بالنهوض قبل أن يحيي عم رضا:

- تعالي نتمشي قليلًا في وسط البلد.. على الأقل نشاهد جمال القاهرة ونحن نبكي على ما فينا.

ضاحكةً:

- يومًا ما.. سنحصل على ما نريد.. لا أعلم كيف أو متى.. ولكنني مؤمنةً أننا سنعيش ما حلمنا به في يوم ما، وسنتوقف عن البكاء والشكوى والأرق.. سيتركنا الظلام لسبيلنا يا يّاسين.. لن تتركنا الدنيا ولن نتركها،

وستصبح لدينا عائلة صغيرة نقص عليهم كيف التقينا وكيف انتصرنا.

شبك يديه بيديها وهو ينظر في عينيها مبتسماً:

- كل الأماني ممكنة طالما سويًا.

***

في اللحظات الأولي من الصباح كانت سيارات الإطفاء قد غادرت المنطقة تاركة بركة من الماء بطول الشارع وظلت يسرا وصديقتها تجلسان امام المنزل في انتظار خروج جثمان ياسين بينما اخذ الجيران ينسحبون لمنازلهم رويدا رويدا بعد ما خمدت النيران وبدأت رغبتهم في النوم تهزم فضولهم في رؤية جثث محترقة.

خرج ياسين أخيرًا من المنزل محمولًا على نقالة يحملها جنديان يغطيان أنفهما بكمامة طبية، مغطى جثمانه بغطاء أبيض لم يكن كافيًا لكتم رائحة اللحم المشوي بالداخل؛ فانتشرت الرائحة في الأجواء؛ فانهارت يسرا من البكاء مرة أخرى وهي تصرخ في شروق شمس القاهرة «ياسين!!.. ياسيين!!!!!»، جذبتها صديقتها وأبعدتها عن موقع الحادث. وضعوا النقالة على الأرض، ثم حملوا جثمان صبري المحترق على النقالة الأخرى ووضعوها بجانب ياسين، ثم أدخلوهم لعربات الإسعاف ورحلوا عن المنطقة.

عند السابعة صباحًا كان قد فرغ الشارع من سيارات الإطفاء والشرطة والإسعاف والمشاهدين، وعادت الحياة لطبيعتها من جديد معلنةً بداية يوم السبت السابع من يوليو بدون ياسين، بدون فاطمة.

# (الأخير)

السابع من يوليو ٢٠١٨ .

في الثامنة مساءً ظهرت إعلامية مصر الأولى كريمة إبراهيم في برنامجها «في حضرة الكريمة» بملابس سوداء، وبوجه يغلب عليه الحزن. دون أن تحيي الجمهور أو المشاهدين، ودون أن تقرأ من أوراقها نظرت للكاميرا، وقالت بصوت غاضب ومتألم:

– في الساعات الماضية شهدت مصر حادثة مؤلمة تشيب لها الرؤوس.. لا تقل عن حوادث الإرهاب بشاعة.. حادثة تجرد فيها البشر من كل معاني الإنسانية؛ عندما قُتلت عائلة بأكملها بثلاث رصاصات في الرأس وبدون وجه حق.. الأب والأم وطفلة صغيرة لم يتعدَ عمرها السبعة أعوام.. طفلة صغيرة تنتهي حياتها وبهذا الشكل.. برصاصة في الرأس! ومن أجل ماذا؟ ماذا حدث لنا ومن أين أتينا بكل هذه القسوة والوحشية؟ لا أملك إلا أن أقول حسبي الله ونعم الوكيل في من فعل ذلك.. وطن كامل في حالة حداد بسببك! (تنهدت ثم أومأت برأسها تعبيرًا عن عدم الرضا، ثم عادت واستطردت مقدمتها) حسب شهادة الجيران بالمنطقة أنهم سمعوا الكثير من الطلقات بعد منتصف الليل.. حاولوا إبلاغ الشرطة ولكن وللأسف كانت شبكات الاتصالات سيئة لأنها منطقة سكنية جديدة.. لماذا؟.. لماذا كل هذا الاستهتار بحياة المصريين؟ جريمة حدثت بدم بارد وفر المجرمين في لحظات دون عقاب، ومن يعلم.. ربما نسمع ثانية عن مذبحة جديدة دون أن نصل

للجناة!.. معي على الهاتف أحد الشهود الذ...

أطفأ د. أحمد التلفاز بمكتبه وأخرج زفيرًا غاضبًا، ثم أسند رأسه بين راحه يديه. بعد دقائق من السكون تصفح حاسبه المحمول وضغط على ملف باسم «ياسين» كانت مجموعة من المستندات وفيديو واحد، ضغط على الفيديو ورفع الصوت عن آخره.

كان ياسين يقف في غرفة تشبه غرفة التسجيل وفي يده ورقة صغيرة، بلع ريقه واقترب من الميكروفون، ونظر للكاميرا وبدأ في التسجيل.

- مرحبًا.. أنا أدعى ياسين.. خمسة وعشرون عام.. أسجل هذا الفيديو لأنني مصاب بالجبن وسأخضع لعملية من المحتمل أن تفقدني بعض الذكريات، وهذا التسجيل للحفاظ على بعض الذكريات المهمة التي لا أريد أن أنساها.

نظر في الورقة وابتلع ريقه ثانيةً:

- أنا هنا لأنني أشبه أبي.. أبي رجل جبان وانفصل عن أمي عندما كنت صغيرًا أنا وشقيقتي الصغرى يسرا.. فعلت مع أمي ويسرا نفس ما فعله أبي معهم، ولا أريد أن أذكر ما حدث لأنني لا أريد تذكر ما فعلته.. ولكن بسبب ما فعلته طردتني أمي من المنزل، أريد أن أتذكر أيضًا أبلة حنان التي كانت بجانبي طيلة فترة دراستي بالمدرسة، وكانت لي أم وشقيقة وحبيبة، وكل شيء كان يشعرني بالطمئنينة، ولكنها في النهاية تزوجت ورحلت ولم أرها مرة أخرى، ولا أعرف كيف حالها الآن.. أريد أن أتذكر أنني أحب مقهى في وسط البلد تدعى مقهي الونش، وأنني أحب أن أشرب الشاي أربعة معالق سكر من يد عم رضا وهو رجل عجوز أحبه كثيرًا.. أريد

أن أتذكر أنني معجب بفتاة معي في المركز تدعى رقية، وأخطط أن أتجرأ وأتقرب لها أكثر وأكثر عندما أصبح شجاعًا.. أريد أن أتذكر أنني رأيت أبي كثيرًا في كوابيسي، وأنني لا أستطيع النوم بسبب هذه الأحلام، ولا أدري متى سأنتصر عليه في منامي وفي الحقيقة..!

***

عاد فتحي لزوجته وأولاده رجل آخر دون أن يفقد أي شيء من ذكرياته، لم تكن مأساته عميقة للدرجة التي تفقده عقله. استقبلوه بالعناق ثم جلسوا يتناولون الطعام على طاولة واحدة يتبادلون الحديث والضحكات، لتنتهي قصة فتحي دون صراعات تذكر. دخل المركز بخيل وخرج رجل كريم، دون حروب باردة في المنتصف، ودون صراعات دموية، عاد للبيت ثانيةً وانتهت قصته بالنهاية السعيدة التي حلمت بها عائلته، أما هو فنهايته السعيدة كانت في بيوت أخرى.

***

- أريد أن أتذكر أنني اكره عملي، ولا أمتلك أي مهارة، وأنني أجبن من البحث عن وظيفة جديدة.. أريد أن أتذكر أنني أكره شخص يدعى حسان، ولن أستطيع ذكر السبب، ولكن كل ما أريده فرصة واحدة؛ فرصة واحدة فقط حتى أمحو وجهه من على وجه الأرض.. أريد أن أتذكر أنني أفضل الوحدة على الناس، وأنني إذا أصبحت شجاعًا سأظل من أهل الوحدة، وأنه لا أمان في معاشرة الناس.

***

عادت سارة لعائلتها بعدما تخلصت من شعورها بالذنب تجاه زميلتها التي انتحرت بسببها، تعجبوا قليلًا من شخصيتها الجديدة؛ التي أصبحت تحب الكلام وفتح الحديث والسؤال والاهتمام، بل وفعل الخير. بدأت فصل جديد من حياتها معهم دون أن تعود للخلف خطوة واحدة، والتقت بالحب الحقيقي لأول مرة، ولكنها لم تتذكر أبدًا أنها كانت السبب الأول في تدمير حياة فتاة أخرى اسمها رقية.

***

أغلق د. أحمد الفيديو، وتناول الثلاثة مظاريف من جانبه، وبدأ في قراءة الأسماء المدونة عليها من الخارج. في أول مظروف وجد اسم «رضا» قطب جبينه متعجبًا عندما علم أن العنوان على مقهى بمنطقة وسط البلد كما ذكر ياسين في الفيديو، فنهض واستقل سيارته عازمًا الذهاب للرجل وتسليمه رسالته.

***

على غير المتوقع ذهب كريم شوقي لأهل الفتاة التي اغتصبها ليقدم اعتذاره عن ما فعل، وعرض عليهم تسليم نفسه للشرطة للتكفير عن خطيئته. لم يجد في رد فعلهم أي لوم أو انزعاج من ما فعل، بل رموا اللوم على ابنتهم وعلى ملابسها وعلى هيئتها وأنها تستحق ما حدث لها. باءت محاولته بالفشل، وانصرف منزعجًا، ولكن ما أثلج صدره أنه تلقى مكالمة من الفتاة في اليوم التالي لم تخبره فيها إلا بكلمة واحدة «سامحتك». وعدها بأنه سيقف بجانبها ويساعدها في أي شيء تحتاجه، ولكنها رفضت وأخبرته ثانيةً أنها سامحته وأنها لا تريد أن تراه مرة أخرى.

***

جلس د. أحمد على إحدى مقاعد المقهى، وأخذ يراقب عم رضا ولغة جسده وطريقته في التحدث مع الزبائن، فناداه؛ فجاءه الرجل على الفور بوجهه البشوش، فابتسم له د. أحمد مبادرًا:

- جئت لك برسالة من شخص يحبك.

حك رأسه وقال:

- لا أحد يحبني إلا أهل الكيف.

عقب مبتسمًا:

- كان هناك شاب يدعى ياسين يتردد على مقهاك كثيرًا.. لقد سافر للخارج وأرادك أن تأخذ هذه الرسالة.

ناوله الرسالة، فنظر لها عم رضا في ارتياب وهو يفض ثناياها، وأخذ يتمتم بصوت مسموع:

- طيلة سبع سنوات رأيتك جدي الذي لم أحصل عليه في حياتي، وبفضل وجودك تخطيت أمور كثيرة سيئة في حياتي.. جلسة صغيرة في مقهاك كانت بالعالم وما فيه.. بفضلك لم أشعر أنني بمفردي في هذا العالم، أنت الوحيد الذي كان يعاملني جيدًا.. سأفتقدك كثيرًا يا عم رضا.. شكرًا لك على بصمتك الجميلة في حياتي، وإلى لقاءٍ في جنة الخلد إن شاء الله.

طوى الرسالة وجلس على المقعد، وبدأ يمسح الدموع المتساقطة من عينيه؛ فنهض د. أحمد وأخذ يربت على ظهره ويقبل رأسه، فقال الرجل

بصوتٍ باكٍ:

- يا ليت ابني يحبني مثلما أحبني هذا الفتى!

صمت قليلًا وكأنه يتذكر أمر يزعجه، ثم قال بنبرة متألمة:

- أرجوك.. أرسل له سلامي وأخبره أن المقهى مفتوح له دائمًا.

قبل رأسه ثانية كاتمًا حزنه بداخله:

- سأفعل ذلك يا عم رضا.

ثم رحل عن المقهى عائدًا لمنزله، وعازمًا تسليم بقية الرسائل في اليوم التالي؛ حتى يفي بالعهد الذي قطعه لياسين.

***

توشحت يسرا بالسواد، واستقبلت بمفردها المعزين الذين أتوا من كل مكان لتقديم الواجب، وظلت أمها غارقة في غيبوبتها بالمستشفى حزنًا على ابنها. لم يأتِ الكثير من الناس وحتى أصدقاء ياسين في المركز والجامعة والمدرسة لم يعرفوا بالأمر، ومن عرف بالأمر استغرق وقت حتى تذكر من ياسين هذا الذي مات محترقًا، حتى أبيه لم يأتي للعزاء وفضل الاستمتاع بهواء الصيف على البحر مع زوجته وأبنائه. لم يحضروا شيخ للتلاوة في العزاء واكتفوا بشرائط مسجلة لمجموعة مختلفة من القراء المصريين، وظلت يسرا تقوم بما عليها أن تفعله في نفس الوقت الذي كان من المفترض أن يكون شهر عسلها.

كانت الأسرار تحيط بالعزاء من كل اتجاه، لا أحد يعرف الميت، ولا أهله،

ولا من كان بصحبته وقت الحريق، ولا حقيقة ما حدث، ولكن جاؤوا للفوز ببعض الثواب على أي حال. ومرت الأيام واحد تلو الآخر حتى فاقت الأم من غيبوبتها، وعادت للمنزل وظلت حبيسة غرفتها لا تخرج ولا تلتقي أي شخص، جالسة على فراشها وصورة ابنها بجانبها، تقرأ القرآن بوجه تمكنت منه خطوط العمر وأفعال الحزن، تؤدي صلواتها، وتأخذ علاجها، ثم تغط في النوم، ثم تعود لفعل نفس الأشياء في كل يوم جديد.

***

«زينب إبراهيم عزام» كان هذا هو الاسم المدون على المظروف الثاني، تناوله د. أحمد وذهب للعنوان المسجل بالمركز. كانت عمارة حديثة الإنشاء بإحدى المناطق الجديدة بالقاهرة. فتحت الباب زوجة إبراهيم، كانت في نهايات الثلاثينيات بملامح مصرية خمرية بسيطة. بادر د. أحمد بابتسامة دبلوماسية:

- مساء الخير، أعتذر عن القدوم بدون موعد، أنا د. أحمد مكرم الطبيب المعالج لزوجك أ. إبراهيم.

تبدلت قسمات وجهها وغالبها القلق، فسألته:

- هل حدث مكروه لإبراهيم؟ هل هو بخير؟

نظر في الأرض، ثم رفعها ثانيةً وقال:

- في الحقيقة.. أ. إبراهيم بخير وسيأتي قريبًا، ولكنه ترك رسالة لابنته.

- زينب؟

- نعم.. هل أستطيع رؤيتها لتسليمها الرسالة؟

أشارت له بالدخول. دخل الشقة وجلس على مقعد انتريه يتصدر الصالون، ثم خرجت زينب للقائه بعد دقائق. كان وجهها شاحب بعض الشيء، وشعرها قصير أثر العلاج الكيميائي، جلست أمامه فنظر في عينيها وقال لها مبتسماً:

- أهلًا زينب كيف حالك؟ لدي رسالة من بابا.

سألته بصوت رقيق وخافت:

- هل تعرف أبي؟

ربتت الأم على ظهرها وقالت:

- إنه صديق لبابا يا حبيبتي.

أظهر لها الرسالة، وأعطاها لها مبتسماً في حب:

- بابا أراد أن أسلمك هذه الرسالة.

تناولتها ورمقتها في ارتياب، ثم التفتت لأمها في عدم فهم، وعادت للورقة وفتحتها وبدأت تقرأ في صمت:

«حبيبتي زينب، كيف حالك؟ أردت أن أخبرك أنني أصبحت بخير، وأنني أصبحت شخص آخر لا يؤذي أحد، بل وكونت أصدقاء جدد يحبونني مثلما أحبهم، ودائماً أحدثهم عنك وأخبرهم أنك السبب الأول والأخير في شفائي. لم أعد هذا الرجل العنيف السيىء، وستتفاجئين بي عندما نلتقي مرة أخرى.. أنا الآن ذهبت في رحلة عمل قصيرة بعدما خرجت من المركز،

وبالتأكيد سنلتقي قريبًا.. أنا أحبك يا زينب، وعندما أعود سنخرج كثيرًا، ونذهب لكل بلاد العالم.. سأفتقدك حتى نلتقي مرة أخرى».

ابتسمت الفتاة وطوت الرسالة ووضعتها على قلبها، وعادت لغرفتها مسرعة، ثم أخبرت د. أحمد أن ينتظر قليلًا. التفتت الزوجة وقالت لد. أحمد وهي تومئ بعدم الفهم قائلة:

- إبراهيم كان يكره الكتابة، وحمل المسدس في يده أكثر من القلم.. من أين أتى بكل هذه المشاعر؟

ابتسم د. أحمد محاولًا إخفاء ارتباكه:

- لقد تغير كثيرًا.. لقد أصبح شخص آخر.

- لماذا لم يهاتفها بدلًا من كل هذه الدراما؟

ضغط على أسنانه، وأجابها بضحكة دبلوماسية:

- ربما أراد أنه يخبرها بطريقة أكثر شاعرية.

عادت الفتاة وفي يدها ورقة ملونة، بها رسالة قصيرة ورسمة لزهرة ملونة وقلوب تغطي أنحاء الورقة. أعطته الرسالة، وهي تقول في شغف:

- عندما تلتقي بأبي أعطيه رسالتي وأخبره أنني أحبه كثيرًا.

أومأ لها مبتسمًا، ثم نهض على عجالة وصافح زوجة إبراهيم، ثم صافح زينب في حب ورحل، وما إن غادر الشقة حتى جلس على أدراج العمارة محاولًا أن يلتقط أنفاسه ويستعيد توازنه مرة أخرى. نظر في رسالة ابنته ولم يتحمل قراءتها؛ فوضعها في حقيبته ومضى في طريقه لتسليم المظروف

الثالث.

***

علي فراش المرض استلقت رقية دون حراك، واليوم هو الأمس والساعات كسابقتها ولا جديد يذكر، جلس أبيها بجانبها ورأسه منتكس ونظرات الكسرة تكسو عينيه دون أن ينطق بكلمة واحدة. بدا أن الصدمة انسحبت من روح رقية واحتلته، ولم يملك من كلمات الدعم ما يمكن قوله. ربتت رقية على ظهر أبيها تحاول رفع معنوياته بعدما بدأت في تقبل فكرة الكلام من أجل أبيها:

- لا تقلق يا أبي.. أنا بخير.

رفع رأسه والتفت لها، وقال في حزن :

- لقد أدخلتك هذا المركز حتى تشفي من ذكري أمك وعدتي لي بهذا الشكل.. أنا من فعلت هذا بك!

- لا تقل هذا يا أبي.. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.. وأنا راضيةً بقضاء الله وقدره.

لوح بسبابته في الهواء بغضب وعين دامعة:

- والله لن يهدأ لي بال حتى أنتقم لك من هؤلاء الكلاب.

انفتح باب الغرفة فجأة فالتفت الاثنان نحو باب الغرفة، ليجدا كريمة إبراهيم أمامهم وفي يدها باقة كبيرة من الورود، ومن خلفها دكتور إسماعيل بوجه بشوش باسم. اقتربت كريمة إبراهيم من رقية وقبلتها في رأسها، ثم

وضعت الباقة بين يديها وبادرت مبتسمة:

- حمدًا لله على سلامتك يا رقية.

قطبت جبينها ونظرت لأبيها في استفهام؛ فأومأ بعدم الفهم؛ فكسر د. إسماعيل الثلج:

- مدام كريمة عندما علمت بما حدث لرقية أصرت أن تلغي اجتماعاتها وتأتي لزيارتها بنفسها.

جلست كريمة على السرير بجانب رقية، وأكملت على كلامه وهي تضغط بها على معصم رقية:

- بالتأكيد، ما حدث لرقية لا يقبله شرع أو دين.

قالت رقية مرتبكة وهي تنظر لها، ثم تنظر لأبيها بذات الاستفهام:

- ماذا يحدث؟ أنا لا أفهم.

أجابها د. إسماعيل بينما يقف بجانب نافذة الغرف:

- مدام كريمة بجانب كونها إعلامية شهيرة، فهي شريكة معي في المركز وأحبت أن تكون بجانبك في هذه المحنة.

مسحت على شعرها وقالت بلهجة حانية:

- لقد سمعت أ. نبيل وهو يقول أنه سينتقم لك.. أريد أن أؤكد لك أنني سأتولى هذا الأمر بنفسي بدون أن يعرف الناس بالأمر؛ أنتم تعرفون الناس في مصرٍ يعشقون النميمة (ضاحكةً) ولا أحد في هذا البلد يقف في صف الفتاة المُغتصبة.

عقب د. إسماعيل :

- بالإضافة لما سنفعله مع المجرمين، نحن نعتذر لك عن ما حدث لك في مركزنا وأننا فشلنا في حمايتك، ونشعر بالأسف والخجل بسبب تقصيرنا معك؛ لذلك نرجو أن تقبلي هديتنا الصغيرة لك، شيك بخمسة ملايين جنيه، وهذا بالطبع لن يلغي حقيقة الضرر النفسي والجسدي الواقع عليك، وأعدك أننا سنظل بجانبك حتى تعودي بعافيتك.

نهض والد رقية، واستدار نحو د. إسماعيل، وقال ممتعضًا:

- هل شرف ابنتي يقدر بالمال في نظرك؟ هل تساومني حتى لا أفضح مركزكم في الإعلام؟ تريدون شراء صمتنا بالمال؟

نهضت كريمة وقاطعته:

- أستاذ نبيل.. لقد قتلنا المتهمين باغتصاب ابنتك بالفعل، ويمكنك أن تأتي معي لنفتح لك القبر وترى جثثهم إن أردت.. نحن نختار القتل دومًا لإنهاء المشاكل الكبيرة والصغيرة، وأظن أن خمسة ملايين جنيه كافية لعدم إضاعة ما تبقى من عمرك في المقابر، خاصة أن ابنتك تحتاجك بجانبها.

ابتلع ريقه، ونظر في عين ابنته؛ فقالت رقية بصوت خافت مريض:

- لا داعي للانتقام يا أبي.. ابق بجانبي.

ابتسمت مدام كريمة لرقية، ثم التفتت لأبيها:

- عين العقل يا أستاذ نبيل.. استمع لابنتك.. (التفتت ثانيةً لرقية) وأنتِ يا رقية.. يمكنك أن تنعمي بالنوم في سلام اليوم؛ لقد اقتصصنا لك، وأما

عن أمر عذريتك فعملية ترقيع صغيرة ستعيد كل شيء لمكانه الطبيعي.. هل رأيتي؟ كل مشكلة ولها حل.

اتجهت نحو الباب، فتبعها د. إسماعيل، وقبل أن تغادر استوقفتها رقية:

- كان هناك مريض يدعى ياسين.. هل أصبح شجاع مثلما أراد؟

استدارت كريمة، وأجابت بضحكة قصيرة:

- ياسين؟ تخطي صدمة وفاة والدتك وحادثة اغتصابك وسأخبرك بالطبع!

سألت في قلق:

- لماذا تقولين ذلك؟ ماذا حدث له؟

التفتت كريمة لـ د. إسماعيل وقالت ضاحكةً:

- الفضول قاتل يا د. إسماعيل.

ثم غادروا الغرفة وانغلق الباب، ليسدل الستار ويترك الأسئلة في أذهان أصحابها، فعاد أباها وسألها في إحباط:

- ماذا سنفعل؟

- لا شيء.. سنشاهد خيبتنا في صمت.

***

توقفت سيارة د. أحمد أمام منزل ياسين حاملًا المظروف الثالث، والذي كان مدون عليه اسم يسرا. التقاها وقدم لها واجب العزاء، وأخبرها أنه

طبيب شقيقها، ثم أعطاها ملابسه التي تركها بالمركز وصورته مع أبلة حنان والرسالة، وفضل عدم الانتظار والرحيل على الفور. بدورها لم تعرض عليه الانتظار حتى تنتهي من قراءتها، وفضلت هي أيضًا أن تقرأ الرسالة بمفردها، كل ما أراد أن يعرفه قبل الرحيل أن تصف له الطريق لمقابر العائلة؛ لزيارة ياسين والجلوس معه قليلًا، كان يعرف أنه لن يتحمل وحدة القبر مثلما لم يتحمل وحدة الدنيا.

***

تجول د. أحمد بداخل المقابر والأبواب والعيون، وشواهد القبور يمينًا ويسارًا حتى وصل لقبر ياسين. لم يتحمل النظر لشاهد القبر المدون عليه الاسم وتاريخ الوفاة، فقط وضع بعض النباتات تحت عين القبر وجلس على الأرض قبالتها. لم ينطق بكلمة واحدة فنطقت الرياح بصفيرها الذي حرك أوراق الأشجار من حوله، وطيور تحلق هنا وهناك، وسماء ينذثر نورها شيء فشيء. كان على أمل أن يسمع صوت ياسين ثانية، أو أن يفتح عين القبر ويخرج منها ويذهبان لإمضاء بعض الوقت على الكورنيش. أن يرى ياسين مرة أخرى سعيدًا بين عائلته، ولكنه في النهاية سبقهم إلى القبر وأسدل الستار على قصته قبل أن تبدأ.

نهض د. أحمد من الأرض، واقترب ثانيةً من القبر، ثم وضع كف يده على الشاهد وقال بصوت ملحوظ:

- حتى نلتقي قريبًا يا صديقي.

**تمت.**

١٦/ ٠٧/ ٢٠٢٢

# شكر خاص

أود أن أشكر وبشكل خاص كل من قدموا لي المساعدة الأدبية والمعنوية، أو هيئوا لي الظروف التي ساعدتني على الكتابة حتى وإن كان بدون قصد. أود أن أشكر كل من تركوا بصمة صغيرة جعلتني أعود للقلم في كل مرة قررت فيها الانسحاب طيلة التسع أعوام الماضية، بدونهم لم يكن ليرى عملي الأول النور بعد الله سبحانه وتعالى.

شكرًا لأبي وأمي ولعائلتي. شكرًا لأحمد شريف، وباسم محمود، ومنى جمال على أرائهم ونصائحهم أثناء محاولة إتمام الرواية في العامين الماضيين، وكونهم العين التي رأت ما لم أراه. شكرًا لعائلة «العزبة» الصغيرة، وعائلة «فرقة بنها للموسيقى العربية» بقيادة المايسترو أحمد يسري، ونرمين خالد، وآية يوسف.

شكر خالص لمحمود جمال، ومنار محمد، وهاجر محمد، وأحمد هشام، وللأصدقاء الذين أضاعتهم الدنيا ولم تضيعهم الذكريات الطيبة والمواقف الخالدة.

وأخيرًا.. شكرًا لكل من قرر الاقتطاع من وقته وقرر قراءة هذا العمل حتى النهاية.